ثريا التركي

حياتي كما عشتها

ذكريات امرأة سعودية من عنيزة إلى كاليفورنيا

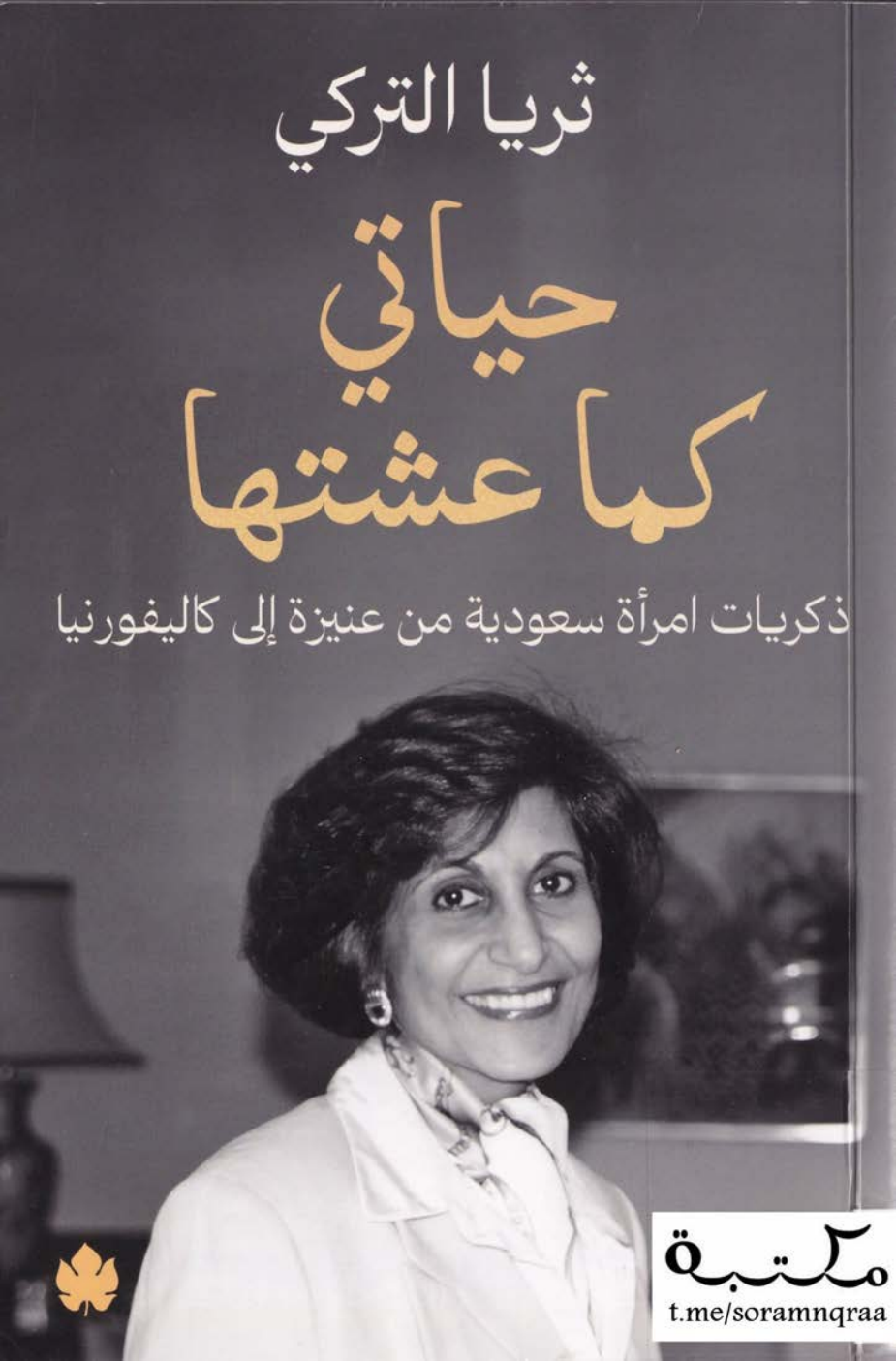

مكتبة
t.me/soramnqraa

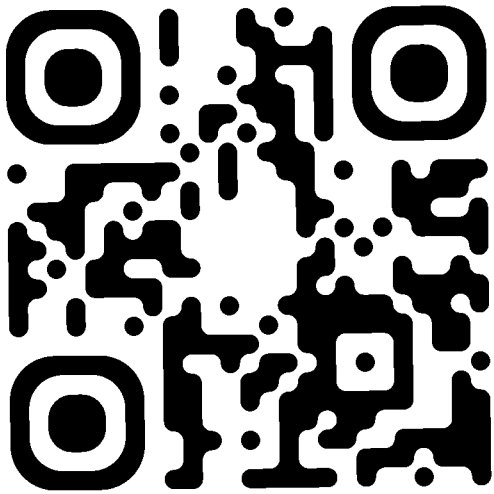

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

حياتي كما عشتها

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

© دار الكرمة ٢٠٢٤
© ثريا التركي ٢٠٢٤

مكتبة
t.me/soramnqraa

التركي، ثريا.
حياتي كما عشتها / ثريا التركي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٢٤٨ ص؛ ٢١ سم.
تدمك: 9789778727395
١- ثريا التركي - المذكرات.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٠٦٤ / ٢٠٢٤

٢ ٤ ٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

ثريا التركي

حياتي كما عشتها

ذكريات امرأة سعودية من عنيزة إلى كاليفورنيا

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكرمة

المحتويات

١. نبتدي منين الحكاية؟ أبي وأمي ٩
٢. مملكتنا الصغيرة: إخوتي الأعزاء وأنا ٣٠
٣. بعيد عن البيت وقريب من القلب: جيران وأصدقاء
ومواقف لا تُنسى ٥١
٤. إلى بلاد الأرز وعروس البحر المتوسط ٧١
٥. شقاوة بنات في الجامعة الأمريكية ١٠٤
٦. السير على حواف الجمر: إلى كاليفورنيا ١١٨
٧. الغرب والشرق يلتقيان: كلاوس وأنا ١٣٣
٨. الانطلاق من رحم الأحزان ١٦٠
٩. سلطة بلدي: جورج تاون وعنيزة وكاليفورنيا ١٧٦
١٠. كان يوم حبك أجمل صدفة! ١٨٩
١١. على الرغم من المسافات والتغيرات: أصدقاء العمر ٢٠٣
١٢. البحث عن الهوية: مَن أنا؟ ٢٢٢
١٣. وأخيرًا... ..... ٢٤٠

شكر وتقدير ٢٤٣

إلى من نظر في الظلام فأبصر النور

وإلى من أحبتني من دون حدود

وإلى من لقبته بسيد الرجال

وإلى زوجي، أعز الأصدقاء.

١

نبتدي منين الحكاية؟

أبي وأمي

مكتبة
t.me/soramnqraa

إذا كان لشخص واحد فضل عليَّ في هذه الدنيا وكان سببًا في كل ما وصلت إليه حتمًا فسيكون ذلك الشخص هو أبي، محمد السليمان التركي، وإذا كان الكثيرون يعتبرون أنني كنت استثناءً في الانتصار على التقاليد السائدة في مجتمع شبه الجزيرة غير المتحمس لتعليم الفتيات حتى العقد السابع من القرن العشرين، فإنني أعتبر أن الاستثناء الحقيقي هو أبي بسماحه لي بالانخراط في التعليم، سواء في مدارس لبنان أو مصر ثم دخولي الجامعة الأمريكية في القاهرة، وصولًا إلى سماحه لي بالسفر إلى الولايات المتحدة لنيل الدكتوراه، على الرغم مما تعرض له من حرج وانتقاد من مجتمعه وأوساطه في المملكة، وهو الرجل المقدَّر صاحب المكانة في قومه. من دون تلك الجسارة التي دعمني بها أبي ما كان قد قُدر لي أن أحقق أي شيء في حياتي.

لا يمكنني أن أحدد على وجه اليقين السنة التي وُلد فيها أبي، وهي مشكلة واجهتني عند الحديث عن تواريخ ميلاد أفراد عائلتي، بل إنني لا أعرف على وجه التحديد اليوم والشهر اللذين وُلدت أنا فيهما. فلم تعرف المملكة نظام المصادقة على المواليد والوفيات إلا بموجب المرسوم الملكي رقم ٢، الصادر في عهد الملك سعود بن عبد العزيز، في الأول من محرم ١٣٨٢، الموافق ٤ يونيو ١٩٦٢.

والدي

من الطرائف المترتبة على عدم معرفة الكثير من السعوديين ليوم وشهر ميلادهم على وجه الدقة، أن لجأت الحكومة السعودية مع بداية إصدار الهوية الوطنية للسعوديين إلى اعتبار تاريخ الأول من رجب، أي منتصف التقويم الهجري المعمول به في المملكة، تاريخ ميلاد كل مَن لا يعرف يوم أو شهر ميلاده، لكنه يعرف على وجه التقريب السنة التي وُلد فيها.

وفي الأول من رجب ١٤٤٣، الموافق ٢ فبراير ٢٠٢٢، نشرت صحيفة «الشرق الأوسط»، تقريرًا قالت فيه:

> «يحتفل اليوم الأربعاء نحو ١٠ ملايين نسمة من السعوديين والسعوديات بعيد ميلادهم، حيث يوافق تاريخ اليوم الهجري، الأول من شهر رجب وهو التاريخ الذي صدر حوله أمر سامٍ من الحكومة السعودية بإثبات تاريخ ميلاد جميع السعوديين ممن يجهلون تاريخ يوم وشهر ميلادهم الصحيح بمنتصف السنة

الهجرية، والذي يوافق الأول من رجب، لنفس العام الذي وُلد فيه الشخص.

وتعود القصة لسبب صدور هذا الأمر السامي إلى عدم معرفة كثير من المواطنين المولودين قبل التسعينات الميلادية الماضية، بيوم وشهر ميلادهم بشكل دقيق، واكتفائهم بمعرفة وحفظ عام الميلاد فقط، حيث صدر هذا الأمر السامي لمعالجة هذه المشكلة».

على وجه التقريب أقول إن أبي قد وُلد خلال سنوات القرن العشرين الأولى في مدينة عنيزة التابعة لمنطقة القصيم، وسط شبه الجزيرة العربية، ضمن ما كان يُعرف بسلطنة نجد، قبل أن يُجرى توحيدها مع الحجاز لتكون المملكة العربية السعودية الحالية. وقضى والدي طفولته في عنيزة، وتعلم القراءة والكتابة والحساب وبعض مبادئ علوم الدين، لكنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك، غير أنه صار متابعًا جيدًا للشأن العام من خلال قراءة الصحف والاستماع اليومي إلى إذاعة لندن البي بي سي الناطقة بالعربية.

تزوَّج والدي في شبابه الباكر خلال فترة إقامته في عنيزة. كانت زيجته الأولى من فتاة تنتمي إلى بيت القاضي، وهي عائلة كبيرة في عنيزة، مثل عائلتنا «آل التركي».

* * *

كانت القصيم والمدن التابعة لها، ومنها عنيزة، بلادًا طاردة للسكان، لقلة الأمطار وندرة موارد الرزق فيها، فيهاجر أبناؤها إلى الحجاز أو الكويت أو البحرين أو مصر أو الشام أو إلى الهند، للاشتغال بالتجارة أو غيرها من المهن. بالنظر إلى الظروف المادية الصعبة وطموح بعض الشباب، سافر الوالد تقريبًا في سنة ١٩٢٣ قاصدًا الحجاز، وإلى جدة على وجه التحديد، التي أرَّخ والدي وصوله إليها بأنه كان خلال الفترة القصيرة بين نهاية حكم الشريف حسين ودخول آل سعود الحجاز، وما رافقها من مواجهات عسكرية بينهما. حكى لي والدي عن تلك الفترة قائلًا: «كنت مع صديق لي من القصيم نتحرك من جدة إلى الصحراء

ببعض أكياس البضاعة التي يحتاج الناس إليها في البادية. كنا نحملها على ظهور الجمال، لكننا في الطريق كنا نصطدم بالقوات المتحاربة والتابعة للأشراف أو لآل سعود، فنهرب منها».

في يوليو ١٩٢٤ بدأ عبد العزيز آل سعود مسيرته الطويلة للسيطرة على الحجاز. وفي سبتمبر من العام نفسه هُزم الأشراف، حكام الحجاز، في معركتين شهيرتين في تَرَبة الطائف، فاهتز حكمهم في عاصمتهم مكة، وهرب الشريف وأبناؤه وحكومته وبعض السكان المدنيين إلى جدة للتحصن بها.

في جدة التي هاجر إليها أبي، وفي محاولة لترضية ابن سعود ضغط زعماء الحجاز على الشريف حسين زعيم الأشراف للتنازل عن حكم الحجاز لابنه علي الذي اتخذ من جدة عاصمة له. وقد أسس هؤلاء الزعماء الحزب الوطني الحجازي لمواجهة الأزمة الوطنية، لذلك عندما تقدمت قوات ابن سعود من الطائف بعد بضعة أسابيع من سقوطها، لم تواجه أي مقاومة في مكة، فبسطت سيطرتها على أقدس مدينة في العالم الإسلامي.

ثم بدأ الحصار الطويل لمدينة جدة الذي أدى إلى هجرة بعض عائلاتها إلى الهند والسودان ومصر وإريتريا وغيرها، حيث أقامت هذه العائلات فترات تتراوح بين ١٢ و١٦ شهرًا، ولم تعُد حتى دخل ابن سعود جدة في ديسمبر ١٩٢٥، ونصَّب نفسه ملكًا على الحجاز في يناير ١٩٢٦، وتيقنت أنه لا خوف على حياتها في ظل الحكم الجديد.

كانت الأعراف المتبعة بين أبناء القصيم المقيمين في مدن الحجاز، وكذلك معظم الجاليات، أنهم يحسنون وفادة أي شاب يصل من ديارهم مهاجرًا. كانت أولى خطوات إكرام الوفادة أن يعمل ذلك الشاب صبيًّا أو مساعدًا، في محال أيٍّ من أبناء القصيم الموجودة في جدة، إذ كان المتغير المناطقي أو الإثني هنا حاكمًا، فالقادم من القصيم يتعامل مع أهل القصيم، والحضرمي يتعامل مع الحضارمة، إلخ.

كان ابنا عم أبي الوجيهان الأخوان عبد العزيز وعبد الله التركي أول شخصين في العائلة يهاجران من عنيزة إلى جدة. وكانت لهما مكانة وهيبة في مجتمع تلك

المدينة الساحلية المنفتحة. عندما وصل والدي إلى جدة احتضنه ابن عمه عبد الله. كان والدي اجتماعيًّا ومحبوبًا وموفقًا في عمله. كذلك كان من كبار العائلة الذين هاجروا من عنيزة إلى الحجاز ابن العم ناصر التركي، الذي سكن في مكة.

* * *

لست على بينة من المصير الذي لاقى زوجة أبي الأولى التي تنتمي إلى بيت القاضي في عنيزة، لست أدري هل تُوفيت في وباء سنة الرحمة، أم أنه تركها ولم يعُد إليها بعد هجرته إلى جدة، ذلك أنه لم يعُد إلى عنيزة قَطُّ بعد خروجه منها، وإن ظلت في سويداء قلبه.

خلال سنوات شباب والدي تعرضت عنيزة ونجد والجزيرة العربية ومصر لوباء الإنفلونزا الإسبانية، الذي اجتاح العالم في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، وخلَّف ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ مليون وفاة حول العالم، فالأوبئة مثل البشر تحتاج إلى وسائل مواصلات، لكنها لا تحتاج إلى أكثر من مصاحبة مصاب على متن باخرة أو سيارة أو طائرة أو جمل حتى ينتقل الفيروس إلى بلد آخر ويفتك به.

تحظى سيرة ذلك الوباء الذي مضى عليه قرن من الزمان بروايات شفهية تصل إلى حدٍّ بعيد في وصف فتكه بالبشر في عنيزة وشبه الجزيرة العربية، ما برح والدي يردد على مسامعنا حتى تُوفي أن عددًا من آل التركي قد تُوفوا خلال تلك الجائحة، فماتت جدتي أم أبي منيرة العلي العليان (وقد سمَّى أبي أختي الكبرى منيرة على اسمها)، وأختاه وابن إحداهما، وزوجة عمي عبد الله من عائلة المنصور الزامل من عنيزة.

في كتاب «خزانة التواريخ النجدية» يقول إبراهيم بن محمد القاضي:

«وفي هذه السنة ١٣٣٧هـ: أوقع الله بالجزيرة العربية كلها البادية والحاضرة مرضًا وانتقصت الجزيرة بنفوس عديدة... ابتدأ هذا المرض في عنيزة في سلخ صفر (أي آخره) وخف في عشرين ربيع الأول، وارتفع بآخر الشهر ما بقي له أثر».

من شدة هول ذلك الوباء أطلق الأجداد على هذه السنة التي انتشر فيها المرض سنة الرحمة، وسنة «الصخونة» (أي الحُمَّى)، وقد فسر بعض الباحثين سبب هذه التسمية لكثرة الترحم على الموتى. ويقول أمين الريحاني في كتابه «تاريخ نجد الحديث وملحقاته»: «تُدعى هذه السنة في نجد سنة الرحمة؛ لأن الوافدة الإسبنيولية التي غزت العالم بعد الحرب لم تستثنِ حتى البادية».

وكان أهل الجزيرة في ذلك الزمان يؤرخون الحوادث تبعًا لوقوع حدث كبير، سواء أكانت قبله أم بعده، مثل عام الفيل. فقيل إن فلانًا وُلد قبل سنة الرحمة بأربعة أعوام، أو إنه تزوَّج بعد عامين من سنة الرحمة، وهكذا.

على أي حال، الذي أنا متأكدة منه أن أبي هاجر بمفرده إلى جدة، فقد كان الرجال الشباب يصلون إلى هذه المدينة الساحلية من نجد من دون زوجاتهم وأطفالهم، ويبدأون عملهم في دكاكين النجديين الذين وصلوا من قبل، ووطدوا أحوالهم التجارية وجلبوا عائلاتهم. لكن المهاجرين الجدد ما لبثوا أن فتحوا مخازنهم التجارية بالأموال التي ادخروها وتوسعوا في أعمالهم لتشمل تجارة التصدير. وبعد أن حققوا شيئًا من الاستقرار جلبوا عائلاتهم.

لكن أبي لم يفعل ذلك، فبعد أن تحسنت أحواله المادية امتلك جارية أو سُرِّية. وسُميت الجارية «سُرِّية» لأنها تكون موضع سرور الرجل، ومنه قول بعض أهل العلم في معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أمارات الساعة «أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها»، وقد قالوا هو إخبار عن كثرة السراري (جمع سُرِّية) وأولادهن، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها، وقد قيل إن معناه أن الإماء يلدن الملوك، فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته. كان نظام الرق معمولًا به في جميع مناطق شبه الجزيرة العربية خلال تلك الفترة، وفزع أمين الريحاني إبان زيارته إلى الحجاز وعسير سنة ١٩٢٢ من تفشي داء العبودية، فكتب وهو في تهامة:

«كنت أؤمِّل، على فرض وجود الرقيق والنخاسة، أن تكون الحكومة ناهضة للأمر متعقبة المجرمين، ساعية في محق هذه التجارة

المستنكرة، الأثيمة، فوجدتها في الحجاز وفي عسير نائمة وا أسفاه أو متناومة، أو عاجزة. بل وجدت الحكومة أحيانًا حليفة الرعاع».

وفي ٦ نوفمبر ١٩٦٢ أصدرت الحكومة السعودية بيانًا وزاريًّا تعلن فيه إلغاء الرق مطلقًا، وتحرير جميع الأرقاء.

كانت الجارية التي لدى أبي آسيوية، يُقال إن أصلها من إندونيسيا، ومن جزيرة جاوا على وجه التحديد. أنجب منها أبي، أخي الأكبر، الذي سمَّاه «سليمان» على اسم جدي، وبمجرد أن ولدت الجارية أخي صارت حرة وفقًا للشريعة الإسلامية. واختارت أن تبقى في بيت أبي لفترة، إلى أن تركت جدة لتعيش في مكة. وعاش سليمان مع أبي إلى أن اختلفا معًا، وأخرجه والدي من بيته في جدة فسافر إلى مكة ليعيش مع والدته، وتزوج هناك، وظلت علاقتنا به مقطوعة إلا من اتصال بأختي الكبيرة منيرة.

الحقيقة أن أحدًا لم يحدثني عن أخي سليمان، كنت كلما سألت العائلة عنه في طفولتي أشعر بأنهم يخفون سرًّا جللًا بخصوصه، وبعد أن كبرت بالكاد عرفت أنه، بعد أن تزوج في مكة، عمل في أحد دواوين الحكومة، ثم تورط في جريمة اختلاس، وعلى إثرها دخل السجن فترة طويلة.

* * *

عندما فتح عبد العزيز بن سعود جدة، وأنهى حكم الأشراف بتنصيب نفسه ملكًا على الحجاز في سنة ١٩٢٦، واعتبر جدة المركز المؤقت للحكومة، تغير وضع النجديين في هذه المدينة الساحلية والاستراتيجية، فقد عمل انتماؤهم لصالحهم هذه المرة، وسعوا للحفاظ على هويتهم كنجديين والتمتع بما كانت تتيحه من فرص، بعد سنوات من الاضطهاد على أيدي الحجازيين، الذين تسيطر عليهم صورة ذهنية نمطية مفادها أنهم أكثر تقدمًا وانفتاحًا من سكان نجد.

ليس غريبًا ألا نجد تزاوجًا بين النجديين وأهل جدة الأصليين الذين يُطلق عليهم «أهل البلد» قبل عهد ابن سعود، وبالتدريج أخذ النجديون يعتادون الزواج

من أفراد عائلات أهل البلد، وذلك بعد حلول عهد ابن سعود، وقد أصبح النسل الناتج عن حالات التزاوج هذه، والذي يحمل هوية النجديين من جهة وهوية أهل البلد من جهة أخرى، في وضع يمكِّنه من تأكيد ذلك المزيج الثقافي الذي طبع خلفيته، وجعله في موقع أفضل حسب الظروف.

عبد الله التركي (ابن عم أبي) من أوائل النجديين الذين تزوجوا من أهل الحجاز، وكانت زوجته الأولى من بيت رضوان في جدة، وهم أناس محترمون، وأنجب منها ابنتيه عائشة وفاطمة، ثم تُوفيت. بعدها خطب فتاة من عائلة حجازية أخرى تسكن جدة تُسمَّى «فكهاني»، وسُميت العائلة بهذا الاسم لأنهم كانوا وكلاء كبارًا للفاكهة مثل عائلة الشربتلي، وكان هناك تنافس بينهما على حلقة الفاكهة في جدة.

خطيبة عمي عبد الله التركي كانت الابنة الكبرى للسيد عمر فكهاني، بديعة. كان والدي يحترم عمي عبد الله، وكان عمي شديد الحب له، ومن هنا اقترح عليه أن يتزوَّج الابنة الثانية من بنات عمر فكهاني، وهي أمي نور فكهاني، وتزوَّج الاثنان من الشقيقتين في الليلة نفسها.

أسفرت زيجة عمي عبد الله التركي من خالتي الكبرى بديعة عن إنجابهما: منيرة ونور (على اسم أمي)، وإبراهيم وعبد العزيز، وكانت لعمي ابنتان من زوجته الأولى: فاطمة (كنا نناديها «فتو»)، وعائشة. بعد وضعها آخر أبنائها ماتت خالتي بديعة. لم يكن محظوظًا عمي عبد الله في زيجتيه، إذ دنا الأجل من زوجتيه في ريعان الشباب. بعدها حمل أبناءه الأربعة إلى بيت جدهم لأمهم (جدي أنا أيضًا)، الذي صار لهم أبًا، وصارت جدتي لهم أمًّا. وتربينا نحن في بيت والدنا، لكننا كنا نزورهم في بيت جدي من حين إلى حين.

انقلب ميزان الدنيا على عمي عبد الله، وفقد ثروته، إلى درجة أنه لم يستطع أن يسفِّر ابنه إبراهيم ليتعلم في الخارج، كما فعل أبي مع أخي أحمد. لكن في نهاية المطاف جرى تعيين إبراهيم في وزارة الخارجية السعودية، وصار سفيرًا. أما عبد العزيز فقد اختلط بالأجانب، وتحسن مستواه في اللغة الإنجليزية،

وكانت طريقة حياته غريبة على المجتمع السعودي، فكان كل يوم بعد الغداء يلعب «تنس»، وانتهى به الأمر إلى أن عمل في شركة أرامكو، ومضت الأمور إلى أن صار عبد العزيز الرجل الثاني لزكي يماني وزير النفط الشهير في السعودية.

والدتي نور فكهاني، وتنتمي والدتها السيدة مصباح إلى عائلة السيد، وهي عائلة كبيرة وتحظى بالاحترام. كانت جدتي جميلة جدًّا، وهي تركية الأصل، وقد ورثت أمي عنها الجمال، وبياض الوجه الضارب أحيانًا إلى الحمرة.

حكت لي أمي بكثير من الخيال عن زواجها. كانت صغيرة لا يتجاوز عمرها ١١ سنة.

قالت:

- كنت متحمسة جدًّا للزواج.

سألتها:

- لماذا الحماس في هذه السن الصغيرة؟

قالت وهي تضحك:

- لأني عرفت أن كل الملابس التي تعدها أمي قبل العرس لي ولأختي الكبيرة بديعة، فكان ذلك فقط هو ما يحمسني للزواج.

في يوم الزفاف نامت على السلم من فرط الإرهاق، لأنها كانت تجري فرِحة في كل أنحاء البيت. كان جل الاهتمام لخالتي بديعة التي ستُزف مع أمي في الليلة نفسها، وفي نهاية المطاف جاء محمود أبار خال أمي وحملها إلى حيث سيتم تلبيسها وتجهيزها للعرس.

مضت مراسم الزفاف، وفي الصباح جاء أهل أمي ليزوروها كما تجري العادات. وجدوها تبكي.

سألوها:

- ما الخطب؟

قالت:

- هذا الرجل يبغى يسوي معايا كلام العيب!

لم يكن لتلك الطفلة أي تصوُّر عن معنى الزواج، فقط هو بالنسبة إليها الملابس الكثيرة والأنيقة، والانتقال إلى بيت آخر للعيش فيه!

وعلى ذكر جدي محمود أبار، أخو جدتي من الأم (خال أمي)، فكان قامة بين الرجال وينتمي إلى أسرة كبيرة بالسعودية، وكان يملك بيتًا في العجوزة بالقاهرة، وكذلك عوامة على النيل، وكنت عندما تراه لا تتردد في أن تقول «واثق الخطوة يمشي ملكًا»، وكان محبًّا لأمي ولنا ودائم السؤال عنا.

عاشت أمي أوقاتًا عصيبة في بيت زوجها، ووجدت صعوبة في التعامل مع السُّرِّية المخضرمة، التي كانت تغار منها، باعتبار أن أمي هي الزوجة الحرة، أما هي فهي الجارية الأمَة. كانت أمي طفلة حُرمت من طفولتها قسرًا، ولذلك ليس من الغريب أنها كانت تلعب مع أخي سليمان - أخي من السُّرِّية - كطفلة مثله، لم يكن لها حق الاختيار، ودخلت عالم الزوجية صغيرة ولم تستمتع بطفولتها، كما أنها لم تتعلم، لا تقرأ ولا تكتب، وكذلك أخواتها جميعهن.

حملت والدتي وأنجبت ولدًا سموه «عبد العزيز»، ربما تيمنًا بالملك عبد العزيز بن سعود، لكنه تُوفي بعد أشهر معدودة من ولادته، ويبلغ مجموع مَن أنجبتهم أمي ١١ طفلًا وطفلة (بينهم ٤ توائم). عاش منهم خمسة (منيرة، وخديجة، ولطيفة، وأحمد، وأنا ثريا)، ومات الباقون، ومن ضمنهم أخي تركي.

كان أخي تركي يلقبه أمي وأبي بالطفل كامل الأوصاف. كان ينتظر أبي عند عودته من سهرة الليل مع أصدقائه، فلا ينام حتى يعود أبوه ويرتمي في حضنه. عاش تركي إلى سن التاسعة ثم مرض مرضًا شديدًا، وكان والدي يعمل في اليمن ضمن فريق ترسيم الحدود السعودية اليمنية - كما سيأتي ذكره. عاد أبي فوجده مريضًا فحزن حزنًا شديدًا، وكانت أمي تحاول أن تطعم ابنها المريض فيرفض من شدة المرض. تقول له:

- كُل يا تركي وإلا سأغضب عليك.

يُقبِّل الصغير يديها ويقول لها:

- سآكل، لأن غضبك يا أمي يُدخل النار.

في نهاية المطاف تُوفي تركي، فانكسر قلب أمي عليه، وحزن أبي كما لم يحزن من قبل، فهجر سهرات الأصدقاء، وقضى وقتًا طويلًا في البيت، وكابد حتى يتغلب على أحزانه ويعود إلى عمله. قَطُّ لم ينسَ أبي تركي، وهو في سكرات الموت ظل يردد: «تركي».

أخي الأصغر تركي الذي تُوفي وعمره تسع سنوات

* * *

في سنة ١٩٣٢ تحولت وكالة المالية العامة في المملكة العربية السعودية إلى وزارة المالية، وجرى تعيين الشيخ عبد الله السليمان الحمدان، المولود في عنيزة سنة ١٨٨٤، وزيرًا مسؤولًا، وعُين أخوه الشيخ حمد السليمان الحمدان، المولود في عنيزة كذلك في سنة ١٨٨٦، وكيلًا للوزارة يتولى الأعمال باسمه ونيابة عنه.

في التشكيل الجديد لهيكل الوزارة، اختار الشيخ عبد الله السليمان، والدي الشيخ محمد السليمان التركي رئيسًا للكنداسات في جدة وينبع، يعاونه في ذلك عدد من الموظفين والمهندسين يبلغ ٧١ موظفًا في جدة و١٠ موظفين في ينبع. والكنداسة كلمة مشتقة من الإنجليزية «condensate» أي تحلية المياه المالحة، وهي عبارة عن مصفاة لتحلية مياه البحر المالحة. وكان أهالي جدة يقيمون صهاريج (آبارًا) لحفظ مياه الأمطار سواء خارج البلد قرب الأودية أم في بعض البيوت الكبيرة، وكان هناك صهريج في حارة المظلوم، وعلى الرغم من أن الماء يمكث وقتًا طويلًا في الصهاريج، فإن سكان جدة كانوا مضطرين إلى استخدامه.

وكانت للكنداسات أهمية خاصة خلال تلك الفترة بسبب قلة المياه في هاتين البلدتين، وضرورة إيجاد الكميات الكافية والصالحة للشرب فيهما. وكانت هناك مقطرة قديمة في جدة فأبدلت بها الحكومة مقطرتين جديدتين تخرجان في اليوم كمية تبلغ ٢٠٠ طن من الماء المقطر، ويباع إلى السقاة بسعر يزيد قليلًا على كلفة استحصاله.

لم يستمر والدي طويلًا على رأس مصلحة الكنداسات، إذ جرى تعيينه مديرًا لمالية جدة في السنة نفسها (١٩٣٢)، التي فيها أيضًا احتاج الملك عبد العزيز بن سعود إلى تنظيم أوضاع عسير، فأصدر الأمر إلى والدي في ٦ يونيو ١٩٣٢، بصفته مديرًا لمالية جدة للقيام بالتنظيمات المالية في عسير.

في عام ١٩٣٤ شكّلت السعودية لجنة لترسيم الحدود بينها وبين اليمن، كان والدي، محمد السليمان التركي، عضوًا فيها. كما شغل والدي كذلك منصب مدير الإدارة المالية للأحساء، التابع لها ميناء العقير أهم الموانئ السعودية في ذلك الوقت، وكانت الأحساء هي مقر إمارة المنطقة الشرقية قبل الدمام.

من المناصب المهمة التي شغلها الوالد كذلك عضوية مجلس الشورى القديم لمدة عام واحد تقريبًا بين سنتَي ١٩٣٧ و١٩٣٨.

كان لوالدي أيضًا دور مهم في إعمار مدينة جدة، رصدته دراسات عديدة،

أجمعت على أنه في سياق جهود الملك عبد العزيز بن سعود للنهوض بمدينة جدة، فقد وزع الشيخ عبد الله السليمان، وزير المالية، الأراضي في شارع الكندرة الممتد من مكان مقبرة حواء إلى ميدان المطار القديم، فبنى هذه الأماكن آل الخريجي، والمعلم محمد بن لادن، والشيخ محمد السليمان التركي، وغيرهم.

من الأدوار الثقافية المهمة للوالد أنه في سنة ١٩٥٢ شارك الشيخَ محمد حسين الأصفهاني، رائد صناعة الطباعة في المملكة، في إنشاء أول مطبعة تُقام بالمملكة، وشاركهما في ذلك: عبد الله الخريجي، والشيخ محمد سرور الصبَّان، ثم باع الثلاثة أنصبتهم للأصفهاني فيما بعد.

* * *

ليس من السهل وصف أبي. في أوقات أجده محافظًا للغاية ولكنه أيضًا مرن يتكيف مع الظروف، عاش في الحجاز واختلط بأهله وشاركهم اهتماماتهم وتطلعاتهم. تزوَّج منهم واكتسب الكثير من طباعهم بعكس أخيه إبراهيم الذي تزوج منهم لكنه نأى بنفسه عن مخالطتهم. كنا من أوائل الأسر التي سافرت إلى مصر ولبنان، ثم إلى خارج العالم العربي. كان يعرف أن أمي وأخواتي يتحررن نسبيًّا من تقاليدنا في الملبس والخروج من دون محرم، ولم يكن هذا يشكِّل قلقًا كبيرًا له.

لصغر سني كنت الأكثر انتفاعًا من هذا التغيير، فتيسرت لي فرصة الالتحاق بالمدارس في الخارج والجامعات والإقامة بمفردي. حتى الأساسيات، كان أبي يتعامل معها بمرونة، مثل قرار سواقة أختي خديجة في القاهرة. لم يكن هذا سهلًا على نفسه، لكن كل هذا جعله من النجديين المخضرمين، إضافة إلى اتساع أفقه مع كثرة أسفاره واهتماماته بالعالم الكبير. كذلك تفرعت صداقاته إلى أسر حجازية عديدة.

كذلك من مرونة أبي أنه حاول جاهدًا التعامل مع الغرب، وما قابله من عادات غريبة عليه، فمثلًا عندما كنا في دوسلدورف بألمانيا، مع أمي حاول أن يطبق بروتوكولات معاملة الرجل للمرأة في الفضاء العام، قلنا له إن المرأة تتقدم

الرجال في المسير، فكان يجتهد في تطبيق هذا، لكنه كثيرًا ما ينسى ويتقدم علينا ثم ينتبه فيعود بسرعة ليمشي بجانبنا.

ذات مرة في روما خرجنا من المطعم وأخذنا الحنطور، سبقت والدي لأجلس إلى جوار أمي، فيما كان هو جالسًا في المكان المريح بجانبها لألم اشتد على ظهره، لكنني لم أتحرك من مكاني. لن أنسى نظرة الألم على وجه أبي الذي جردته الغربة من قوته وهيمنته النفسية. تدمع عيناي وينعصر قلبي أسفًا وحزنًا على هذا السلوك، سامحني يا أبي فأنا لن أسامح نفسي!

وأدخل في رحلة أخرى، حيث حضر والدي لإجراء عملية في دوسلدورف. كنت أقضي الوقت معه لترجمة الحديث، تماثل للشفاء وبدأ يتحدث عن عنيزة، بل ويتغنى بها.

وتتجلى مرونة أبي في موقفه من دخولي الجامعة الأمريكية. كنت أسمع من أمي وأخواتي أن الناس في جدة ينتقدون والدي على أنه سمح لي بدخول الجامعة، بعضهم كان يقول: «كيف توافق يا شيخ محمد! البنت ممكن تفلت». أعلم جيدًا أن كلام الناس يهم والدي، ويتأثر به، فتملكني شعور بالذنب لأنني عرَّضت أبي لكل هذا الحرج.

ما أكد لي أن أبي أدخلني الجامعة وهو يعلم أن بها اختلاطًا لا يحبه أنه وبينما أنا في السنة الثالثة، وكنت عند أختي منيرة وكان هو في مصر، وفيما نحن جلوس على الأرض نستعد لتناول الغداء، باغتني بهذا السؤال: «إلا قوليلي حبيبتي، الجامعة اللي إنتِ فيها بها أولاد؟!».

طبعًا هو لم يسألني هذا السؤال لا في السنة الأولى ولا الثانية، ولكن في الثالثة بعد أن بقي القليل وأنتهي من دراستي، لو كان قد أصر على طرح السؤال الذي يعرف إجابته بالطبع منذ السنة الأولى ما كنت قد دخلت الجامعة!

هذه المرونة لم تظهر في تفكيره السياسي على الإطلاق، فبقي على ولائه لآل سعود وتحيز إليهم ضد مَن اختلف معه في هذا الولاء، مهما كانت معزته في قلبه.

مرت الأيام ومرض أبي مرضًا أقعده في الفراش، وتعذر عليه أن يعتمد على

نفسه، وكان لديه شاب يرعاه من حضرموت اسمه جمعان. كنت أتعاون معه في خدمة أبي، الذي يذهب بعدها إلى نزهة بالسيارة مع السائق عم أمين. لم تساهم والدتي في هذه الرعاية إلا من آنٍ إلى آنٍ.

أما السند الرئيسي لي فكان ابنة عمة أمي، كان اسمها بيبي زينب، تعيش في ذلك الوقت مع أسرة خالي علي، لكنها تمضي نصف الأسبوع عندنا بسبب مرض أبي، وتنام معي في الغرفة نتجاذب حديث ما قبل النوم. أحببتها أكثر حتى من حبي لأمي، وأحبتني هي من دون تحفظ، وقبِلت كل تصرفاتي حتى التي لا ترضى عنها.

من دون مساعدة بيبي زينب ما كنت أستطيع رعاية أبي، فكانت تركز معي على مداعبة أبي حين لا يقبل أن يأكل، وكثيرًا ما يقول أنا صائم، فتخرج هي إلى الصالة المجاورة لحجرة أبي وتصيح بالأذان فيبدأ أبي في الإفطار. هي جوهرة فريدة، لم أقابل أي فرد لا يحبها ولا يحترمها. نشأت وترعرعت في بيت جدي لأمي، وغرقت في مشكلاتنا حتى الركب، قد تزعل منا لكنها دائمًا تحبنا من دون شروط ولا حدود.

نشأت بيبي زينب في بيت جدي لأنه خالها. لم أرَ أمها أو أباها. يُقال إن والدها يبيع سبحًا للحجاج، وكان يوكل لضم هذه السبح إلى ابنته زينب، مما جعلها لا تتزوج حتى بعد أن تُوفي، وعلى الرغم من قسوة الحياة عليها فإن قلبها لا يعرف غير العطاء، أحبتنا جميعًا.

توطدت علاقتنا عندما انتقلتُ إلى جدة لمراعاة والدي والقيام بدراستي الميدانية. لا أدري كيف كنت سأتحمل تلك الأيام من دونها! كانت تمضي أكثر أيام الأسبوع معي، وعندما يعود أبي من نزهة العصر تستقبله معي عند السيارة وتبتسم وأنا أغني له «يا حبيبي أنا، يا حياتي أنا، أنا أحبك أنا، يا أبويا أنا».

أحس بذنب كبير عندما مرضت بيبي زينب، وكنت أدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، سمعت أن هذه هي النهاية. إدراكي أنني سأفقدها شلني، ولم أستطع أن أزورها. دائمًا أهرب من اختفاء الأحباء، لم أستطع أن أدخل

على أمي وقد فارقت الحياة في غرفتها، تسمرت عند الباب إلى أن شدوني شدًّا للخروج من الطرقة.

ما أصعب الفراق!

* * *

أمي نور فكهاني في نظري هي أجمل امرأة في العالم، فهي امرأة مليئة بالجمال، والروح الصافية. كانت صادقة مع نفسها، لا تجيد المناورة والمجادلة (اللي في قلبها على لسانها). كانت أمي مرحة تحب الأنس، لها صوت جميل إذا غنت في جلسات للطرب مع نساء العائلة.

أمي بالزي النجدي

كانت هذه الجلسات للنساء فقط، وكانت بعض النسوة من الحضور ذوات الأصوات الجميلة مثل والدتي يقدن الغناء. كنا نجلس على فرش عربي على الأرض، ويجري تقديم الشاهي والقهوة وكذلك العصائر والتمر والمكسرات، ويوجد موقد بالفحم لتحمية الدفوف، وقد تدخن بعض النساء الشيشة. كان جوًّا مليئًا بالمرح والضحكات. كان والدي لا يوافق على الغناء لقناعاته الوهابية، فكنا نبلغ البواب لإخطارنا عند وصول أبي للتوقف عن الغناء فورًا.

كانت أمي تفتح قلبها لكل من حولها، خرجت صغيرة من بيت أهلها وبدأت تمارس الحياة الزوجية بمسؤولياتها، فاضطرت إلى النضوج. كان أبي أكبر منها سنًّا، وما سمعناه يدللها قَطُّ - لم أسمعه ينطق باسمها. عند الرضا كان يناديها بأم أحمد. بخل عليها بأن فضَّل ابنتها عليها، ولكن كان أحمد ابنها دائمًا مجتهدًا في إنصافها.

هي التي دفعت أبواب عالمها إلى الخارج، وتفوقت في إنجازاتها في مجتمعات جدة الراقية أو في خارج البلاد. كان حضورها ملموسًا من الجميع، ولمعت في أناقتها ولباقتها، وكانت الجلسات النسائية هي المجال للاختلاط النسائي والتعرُّف على العائلات واختيار الزوجات المناسبات للأولاد. وكان لصداقات النساء أثر كبير في توسيع عالمها وخلق فرص لتوثيق العلاقات، وتميزت أمي بمرحها الدائم واختيارها الجيد لصديقاتها، وساعدها ذكاؤها وفطنتها على تكوين تحالفات مهمة.

عافرت أمي في العالم الجديد، تقبل منه المغنى والطرب وما تراه جميلًا. جاءت بمدرسة لتعلمها القراءة، ولكنها لم تفرض رؤيتها أو آراءها على أحد. أحبتنا من دون تحفظ، وحاولت بكل جهدها أن تتعامل مع عالمنا سريع التغير.

بطبيعة الحال، أثرت أمي في قرار زواج بناتها بشكل غير مباشر، فكانت تنقل إلى أبي أخبارًا عن العريس وأهله بطريقة غير مباشرة، كما ذكرت في كتابي «المرأة في المملكة العربية السعودية: الأيديولوجيا والسلوك بين النخبة» أن عالم النساء

كان له تأثير في قرارات الرجال. يعتقد الرجال أن القرارات بأيديهم فقط، وكم تدل هذه المناورات على ذكاء النساء في هندسة قرارات الرجال.

كذلك أثرت أمي في قرار دخولي المدارس ثم الجامعة، ولعبت دورًا كبيرًا في ابتعاثي إلى أمريكا. فقد أثرت على والدي وأقنعته أن يتركوني في مدرسة داخلية ببيروت، ثم أثرت عليه لأسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بالتحالف مع زوج أختي منيرة الذي كانت له كلمة مسموعة عند والدي.

لم تخَف من السفر إلى عالم لا تعرفه مثل أوروبا، بل واجهته وهي متمسكة بقواعد دينها في الملبس والمأكل، وأخذت قرارات دعمتني بها في تحدي التقاليد، كما سيجري شرحه. كذلك كانت شجاعة في مواجهة عالمها الجديد. منذ أن تزوجت ارتقت إلى مستوى التحدي في عالم النساء وفي صداقاتها. كما أبهرت من حولها بهذه المساهمة.

كانت أمي ذكية بالفطرة، لا تقرأ ولا تكتب، لكنها كانت حافظة لكتاب الله عن ظهر قلب، وتتسم بكرم حاتمي، منفتحة على عالمنا، تلمع في كل جلسات النساء. كانت وأختها مريم تُسمَّيان بـ«العمريتين» - نسبة إلى أبيهما عمر فكهاني - اللتين يترادف ذكرهما وحضورهما مع الأناقة والجمال الأخاذ.

كان طبع أبي يختلف عن أمي، فهي بحر بلا شطآن في كرمها، وأبي متقشف من دون بخل. لم يفهم - وهو الذي نشأ في نجد - ثقافة بنات الحجاز في الملبس والزينة، فكان يقتصر تمويله شراء الملابس لزوجته وبناته على مناسبة عيد الفطر، وما غير ذلك فكانت أمي وأخواتي يدبرنه بشكل أو آخر. كانت أختي منيرة وصديقة لها تمضيان شهر رمضان في خياطة الكسوة لكل الخدم، حتى يفرحوا بها في العيد.

نشأت أمي في مجتمع الحجاز المتمدين نسبيًّا مقارنة بنجد، والغارق في جماليات الحياة، فتجمعات النساء لها قواعد مُركبة في الاستقبال وفي الملبس ومظاهر الكرم، والإتيكيت يتطلب الكثير من اللباقة واللياقة الاجتماعية، وقد تفوقت أمي في كل ذلك.

أمي بالزي الحجازي

كما سافرت أمي إلى خارج المملكة، وكان حضورها الاجتماعي ملحوظًا في لبنان ومصر في بداية معرفتها بالسفر من خلال المآدب التي كانت تقيمها للأصدقاء، وكنت ألتصق بها طالبة الحماية من ذلك العالم الجديد عليَّ خارج ديارنا. لم تهتز أمي بما جد عليها في سفرياتها خصوصًا إلى أوروبا، بل تعاملت مع الجديد من دون تحفظ، ولم تتخلَّ عما تعتبره ثوابت في حياة المرأة العربية المسلمة، وتمسكت بغطاء الرأس والثياب الطويلة المحتشمة، في قلب جنيف وباريس ودوسلدورف ولندن وفيينا وروما.

تعود إلى جدة بعد كل مرة نسافر فيها، وقبل أن تنزل من الطائرة تطلب من سليمان الخريجي صديق والدي الذي يصعد الطائرة لاستقبالنا أن يأتي لها بشيء من تراب جدة، وتقول له: «عاهدت الله في غربتي أن أُقبِّل شيئًا من هذا التراب حين خروجي من الطائرة».

ولا أظن أن أبي ساعد أمي في مسؤولياتها، بل كان يضع مصروف البيت في عهدة أختي الكبيرة منيرة. لا أدري كيف وافقت أمي على ذلك، أحار في تفسيره، ربما لأن منيرة كانت تجيد القراءة والحساب؟ لا أدري. غير أن ذلك منح أختي سلطة في البيت حتى على أمي، وهو الخلل الذي أصاب مكانة والدتي في البيت الذي من المفترض أن تكون هي سيدته بلا منازع حتى من ابنتها الكبرى. ربما قبِلت ذلك الوضع لقلة حيلتها أو لأنها توقعت أن تسيطر على ابنتها، كما كان يحدث كثيرًا.

ترتب على هذا الوضع من تمكين أختي من إدارة شؤون البيت أننا نحن الأبناء صرنا عندما نحتاج إلى شيء نذهب إلى أختي لا إلى أمي. كان ذلك قاسيًا على نفسية والدتي، وأصدقكم القول، وكان قاسيًا على نفسياتنا أيضًا، فدلال البنت أو الابن على أمه واستغلال عاطفتها نحوه يختلفان عن محاولة التقرب إلى الأخت مهما كانت رقيقة في معاملتها. كنا مضطرين إلى ذلك بعد أن سلَّم أبي ميزانية البيت إلى منيرة.

وعلى الرغم من كل شيء استطاعت أمي أن تحافظ على زوجها، فلم يتزوج عليها، وحافظت على بناتها اللاتي كن دومًا بين الجفون، في نَنِّي عينيها، لكنني أظن أن والدي ضيَّق عليها، كتم نموها، حرمها من أشياء أثيرة لقلبها بتعصبه الوهابي (كمقاومة حبها للغناء والطرب واستهجانه)، أحبط تطلعاتها.

أتذكر مشاجرات كثيرة بين أبي وأمي، وأتذكر أن طفولتي تشبَّعت بالخوف من انفصالهما. كان أبي يحتد على أمي وينهرها أمامنا، وألقى عليها يمين الطلاق مرتين، لا أتذكر تفاصيل الطلاق، لكنني أتذكر أنها مرة ذهبت إلى بيت جدي. وكانت حمامة السلام التي أعادت المياه إلى مجاريها هي عمي عبد الله، الذي كان رقيق الطبع، لطيفًا في معاملته مع نساء بيته، وله تأثير كبير في والدي، منذ أن احتضنه فور قدومه إلى جدة من عنيزة.

المرة الثانية التي طُلقت فيها أمي كنت في الجامعة الأمريكية، وأتت إلى القاهرة تشكو إلينا (منيرة وخديجة وأنا) من أبي. كنت أقيم مع خديجة في بيتها، وحضر الوالد ليشرح موقفه لخديجة، لكنها ابتعدت عنه، مظهرة غضبها من تعامله مع أمنا ومعلنة انحيازنا إليها، وهو ما أحدث أزمة بين خديجة ووالدها، الذي خرج من بيتها غاضبًا.

لكن سرعان ما عاد الوالد إلى خديجة، وطلب منها أن توصله بالسيارة إلى

بيت أختي منيرة حيث تقيم الوالدة ليصالحها، وركب بالفعل بجوار خديجة وأنا ركبت في الخلف. كان أبي على علم بأن ابنته تقود السيارة، وهو ما كان ممنوعًا في المملكة حتى وقت قريب، لكنه لم يفاتحها في ذلك.

علاقتي بأمي كانت مركبة، أعترف بعد كل هذا العمر وقلبي يعتصره الألم بأنني كنت أخجل من والدتي، لأنها لم تتحصل على تعليم جيد - وكذلك أبي - ولم تكن تجيد لغات أجنبية، فالكثير من أمهات صديقاتي المصريات يُجِدن إما الإنجليزية وإما الفرنسية، لذلك كنت أفصل بين عالمها وعالمنا - صديقاتي وأنا - حتى لو كنا في البيت نفسه الذي تعيش فيه.

زارتني صديقة في مصر تنتمي إلى هذا العالم الذي كنت أظنه «متفرنجًا»، وكانت أمي تشكو مرضًا يؤلمها، وفجأة سمعت صوتها يتألم، فذهبت إليها على عجل وقلت لها مستنكرة:

- لماذا هذا الصريخ؟ أنا معي ضيفة في الصالون.

ردت خائفة:

- طيب طيب هاسكت.

أسأل نفسي مرارًا: لماذا فعلت ذلك؟ لماذا كنت أخجل من أمي؟ أي ذهنية تلك التي كانت تسيطر عليَّ وأي قلب ذلك الذي كان بين أضلعي؟!

على الرغم من كل ذلك فقد أحبتني أمي من دون حدود. كان حنانها الطاغي وحضنها الدافئ هما ما يُعيناني على مواصلة الحياة بعد كل أزمة أتعرض لها. قبِلت كلاوس كوخ زوجي الألماني وفتحت له بيتها، واقتربت منه على الرغم من علمي بصعوبة ذلك على نفسيتها. كانت تذهب معه للتمشية في قصر المنيل بالقاهرة بزيها التقليدي، وتعود إلى البيت فيجهز لها دواءها في مواعيده، ويلاطفها ويحكي لها بعض الحكايات بلغته العربية المكسرة. ومن المواقف الطريفة أننا كنا نتناول الإفطار معًا، وكما هي عادتنا كان صحن التمر يزين السفرة، لم يكن كلاوس قد تعرَّف على التمر بعد، فأخذ يسألني عنه بالتفصيل، وشعرت أمي بأنه يستفسر عن طبيعة التمر، فاندهشت من عدم معرفته بالتمر الذي تعتبره من بديهيات الحياة، ورفعت صوتها إليَّ وقالت: «هل تزوجتِ يا ابنتي من بدو ألمانيا؟!».

٢
مملكتنا الصغيرة
إخوتي الأعزاء وأنا

بعد زواج والدي بوالدتي، عاشا فيما يُعرف الآن بجدة القديمة أو جدة البلد. لم يكن الزحف العمراني قد وصل إلى ما صارت عليه الآن هذه المدينة الساحلية المنفتحة على العالم الخارجي. أول مولود رُزقا به كان أخي عبد العزيز، الذي تُوفي رضيعًا، بسبب تدني الخدمات الصحية في ذلك الزمان، على الرغم من أن عائلتنا من العائلات الميسورة. كان الأمر يقتصر على طبيب هندي يتابع عائلات الأشخاص المهمين، ويدلي بدلوه في كل العلل والأمراض، بصرف النظر عن دراسته لها.

أختي التي وُلدت بعد عبد العزيز اسمها منيرة، على اسم جدتي لأبي. كانت منيرة قريبة من الوالد، وتحتل مكانة أثيرة في قلبه. اعتبر أبي أنها الأكثر كفاءة في إدارة أمور البيت على النحو الذي وضحته في الفصل السابق، وصار ذلك معروفًا في إطار العائلة بمفهومها الواسع. أذكر أنني كنت في السادسة أو السابعة من عمري وسافرنا إلى المصيف في لبنان، وكان يقيم معنا خالي الصغير جميل فكهاني وأسرته، وزوجا أختيَّ منيرة وخديجة وأبناؤهم، وكانت منيرة هي التي تدير المنزل، وكان هناك نوع من الطيور المشوية التي نحبها، فكنا نلح أو نتحايل عليها كي تشتريها لنا.

* * *

النساء أغلبية عددية في بيتنا، فمقابل أبي وأخي أحمد توجد أمي وأخواتي: منيرة وخديجة ولطيفة وأنا. حتى الجواري والخادمات لدينا كن أغلبية أيضًا مقابل العبيد

(ولله الحمد، ألغت الحكومة السعودية نظام الرق عام ١٩٦٢)، لم يكن لدينا إلا عبد واحد هو دادي سفيان، والطباخ المصري: عم محمد (حر) مقابل خمس جوارٍ.

لم يكن ضرب الأبناء أمرًا معتادًا في أسرتنا. كانت أمي حنونًا عطوفًا لا تقدر روحها على تحمُّل ضرب أحد من أبنائها، وأبي كان كذلك، إلا في استثناءات نادرة معي ومع أختي لطيفة، سأسردها لاحقًا. تلك الأجواء التي لا تعتمد على العنف كانت عاملَ استقرار في أسرتنا.

هذا الاتفاق بين أمي وأبي على عدم عقابنا بالضرب قابله اختلاف في نظرتهما إلى تربية البنات على وجه الخصوص. كانت أمي تريد لبناتها أن يتعلمن كل الأعمال المنزلية التي تؤهلهن ليكن زوجات وسيدات بيوت صالحات.

كان أبي يرفض ذلك المنهج، يقول: «لقد ملأت البيت بالجواري والخدم، ثم بعد ذلك أترك بناتي للعمل والشقاء؟ هن معززات مكرمات، ومَن يتزوجهن عليه أن يضمن لهن ذات الحياة وذات المعاملة الكريمة».

المثير في الموضوع أن أبي كان يعتبر ذلك من طبيعة الأشياء، أي أن باعثه على ذلك لم يكن تدليل البنات بقدر كونه من طبائع الأمور.

تجلت شخصية أمي، التي سلب والدي منها الكثير من الصلاحيات لمصلحة أختي منيرة، في هذا الموضوع. كانت أمي تحكي لنا أنه بمجرد خروج الوالد إلى عمله تجعل أخواتي يشاركن الجواري في بعض الأعمال المنزلية. كانت تردد على مسامع مَن يناقشها في ذلك الأمر من خالاتي وصديقاتها: «بناتي سيتزوجن، وستكون كل واحدة منهن مطالبة بإدارة حياتها وبيتها بنفسها، وإذا لم تتعلم كيف تُدار البيوت في بيت أبيها فمتى وأين تتعلم؟!».

على الرغم من أن أمي خرجت من بيت أبيها للزواج طفلة، فضلًا عن أنها نشأت في بيت كبير كانت فيه وأخواتها مدللات، فإنها حرصت على إكساب بناتها مهارات إدارة البيوت، حتى وإن لم يضطررن إلى القيام بالأعمال المنزلية بأنفسهن. كانت دومًا تقول: «اشتغلت في بيت أبوكم كتير»، علمًا بأنها كانت تترك كل أعمال البيت للجواري، ولم تكن تشمر عن ساعديها إلا في العزومات الكبيرة، التي يقيمها الوالد بحكم مكانته الاجتماعية ومناصبه الإدارية والسياسية والتجارية.

أمي في الوسط، ومن اليسار إلى اليمين: أختي خديجة، وابنها ناصر، وآمال ابنة أختي، وأنا

أنا، وناصر ابن أختي (في حجري)، وآمال ابنة أختي

* * *

الانفتاح على تعليم البنات كان من النتائج المهمة لتعرض بعض الأسر النجدية والحجازية لثقافة حواضر مصر والشام من خلال إقامتهم المؤقتة فيها، فأوائل البنات السعوديات اللواتي التحقن بالمدارس في أواسط أربعينيات القرن الماضي هن من عائلات أقامت مؤقتًا في الخارج مثل عائلتنا، ففي ذلك الوقت لم تكن في جدة التي نقطنها إلا مدارس غير رسمية تُدعى بـ«الفقيهة» لتعليم البنات قراءة القرآن وأعمال الخياطة والتطريز. كانت تلك المدارس توفِّر التعليم للبنات حتى وصولهن إلى سن البلوغ، حيث يصبح انعزالهن في بيوتهن وارتداؤهن الحجاب أمرين إلزاميين. لم تذهب نساء الجيل الأكبر سنًّا مثل جيل أمي وخالاتي إلى أي مدرسة.

كانت عائلتنا بمفهومها الواسع تضم عددًا كبيرًا من البنات، فبخلافنا نحن بنات محمد السليمان التركي (أربع بنات) كانت لدينا ابنتا خالتنا بديعة زوجة عمي عبد الله التركي وهما: منيرة ونور، بجانب أختيهما من زوجة سابقة لأبيهما: فاطمة وعائشة. أما خلفة عمي إبراهيم وخالتي مريم فكانت كلها ذكورًا.

نتيجة سفر عائلتنا إلى مصر في وقت مبكر جرى الانفتاح على إلحاق البنات بالمدارس غير الرسمية في جدة، وجررن معهن بقية بنات العائلة. فمن حسن الحظ أن كانت بجوار منزلنا في قلب جدة القديمة مدرسة غير رسمية اسمها مدرسة «الجمجوم».

يُعَد بيت الجمجوم من أبرز البيوت الجداوية التي أنجبت عددًا من الشخصيات البارزة التي كانت لها بصمات واضحة في شتى المجالات على مدى الخمسين عامًا الماضية. وذكر أحمد جمجوم، الذي عمل وزيرًا للتجارة في مذكراته الشخصية، أن مؤسس الأسرة في مدينة جدة هو جده عبد العزيز جمجوم، وأن جذورها تعود إلى مصر.

كانت مدرسة الجمجوم عبارة عن فصل واحد، ويدرِّس فيها معلم واحد اسمه الشيخ الهنداوي. كانت ترتادها أختاي - لم أكن قد وُلدت بعد - منيرة وخديجة

وبنات عمي عبد الله الأربع، وسعاد بنت محمد صالح باعشنِ، وبنات رضوان، جيراننا، وبقية بنات الجيران وبعض بنات الطبقة الوسطى من أهل جدة.

كان المعلم يعاقب مَن تقصر في مدرسة الجمجوم، فتخرج البنات غاضبات، فتسألهن إحدى الجواري في بيتنا:

- لماذا أنتن غاضبات؟

يكون ردهن:

- الشيخ خاصمنا.

أي نهرهن بصوت مرتفع. هنا تنشب معركة بين الجارية والشيخ. تبادره بقولها: «كيف تزعل أولاد أسياد؟!».

بالإضافة إلى مدرسة الجمجوم كان خالي يُعلِّم أختي منيرة فن الخط العربي، وكانت خديجة هادئة وتحب التعليم، فأتى إليها والدي ببعض زوجات الدبلوماسيين القناصل في جدة لتعليمها، وهو ما حدث معي في مرحلة لاحقة.

ذهاب أخواتي إلى تلك المدرسة هو السبب في أن الجيل الأكبر مني يعرف القراءة والكتابة، في حين أن أمي وسيدات جيلها أميات. لكن من خلال كتابي عن جدة «جدة أم الرخا والشدة» (وهي مقولة شهيرة تصف تلك المدينة الساحلية المعروفة بالرخاء في إشارة إلى كونها مدينة تجارية تأتي وتذهب السفن إليها ومنها، فضلًا عن كونها مدخلًا للحجاج والمعتمرين، كما تعرضت جدة للشدة عندما حلت عليها سنوات عجاف تحملها أهلها بصبر وجلد)، تبين لي أن نساء قليلات من عائلات في جدة قد قرأن روايات من الأدب العالمي المترجم إلى العربية مثل غادة الكاميليا في هذا الوقت المبكر.

هؤلاء اللاتي طالعن بعضًا من الأدب العالمي المترجم كن من بيت محمد علي رضا، الذين لهم امتداد في إيران على الرغم من أصولهم القرشية، ولهم أفضال كبيرة على المملكة، من ضمنها أن محمد علي رضا زينل (وزينل اختصار لزين العابدين) هو مَن أسس التعليم النظامي في الحجاز وباقي الجزيرة العربية. كما فتح أول مدرسة للأولاد في جدة، وتعلم فيها عمي إبراهيم الذي جاء من

عنيزة، وأبناء عمومتي وأخي أحمد لمدة سنة قبل ذهابه لاستكمال تعليمه في مصر، وكان التعليم فيها مقصورًا على القراءة وأمور الدين والحساب.

تلقيت تعليمًا غير رسمي على يد سيدة مغربية، كنا ناديها أبلة زينب الخوجة أي المعلمة، كنا نذهب لكُتَّابها أنا وبديعة ابنة خالي، لتعلمنا القراءة والكتابة وحفظ بعض السور القصيرة من القرآن الكريم. كانت هذه السيدة صديقة لوالدتي، كنا نلعب ونتعلم عندها ونُضرب على الأقدام إذا لم نلتزم بالواجبات التي تكلفنا بها. كل ذلك قبل أن ألتحق بالتعليم النظامي.

* * *

سنَّ والدي قانونًا: «بناتي لا يتزوجن من خارج أبناء أعمامهن (كان ذلك موجودًا في المجتمع لكنه غالى في التمسك به)، وبناتي ما يخرجن من بيتي. مَن يريد أن يتزوج إحداهن سأجهز له شقة في بيتي». كانت المسألة الطبقية بين الشيوخ والصفافير مسيطرة على فكر أبي، كان يشعر برقي نسبه، ومن ثَمَّ فإن بناته لا بد أن يتزوجن من عائلات عالية النسب، وفق منظوره.

قُسم الناس وقتها إلى: الشيوخ وهم الأعلى نسبًا، والصفافير أو الخَضيرية أو الخضاير والمفرد خضيري، وهو مصطلح نجدي يُطلق على كل شخص لا يُنتسب إلى قبيلة عربية، كالموالي والعبيد المعتقين، أو يشير كذلك إلى انتساب الشخص إلى أصول غير نبيلة، أو زواجه بأجنبية، أو امتهانه صنعة لم ترضَ عنها قبيلته، فيفقد انتسابه إلى قبيلته ونسبه، أو جهل أصله تمامًا لسبب أو لآخر كارتكاب جده أو أبيه جناية وتخفِّيهما بسببها، وغيرها مما تعارفت عليه القبائل. ونعلم في دراسة المجتمع أن هذه التصنيفات حقيقة اجتماعية، وإن لم تُبنَ على منطق خاص. وعلى الرغم من أن أولئك الذين يتمسكون بهذا التصنيف يدَّعون التمسك بتعاليم الدين، فإنك تراهم يغالون في التفرقة بين البشر، والحط من قدر قطاعات واسعة من الناس، فتجد هؤلاء الذين يقولون إنهم أعلى نسبًا (الشيوخ) لا يزوجون بناتهم لغير الشيوخ. قد يتزوج الشيخ من أسرة من الصفافير لكن بحذر شديد، وتعاني هذه الزوجة التمييز ضدها من عائلة الزوج.

تمسك والدي بمسألة تزويج بناته من أبناء عمومتهن. تقدم شابان من بيت الجفالي، وهم شيوخ ومن عنيزة نفس منشأ الوالد بالقصيم، غير أنه أصر على تزويج بناته من أبناء عمومتهن.

كنا عادة نقضي الصيف في الطائف، ويسكن إلى جوارنا بعض أقاربنا وأصدقاء أبي. في سنة من السنين سكنت إلى جوارنا أسرة عمي الشيخ محمد بن علي التركي، أخي إمام المسجد النبوي بالمدينة، وكانت زوجته سورية من دمشق. في هذه السنة تقدم ابنه عبد الرحمن التركي ليخطب أختي منيرة، كنا ما زلنا في بيتنا في جدة القديمة، فوافق أبي على الفور، وما دام هو قد وافق فلا أحد بإمكانه أن يراجعه في قراره.

أُقيمت مراسم العرس المعتادة. خصصوا بيت جيراننا آل الخريجي للضيوف وبيتنا للتحضير والتقديم، وبالفعل امتثالًا لقانون أبي جاء عبد الرحمن زوج أختي، وعاش معنا في البيت الجديد في جدة. كانت أختي لها أحسن شقة في البيت، ووالدي كان يسكن في الطابق الأرضي، ونحن موزعون على بقية الطوابق.

في الوقت نفسه كان يحوم حولنا إبراهيم الابن الأكبر لعمي عبد الله وخالتي بديعة فكهاني، كان يريد الزواج من أختي خديجة، التي كانت تزور بنتَي خالتها باستمرار. كان أخوهما إبراهيم الآمر الناهي في البيت، وإذا أرادت إحداهما منه شيئًا كالخروج وما شابه فكانت تجعل خديجة تطلب منه الإذن في ذلك فيوافق كرامة لها.

لم يكن أبي يمانع زواج خديجة من إبراهيم، لكن عمي عبد الله كان قد تعرض لأزمة مالية ضخمة جعلته يتعامل بحساسية مع طلب أبي بأن تقيم ابنته وزوجها معها في بيتنا. أبي كانت روحه في عمي عبد الله. قال له:

- ابنتي بين يديك، وأنا أحب أن تعيش مع أمها وأخواتها إذا ما عندك مانع.

قال عمي عبد الله:

- لا يا محمد، أنا لا أقبل هذا الشرط.

ولم تتم الزيجة.

في نهاية المطاف تزوَّجت خديجة ابن عمنا خالد الناصر التركي، الذي هاجر من عنيزة إلى مكة، وعمل في ديوان الشريف حسين حاكم الحجاز قبل سيطرة آل سعود على الحكم. تُوفي والد خالد صغيرًا، ووالدته كانت من الشام، وبعد وفاة عمي تزوجت رجلًا آخر من بيت حلمي من أهل مكة. عندما شبَّ خالد جاءت وقابلت أمي وأبي وطلبت يد خديجة لولدها، فوافق أبي على الفور، فهو مستوفي الشروط باعتباره ابن عمها.

كان خالد منفتحًا، على عادة أبناء الحجاز، أصر على أن يرى خديجة قبل يوم العرس، ساعدته أخته في عمل خدعة مكَّنته من رؤية خطيبته. كانت خديجة في بيتهم، وقالت لها أخته: خديجة قومي هاتي لي شيئًا من المكان الفلاني في بيتهم، فقامت وكان خالد يجلس في مكان يمكِّنه من رؤيتها، وقد كان.

أقيم عرس خديجة وخالد في منزلنا الجديد في جدة، وعاشا معًا في الفيلَّا التي بناها أبي لأخي أحمد. الحق أنهما كانا مناسبين لبعضهما، كلاهما منفتح على الحياة؛ خالد بحكم عمله الدبلوماسي، وخديجة بحكم سفرها إلى مصر مع العائلة وصداقتها مع نورا ابنة الخريجي، الزوجة الثالثة لوزير المالية عبد الله السليمان الحمدان. من هنا تشعر بأن كلًّا منهما وجد ضالته في الآخر.

أهل مكة منفتحون نسبيًّا أو مقارنة ببقية المملكة، ويستمتعون بالمغنى ويدقون على العود، عكس النجديين الذين يميلون أكثر إلى المحافظة. كانت أمي باعتبارها حجازية تضحك وتتندر على النجديين: «إنتو زي أهل أبوكم النجديين تحطوا الشبشب تحت باطكم قبل دخول المكان علشان خايفين يتسرق!».

* * *

اتفق الجميع على حب أختي منيرة، أهلها وأصدقاؤها وكل معارفنا من جدة ومن مصر. كان بيتها هو «بيت الأمة» مفتوحًا للجميع. أختي لطيفة كانت محبة لها، تزورها كثيرًا عندما تأتي إلى مصر، أما صديقاتها فلا تنقطع زياراتهن للبيت.

منيرة، بالنسبة إليَّ، لعبت دور الأم، كانت هي التي تحضر لي ملابس المدرسة

من لبنان ومن مصر. عند دخول المدرسة في لبنان مثلًا دبرت أموري وحضرت لي ملابس المدرسة، وخيطت رقم ٤٩ على كل ملابسي كما طلبت المدرسة، وتطوّل بالها على اختياراتي وتحاول إرضائي بأي شكل.

وهي تذهب معي دائمًا إلى الطبيب عند اللزوم كما الأم الحنون، وتتابع معي أدويتي عندما أكون ساكنة عندها. ومن مواهبها الكثيرة إدارة المنزل، وبالأخص الميزانية. بقيت في مصر شهورًا طويلة عندما كان زوجها في السفارة في إثيوبيا، وكلّت من كثرة متابعتها للمحامين بخصوص مشكلات قانونية حول بناية كان زوجها قد اشتراها.

أحبت أختي الطرب والغناء، وأتقنت الألحان وعشقت أم كلثوم. كل شهر تتفرغ لسماع حفلتها وتسجلها وتعيد التغني بالكلمات واللحن طوال يوم الجمعة!

كما أحبت كرة القدم وهي تشجع الأهلي. وأذكر أنني كلمتها من كاليفورنيا وكانت المكالمات عن طريق السنترال. كان يوم جمعة وتعذر الاتصال، فألححت على السنترال أن يكرر الاتصال لأن أختي لا تخرج في ذلك الوقت، وبعد عدة محاولات، رد السنترال المصري: «يا ست اليوم الأهلي بيلعب مباراة مهمة، هي الهانم بتحب الكورة؟» - ما أجمل أهل مصر!

كم أحبك يا أختي، دومًا تدعميني، وتحضنينني فأشعر بالأمان وأتجرأ على الشقاوة من جديد. كم أغدقتِ عليَّ من رعايتك وحنانك. فأنت منبع الحنان في أسرتنا، دائمًا معطاءة، وقلما كنا نوفيك حقك. أحبَّك أخي من دون تحفظ، أما أنا فكنت أخلط في حبك حبي لأمي لتشابه صفاتكما وعطائكما.

أجمعت العائلة على محبتك، وقصد بيتك كل الأقارب والأصدقاء عندما أتوا إلى مصر، وأخذتِ تدبرين أمورهم من أطباء وغيره من دون ملل أو تأفف. حتى أختي لطيفة المتمردة لم تحس بالأمان إلا في بيتك وبين أسرتك الصغيرة.

كثيرًا ما كانت أختي منيرة مريضة في حياتها وعلى الفراش، متألمة إلى درجة أننا نقر بأنها لم تتمتع بحياتها. كم أفتقدك يا أختي!

أمي في الوسط، وشقيقتي منيرة على اليسار، وخديجة على اليمين

* * *

أختي الثانية خديجة (دوجة يا دوجة، يا خدوجة) يأتي ترتيبها الثاني في الأسرة، والفرق في السن بينها وبين منيرة ليس كبيرًا، ولكن التطلعات والآمال أكبر بكثير عند خديجة. تعرضت لتيارات مختلفة أولًا في مصر ثم لبنان وبعد ذلك في العالم الأكبر. تحب خديجة أن تكون رائدة دائمًا، وقد حباها الله بذكاء وواقعية خدماها كثيرًا.

ماهرة في تكوين الثروات وحذرة في صرفها. محبة، وإن كانت متقلبة، تعرف أولوياتها ولا تحيد عنها. مثلت لنا في الأسرة الكبيرة تيار التغيير والتحديث،

وسعت إليه بتعلُّم اللغة الإنجليزية أولًا في جدة، فاتفقت مع أبي على أن يحضر لها مُدرسات من السفارات الأجنبية، ثم بعد ذلك السفر إلى مصر عن طريق الأبواب التي فتحتها في ذلك العالم الجديد. من أهم صديقاتها كانت نورا الخريجي زوجة وزير المالية عبد الله السليمان، فاكتشفت الأفلام المصرية والطرب خارج الجزيرة، ثم عن طريق صداقتها مع المطربة حفصة حلمي تعرَّفت على استوديو مصر، فكانت تذهب معها، من دون علم أبي، لتشاهد التمثيل في الواقع.

متدينة من دون مبالغة، كما أنها تدفع باب الطرب بلهفة ولذة وإن لم يكن بإتقان. وعندها لهفة إلى التميز في كل شيء.

يقولون لي إنها ساهمت في تربيتي، وإن كنت لا أذكر من هذا إلا القليل. عشت معها ومع أولادها في القاهرة فترات طويلة، ولا أذكر عنها إلا كل خير.

تزوَّجت خالد ابن عمها - كما ذكرت - الذي تربى في مكة المنفتحة عن جدة في ذلك الوقت، والأهم من هذا وذاك أن عمله في وزارة الخارجية مكنها من العيش في سوريا ومصر ثم في روما وجنيف. أحبت زوجها خالد الذي يسر لها كل هذه الظروف واستمع إلى رأيها في كل شيء.

في كل هذه المواقع كانت خديجة في قلب الحدث حتى أصبحت سيدة الأناقة، وأبهرت الأجانب بحفلاتها ولباقتها. تعلمت الإيطالية، واستمرت في دراسة اللغة الإنجليزية في روما، حيث كثيرًا ما كنت أذهب معها إلى المعهد في وسط البلد.

نشأت بيننا صداقة في السنة التي سبقت سفري إلى أمريكا، وأقنعت زوجها - بعلاقاته المتعددة - أن يضموني إلى منح الوزارة للتعليم في أمريكا، حيث دللني الشيخ ناصر المنقور بما أني كنت من الطالبات القليلات.

بالطبع أنا مدينة لها وللعم خالد - زوجها - أنهما تبنياني في أوروبا. نتنقل كثيرًا في ربوع القارة العجوز في إجازات طويلة مع أصدقائهما في سردينيا وجبال الألب.

هذا المخزون من المشاركة والمحبة تفجر في آخر شهوري في القاهرة قبل سفري إلى بِركلي، فنمت بيننا صداقة افتقدتها كثيرًا في حياتي في أمريكا، وأذكر أن أختي أرسلت إليَّ أسطوانة لأغنية عبد الحليم حافظ «سواح»، كنت أسمعها وتنهمر الدموع على خدَّي، «ما الذي دفعني إلى هذه الغربة؟».

كانت خديجة دائمًا معنا. عندما ذهبنا إلى كليفلاند ليجري أخي عملية في القلب كانت هي ومها ابنتها معنا، وعندما تُوفي كلاوس، زوجي الأول، حضرت فورًا مع مها من روما، وصاحبتنا إلى ألمانيا.

أحبها كثيرًا كثيرًا، وأقدر لها مثل هذه المواقف.

* * *

أختي لطيفة (لطوف) كانت عنوانًا للتمرد على التقاليد في أسرتنا، تتجاوز الحدود لتحصل على مكسب يتخطى المسموح لها كامرأة في مجتمع محافظ وتقليدي، كان ذلك يحرج أهلها ويحرجها في بعض الأحيان.

أختي لطيفة

على الدوام أنظر إلى لطيفة بعين التعاطف، لم تتعلم لتمردها على الفقيهة والمدرسة، بالكاد تقرأ وتكتب. كان أبي وأمي ينتقدانها على الدوام، مما نفرها منهما. كانت سمينة، وكان ذلك مدعاة للتنمر عليها بلغة العصر الحاضر، لم تكن تأكل معنا على السفرة، بل تأكل مع الشغالات. ربما توجيه الانتقادات الدائمة إليها هو الذي أبعدها عنهما، وجعلها تجد نفسها مع من هم دونها اجتماعيًّا، ربما لأنهم كانوا أكثر تقبلًا لها كما هي.

هربت لطيفة يومًا وهي تقارب سن العشرين من البيت إلى بيت الأمير فيصل بن عبد العزيز المجاور لنا، قبل أن يصبح ملكًا، وكان أمرًا شديد الإحراج لوالدي عندما ذهب ومعه عمي إبراهيم وخالي علي فكهاني لإحضارها من بيت الأمير. كانت حادثة فظيعة هزت الأسرة بكاملها، وعشنا أيامًا عصيبة جراءها. حاولوا إبعادي كلية عن المشهد برمته كي لا أتأثر به وأنا ما زلت صغيرة. عزلوها بعدها في غرفة بآخر دور في بيتنا، ولم يفكر أحدهم للحظة في الذي دفعها إلى هذه التصرفات. كانت لطيفة تزداد قوة كلما عاقبوها، وكانت تعاقبهم بمزيد من التحدي. لم تنكسر، بل زاد تحديها.

كانت شديدة الذكاء، ألمعية. عندما لا يستطيع أحد قضاء مصلحة من المصالح - وهي تكاد تكون أمية - كانت تعرف كيف تقضيها. كانت ماهرة في العلاقات العامة، لكن على المستوى الشعبي، لا على مستوى النخبة في مجتمعنا. في الوقت الذي كان فيه اقتناء تلفون في منزلك علامة على علو مقامك في المجتمع، كان لدى لطيفة تلفون في بيتها. ولو وجدتَ صعوبة في الحصول على تصريح للسفر إلى الخارج فهي تعرف كيف تستخرج لك تصريحًا.

تزوجت لطيفة مرات عديدة. زوَّجها أبي في المرة الأولى رجلًا يعمل لديه في التجارة، كان أقل منا اقتصاديًّا، لكنه من أصل محترم، لذلك رضي به أبي وزوَّجه ابنته. ذهبت مع زوجها إلى المدينة، ولا بد أنها كانت في قرارة نفسها تشعر بأن أباها رماها إلى ذلك الذي يعمل عنده وأقل منا ثراءً، ولم يصر على تزويجها من

أحد أبناء عمومتها كما فعل مع منيرة وخديجة. لم يكن الرجل «مالي عينيها» كما نقول، فكان الطلاق هو النهاية المنطقية لتلك الزيجة.

زيجتها الثانية كانت من رجل من أهل المدينة. كان من الأشراف وضعيف الحال وتطلقت منه سريعًا، ولم يكن لها نصيب في الإنجاب. خلال تلك الفترة أدخلوها مستشفى بهمان للصحة النفسية بحلوان في القاهرة. كانوا يعطونها جلسات كهرباء. خرجت أختي من المستشفى مشوهة نفسيًّا وجسديًّا، شعرتُ بأنها ليست أختي لطيفة التي أعرف، بعدها بفترة دخلت مستشفى آخر واستمرت فيه مدة سنة.

بعدها تزوجت لطيفة رجلًا مصريًّا على قدر حاله، أخواته كن صديقات لأمي وأخواتي، أخذنه معهن إلى السعودية، ووجدن له عملًا وعاش بالمدينة، وخلال ذلك تبنت أختي ولدًا موجودًا إلى الآن هو عبد الإله، ثم كالعادة حصل الطلاق من زوجها الثالث.

زيجتها الرابعة والأخيرة كانت من رجل من أهل المدينة، سافرت معه إلى لندن، ثم عادا للعيش في مصر، ثم انتقلا إلى السعودية، وكانا يسافران معنا إلى سويسرا في الصيف، ثم تطلقت كالعادة.

عند ذلك الطلاق أتذكر أنني سألت أخي أحمد إن كان طليق لطيفة قد ترك لها مالًا، فرد عليَّ بأن «الذي يتزوج أختنا تلك إحنا لازم نعطيه عند الطلاق فلوس علشان يستجمع قواه ويعود إلى الحياة من جديد!».

ونظرًا إلى أنها أُصيبت بأمراض في القلب جراء وزنها الزائد منعها الطبيب من ركوب الطائرة. وفي يوم كانت مدعوة إلى حفل زواج في أبها بالسعودية، فركبت الطائرة وماتت بالمطار، وأحضر أخي أحمد جثمانها، وكان بصحبته وليد ابن أختي منيرة، ودُفنت بمقابر النساء في جدة، رحمات الله الواسعة على روحها الطاهرة.

يُقال داخل العائلة إن من الأمور التي شجعت والدي على السماح لي بالدراسة في الخارج منذ كنت طفلة حرصه على ألا أكون بجوار لطيفة في البيت، كي لا

أتشرب منها بعض طباعها. للأسف كانت علاقتي بها متوترة، نتيجة ما أسمعه من أهلي عنها.

الوحيدة التي كانت لطيفة تحبها وتشعر معها بأمان هي أختنا الكبيرة منيرة، كانت عندما تسافر إلى مصر تنزل عندها، وكانت تحب أولادها وتهاديهم، لكن علاقتها بخديجة كانت مقطوعة، وأحمد كان من حين إلى حين يزورها في المدينة، وكانت علاقتي بها شبه مقطوعة، وهو ما أعض أصابع الندم عليه. أشعر بالأسى لذلك يا أختي الحبيبة، سامحيني، بل سامحينا جميعًا.

هل ألوم أبي وأمي على طريقة معاملتهما لأختي لطيفة، على الرغم من أن تلك القسوة تقليدية في مواجهة مَن يتحدى العرف؟ كانت أختي غير تقليدية، ولم يحاولا احتواءها. تفكيرهما انصب على كيفية كسرها، وهو ما زادها عندًا ضدهما. أرى أنها كانت ضحية الأسرة، فهي لم ترتكب أمورًا خاطئة، حاولت توسيع الأفق، لكن ذلك جاء على حساب التقاليد. وعندما لم يتفهمها أحد انعزلت ولم تشاركهم الطعام، وشعرت بأمان مع مَن هم دونها اجتماعيًّا، لأنه في النهاية لا أحد منهم سيحاول السيطرة عليها وإخضاعها.

عندما قرأتُ في علم النفس طرأ لي أن أختي كانت مريضة نفسيًّا، ولم يكن المرض النفسي معروفًا في ذلك الوقت، وكانت التصرفات المتكررة غير العادية تدفع الناس إلى تفسيرات أخرى مثل الجن وما إلى ذلك.

ولكن في نفسي أذكر أن أختي لطيفة دخلت مستشفى بهمان، وكان أغلب العلاج بالصدمات الكهربائية، وتصادف أيضًا أن في الجيل الثالث من أسرتنا ظهرت آثار أمراض نفسية تُنقل وراثيًّا، ولا يعرفون لها علاجًا. ومن ملاحظتي أيضًا أن كل هؤلاء الأفراد هم أذكى أفراد أسرتهم الصغيرة. هل كانت حالة أختي نتيجة الجهل الطبي؟

* * *

أخي العزيز أحمد - سيد الرجال. عندما أتحدث عن أخي أحمد، فأنا أتحدث عن أعز إنسان على نفسي على الإطلاق، لا أحد بمقدوره الاقتراب من مكانة

أحمد في أعماق قلبي. روحي كانت ولا تزال معلقة به، بكل ما يحمل من استنارة ومحافظة، رقة وقسوة في آنٍ معًا، بكل ما يعرفه الإنسان والمثقف العربي من تناقضات.

أخي أحمد

كان أحمد شديد الذكاء. انحياز أبي وأمي إليه لا يحتاج إلى مبررات، فهو الابن الوحيد وسط أربع بنات. كان الحرص على تعليمه تعليمًا راقيًا توجهًا مبكرًا لأبي، فأرسله إلى مصر لاستكمال تعليمه في المدرسة السعيدية، وأقام لدى أسرة مصرية، تتكون من الأب، عم فتحي، ويعمل مدرسًا، وزوجته السيدة كريمة، وكانت ممرضة، وكانت تربطهما صداقة بأسرة التركي وأسرة الخريجي، وكان أخي يحبهما، ويذكرهما دومًا بالخير.

بعدها أرسل والدي أحمد لاستكمال تعليمه وإتقان اللغة الإنجليزية في مدرسة داخلية شمال إنجلترا، ساهمت بقوة في تكوين أحمد بنظامها الصارم. كان يشارك في طوابير لياقة بدنية تبدأ في الرابعة فجرًا، من ضمنها العَدْو في الثلج. كل ذلك بما فيه مخالطة الإنجليز في الرياضة والتعلم جعله ضليعًا في الإنجليزية، ويقرض الشعر بها، ويحب التمثيل، ومثَّل بالفعل مع زملائه الكثير من أعمال شكسبير.

بعدها دخل الجامعة لدراسة الهندسة. أتذكر أنني كتبت إليه في أثناء العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ للاطمئنان عليه، بعد تردد شائعات تقول إن الإنجليز - المشاركين في العدوان على مصر - يضطهدون العرب المقيمين لديهم. أجابني بأن ذلك لا أساس له من الصحة.

إقامة أحمد في مصر فترة كانت تموج فيها بالتيارات الفكرية اليسارية أوائل الخمسينيات، ثم سفره إلى بريطانيا التي تعد معقلًا لكل الأفكار، جعلاه يُسيَّس مبكرًا، فعكس والده الذي كان محافظًا تقليديًّا، اقترب أحمد من الفكر الاشتراكي التقدمي، وكان مع سياسات جمال عبد الناصر والوحدة العربية.

كانت لديه مجموعة من خيرة الشباب العرب (فيهم الكثير من العراقيين) التقدميين واليساريين في إنجلترا، كانوا يجتمعون في مقهى صغير، ويتناقشون في السياسة وما آلت إليه أوضاع بلادهم، كان أحمد من قادتهم. في مانشستر كان يعيش الكثير من العمَّال اليمنيين، اجتهد أحمد في تعليم بعضهم اللغة الإنجليزية تطوعًا يوميًّا، ثم يذهب بعدها إلى الجامعة والبار حيث اللقاء اليومي للرفاق. كان يتبرع لأشقائه اليمنيين بالكثير من مصاريفه التي يرسلها إليه أبي، إيمانًا بعروبته، والمصير المشترك للعرب أجمعين.

كم كان أحمد ذكيًّا ومُسيسًا! في إحدى المرات كان يستقل الأتوبيس في مانشستر، حيث عاش ١٠ سنوات. قال له المحصل:

- أنت غامق اللون، ما معناه أنك ابن حرام.

رد أحمد:

- قد أكون غامق اللون، لكن أبي عالي النسب في بلده، أفضل من الكثيرين ممن ينتمون إلى هذا البلد الذي تعيش فيه.

وأمره المحصل أن يترك الحافلة.

وفي الحال كتب أخي خطابًا إلى النائب في مجلس العموم البريطاني عن الحي الذي ينتمي إليه، حكى فيه ما تعرض له من عنصرية. ورد النائب عليه معتذرًا، ثم في نهاية الرد وقَّع: «خادمكم الأمين».

قال لي أحمد معلقًا على تلك الواقعة: «هل هناك أحد من الأنظمة التي تحكمنا في العالم العربي بإمكانه أن يقول لمواطن: خادمكم الأمين؟».

حصل أخي على البكالوريوس في الهندسة ورجع إلى السعودية، وهناك حصل الصدام بين الابن بعقليته التقدمية، والوالد المحافظ. عندما عاد أحمد كان والدي سعيدًا، فها هو ذا ولده الوحيد قد عاد بشهادة عليا في الهندسة من بريطانيا، كان يتباهى به بين أصدقائه المحافظين الذين لا يتقبلهم أخي، وتسبب اختلاف الأفكار والتوجهات ذلك في أزمات كبيرة بينهما.

من اليسار إلى اليمين: أختي لطيفة وأخي أحمد وعروسه لطيفة وأمي

كانت تربط أبي صداقة كبيرة مع المعلم محمد بن لادن، صاحب شركات المقاولات، التي تتولى تقريبًا معظم الإنشاءات في المملكة. في البداية رفض أحمد العمل معه، لأنه كان يريد أن يعمل بمجهوده لا بالواسطة. عشنا ذلك الصراع المرير في بيتنا بين جيلين وفكرين متصادمين؛ والدي تحركه عاطفته تجاه ولده الوحيد، والابن لا يعتنق ذات الأفكار المحافظة التي يعتنقها الأب.

والحق يُقال إنه على الرغم من هذا الاختلاف الفكري بين أحمد وأبي، فإنني أحترم أخي جدًّا ومدينة له جدًّا، لكنني أشعر بأنه لم يكن مرنًا مع أبي. كان الأمر يحتاج منه إلى مواءمة، وكان يتعين عليه محاولة إرضاء أبي من دون التنازل عما يعتقد أنه صحيح، لكن أحمد كان حادًّا كالنصل في هذا الموضوع.

إلا أنه عندما اشتد المرض على أبي برك أخي تحته، وحمله إلى مصر في سنة ١٩٦٧، وكان أحمد يعمل في شركة «بن لادن»، وعلى الرغم من شواغله فإنه كان يسافر إلى القاهرة كل أسبوعين لزيارة أبيه، في وقت لم تكن فيه زيارة القاهرة سهلة لتوتر العلاقات بين المملكة العربية السعودية ومصر عبد الناصر.

وعندما تقرر أن يعود أبي إلى جدة مع ممرضة تصاحبه في رحلته وترعاه بعد وصوله، واجهتنا صعوبة شديدة في الحصول لها على تأشيرة لدخول المملكة، فلجأ أحمد إلى الشيخ محمد سرور الصبَّان، وكان يشغل وقتها منصب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وكان صديقًا محبًّا للوالد، وبالفعل يسر أمر دخول الممرضة إلى المملكة في معية الوالد.

على ذكر الممرضات، أذكر أننا قضينا الصيف في المعمورة بالإسكندرية في السنوات الأخيرة من حياة أبي، وكانت تصاحبه ممرضة يونانية، كانت حالته غير مستقرة، وكان كلما جلس في التراس على البحر وكان في حالة مزاجية جيدة يدندن أغنية سيد درويش «البحر بيضحك ليه وأنا نازلة أدلع أملا القلل». كان أبي يضيق بالممرضة اليونانية، لأنها كانت صارمة، وقريبة الشبه بالرجال، فعندما كانت تحضر كان يقول تندرًا عليها: «حضر محمد نور رحيمي»، وهو صديق له في جدة، كان يشبِّه الممرضة به. كانت لدى أبي لمسة من خفة الظل لازمته حتى

أيامه الأخيرة، وكم كنت أسمعه على الدوام يغني لعنيزة البلد الذي لم يحب بلدًا آخر قدر حبه له، بكلمات الشاعر علي بن رشيد الخياط:

يـا دارنـا لا ترهبـي يومك سـعيد ... حنا حماة الدار، وشـب اشـعالها
هـذي عنيـزة مـا نبيعـه بالزهيـد ... لافرِّعـنَّ البيـض نحمـي جالهـا
دونه ودون الغيـد مخضر الجريد ... نروي من الضد الحريب سـلالها
يـا مـا ذبحنـا دون غضَّـاتٍ تميـد ... جنايـز ترمـى ولا أحـد شـالها
لـو جبت عنَّـاز وشـمَّر والرشـيد ... ونجـد جميعـه دقِّهـا وجلالهـا
جبتـه وخلِّيتـه كمـا حلقـة حديـد ... شـرق وجنوب وغربها وشـمالها
الـدار دونـه لابـةٍ تحمـي الطريـد ... صعـب علـى كل العـدا منوالهـا
كـم سـابق يـوم اللقـا جريـه يزيد ... عاداتنـا ضربـه وضـرب أمثالهـا

مرض أبي سنوات أربعًا قبل وفاته، وكان شاب من حضرموت ملازمًا له، والمشرف على ماله. بعد وفاة أبي جرى حصر التركة، فوجدوا كمية كبيرة من الجنيهات الذهب مفقودة. أخبرني أحمد وأخبر الجميع بذلك. وقدم كذلك بلاغًا للشرطة.

قال القائم مقام لأخي:

- هل من أحد تشكون في استيلائه على هذه الأموال؟

قال أحمد: فلان. (الشاب الحضرمي الذي كان بجوار الوالد في مرضه).

قال القائم مقام:

- إذن لا دخل لك بهذا الموضوع، نحن سنجعله يعترف بما فعل بوسائلنا.

رجع أحمد وهو في غاية الضيق. قال لنا:

- وسائلهم تعني أنهم سيضربونه ويعذبونه، وقد يعترف تحت الضغط وهو ما اقترف ذنبًا. لا أستطيع العيش من تأنيب ضميري لو قطعوا يده.

ثم قال لنا على الفور:

- أنا متنازل عن حقي.

وأمي قالت:

- أنا معك يا ولدي، متنازلة.

وأنا قلت:

- متنازلة.

أختي منيرة كذلك:

- متنازلة.

أما خديجة فقالت:

- أنا أبغى حقي، لا علاقة لي بموقفكم.

أنا أرى أن ذلك اسمه العوض. خديجة تصلي وتصوم، أستغرب كيف تصر على أخذ نصيبها من المال المسروق، هل يتسق ذلك مع ذاك؟ لست أدري. كان لهذه الحادثة تأثيرها في علاقة خديجة بأحمد، كلنا عوضناها عن نصيبها في الجنيهات الذهب التي ضاعت وتنازلنا عن حقوقنا فيها نظير عدم تعذيب المتهم.

كان أحمد رجل مبادئ، لا يتنازل عنها أو يتهاون فيها، لم يقبل أن يخضع إنسان للتعذيب لمجرد أنه متهم وتحوم شكوك حوله. بطبيعة الحال توارت تلك المبادئ في ظل الأجيال التي صعدت مع المال والبترول، وما ترتب عليهما من تغير اجتماعي قلب أحوال البلد.

هكذا كان أخي صلبًا في مبادئه، إلى درجة أنه فوَّت كل الفرص، كان من الممكن أن يصبح من أكبر المقاولين بالسعودية، لكنه رفض، كنت أتفاخر به بيني وبين نفسي. كانت نتيجة إخلاصه لمبادئه أن مات فقيرًا ولم يترك لبناته شيئًا، ويقول واحد من أقربائنا تعليقًا على ذلك: «كويس يعني السخافة حقته؟». هل المبادئ صارت سخافة؟! هو أصر على مبادئه وعاش ومات بها. أفتقده جدًّا جدًّا، عليه رحمة الله.

٣
بعيد عن البيت وقريب من القلب
جيران وأصدقاء ومواقف لا تُنسى

خلال فترة خطبة خالد وخديجة كنا في مرحلة بناء بيتنا الجديد، الذي انتقلنا إليه من بيتنا الذي كان في قلب جدة القديمة. واكب أبي وأصدقاؤه مرحلة التوسع العمراني في جدة، فبنى ذلك البيت الجديد. جيراننا من ناحية اليمين كانوا بيت الخريجي، وعلى اليسار بيت الشيخ محمد سرور الصبَّان، ثم أخذ هذا البيت الملك فيصل بن عبد العزيز عندما كان وليًّا للعهد.

كانت عائلات جدة التجارية - التي ينتمي إليها أبي - أول مَن سكنت الأرض خارج أسوار جدة القديمة، حيث بنت دورًا بعد أن اكتظت المنطقة التجارية من المدينة. تتجمع دور هذه العائلات على طول طريقين رئيسيين: الأول يربط جدة بالمدينة المنورة في الشمال، والثاني يربط جدة بمدينة مكة في الشرق.

في الغالب كانت عائلات النخبة تقيم في بيوت من طابقين إلى ثلاثة طوابق وسط حدائق محاطة بأسوار يبلغ ارتفاعها ثلاثة إلى أربعة أمتار. أما الدور القديمة فتحيط بها أسوار أعلى من أسوار الدور الجديدة، وتوفر هذه الأسوار والسقوف الجزئية المشيدة غطاءً يحجز النساء عن أنظار السابلة والجيران.

في الطابق الأرضي من الدور الجديدة تقع غرفة نوم رب العائلة ومكتبه وغرف الضيوف وغرف الجلوس. ويعود الطابقان الثاني والثالث إلى النساء:

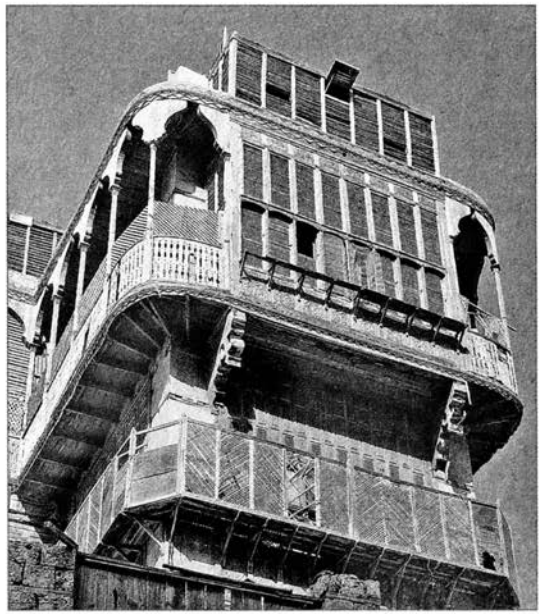

بيت عائلتنا القديم في جدة عندما كنت صغيرة

واحد للمعيشة اليومية، وآخر لاستقبال الضيوف. إلا أن هذا النسق يتغير عندما يعيش الرجال المتزوجون في دور والديهم. في هذه الحال، تعود الطوابق الأولى ذات الأجنحة المنفصلة عن بعضها والمخصصة للنساء والرجال إلى الوالدين عادة. كما يعود الطابق الثالث إلى الولد الأكبر، حيث يُعَد أفضل الطوابق، ومن المفترض أن يحتله الوالدان لولا أن ذلك يتطلب منهما صعود الأدراج. ويقيم الولد المتزوج الثاني من حيث تسلسل الأعمار في الطابق الثاني.

في نهاية المطاف ضم بيتنا الجديد حديقة، وفيلًّا منفصلة لأخي أحمد، ومبنى رئيسيًّا فيه غرف للخدم من الرجال، ومكانًا لصلوات المغرب والعشاء والتراويح في رمضان. كان والدي على الدوام يفطر في الشهر الكريم مع الخدم من الرجال في الدور الأرضي، حيث غرفة نومه ومكتبه (ولم يكن ذلك منتشرًا في الأسر

التي دخلها التأثير الخارجي الذي أدخل معه بداية التعالي الطبقي في التعامل مع الخدم)، أما والدتي وأخواتي فلا يأكلن مطلقًا مع الجواري.

عادة ما كان طعام السيدات في الدور العلوي أفضل كثيرًا من ذاك الذي يأكله أبي والرجال. لم يكن أبي من محبي البهرجة في الطعام، كان رجلًا بسيطًا، يتناول طعامه على الأرض، وهو في العادة: طبق فول مدمس، وزبادي، وعدد قليل من التمرات في الإفطار، ومن طقوسه الاستماع إلى إذاعة لندن في أثناء تناول الطعام.

أحيانًا كانت أمي تأمرني بتناول الطعام مع أبي حتى لا يأكل بمفرده، كنت أكره ذلك، فلدى أمي وأخواتي صنوف شتى مما لذ وطاب، ما الذي يجعلني أنزل إلى الدور الأرضي مع أبي حيث حياة التقشف والجَلد؟! كثيرًا ما اعترضت على ذلك.

* * *

مرضت منيرة وهي في سن تسبق العشرين، ونتيجة لتردي الخدمات الصحية في السنوات الأولى من تأسيس حكم ابن سعود، قرر أبي أن تسافر إلى مصر للعلاج ومعها أمي، وأرسل معهما خالي علي فكهاني، لأن والدي لا يستطيع ترك أشغاله والسفر معهما.

كانت أمي على الدوام تحكي بحب شديد عن سفريتها الأولى إلى مصر، والانبهار الذي عاشته خلالها، جراء تلك النقلة من جدة التي على انفتاحها مقارنة ببقية مدن المملكة، كانت جدة بسيطة مقارنة بالقاهرة، التي كانت حافلة بالأضواء والسهرات والفعاليات المختلفة التي تخطف الألباب.

كانت تجربة أمي وأختي منيرة في السفر لأول مرة رائعة، وكانت قبضة خالي علي فكهاني بكل تأكيد أقل حدة من قبضة الوالد، ما أتاح لهما حرية نسبية في استكشاف مدينة مترامية ومختلفة الأعراق والأجناس مثل القاهرة في أوائل الأربعينيات.

وكان جديدًا على أمي وأختي مشاهدة الألوان المختلفة للضوء، إلى درجة أن فقرة أساسية في الحكي عما رأتا في القاهرة عقب عودتهما إلى جدة كانت

عن الأضواء (النور الأخضر والنور الأحمر وغيرهما) التي تلف بعض المحال والبنايات بعد مغيب الشمس. كان ذلك كله باهرًا، لأنه غير موجود في جدة أو الرياض في تلك الأثناء. كانت مصر موضوعًا للتفاخر بين نساء المملكة، ويُقال إن امرأة تكلمت بين صديقاتها باللهجة المصرية، فسألنها:

- هل ذهبتِ إلى مصر؟

أجابت:

- لا، لكن خالتي هي التي زارتها!

الحق أنهما كانتا معذورتين، لأن الشقة التي أقامتا فيها مع خالي في جاردن سيتي كانت في بناية مجاورة للبناية التي يسكنها زعيم الأمة، ورئيس وزراء مصر التاريخي، مصطفى باشا النحاس، رئيس حزب الوفد بشعبيته الجارفة في تلك الفترة من النصف الأول من القرن العشرين، ولذلك كان الشارع الذي يسكن فيه والشوارع المحيطة به محل اهتمام السلطات البلدية، فضلًا عن أن حي جاردن سيتي كان مقرًّا للقيادة العليا للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، وبيت المندوب السامي البريطاني، الحاكم الفعلي لمصر في أوائل أربعينيات القرن الماضي، حيث كانت مصر تحت الاحتلال البريطاني.

تعرَّفت أمي وأختي وخالي على بعض جيرانهم من الأسر المصرية التي تقطن نفس البناية. كانوا في الشتاء، وكانت أمي تكره البرودة، وعندما تشتد تجعلها ترتجف. وفي ليلة أشبه بالزمهرير على حد تعبيرها، شعرت بأنها ستموت من شدة البرد. قال لها خالي علي: «روحي زوري أصحابنا الذين يسكنون في الشقة المجاورة لنا، ربما تشعرين بالدفء إذا تحركتِ نحوهم». ذهبت أمي بالفعل لزيارة جيرانها، وعادت وهي تعدد مناقب هذه الأسرة:

- والله ناس طيبين وانبسطت عندهم، بيتهم دافئ، أعطوني شيئًا شربته، فتبددت البرودة من جسمي.

كان الجيران أسرة قبطية، أعطوها كأسًا من الكونياك الذي يبدد الشعور بالبرد. قال خالي ضاحكًا:

- الله يتعسك، هما أعطوك سكار!

أي شيئًا يسكر. صُدمت والدتي، التي أسرعت صوب الحمَّام وهي مصرة على إخراج ذلك المشروب من جوفها، باعتباره منكرًا، وفق التعاليم الدينية. كانت والدتي تضحك بشدة كلما تذكرت تلك الواقعة.

الحق أنه كان لخالي علي دور متميز في أسرتي الصغيرة، فكانت والدتي تحبه كثيرًا وتحنو عليه كأخ أصغر، وشملته ضمن عائلتها، وأقبل والدي عليه بمحبة، فكان يوكل إليه السفر مع أسرتنا إلى الخارج من دون أبي، وألحقه بالعمل في وزارة المالية. كانت علاقة خالي علي بنا قوية للغاية، خصوصًا مع أخي أحمد، وقد تعاون معه وساعده كثيرًا في عمله. كان خالي لنا السند ومصدر العاطفة والدلال. وكان دائمًا يناديني: «يا قمر!»، ودائمًا ما يعطيني نقودًا كنت أفرح بها.

عادت أمي وأختي وخالي إلى المملكة بعد انتهاء رحلة علاج منيرة، لكن سرعان ما عادوا إلى مصر مرة أخرى بعد أن اشتد المرض على منيرة، وحضرت معهم في هذه المرة أختي لطيفة وخالتي وزوجة عمي إبراهيم، في الوقت نفسه، مريم فكهاني. فبعد فترة من هجرة أبي إلى جدة لحقه أخوه الأصغر عمي إبراهيم التركي، فاحتضنه والدي، ثم زوَّجه الابنة الثالثة لعمر فكهاني خالتي مريم فكهاني. سكن عمي إبراهيم وخالتي مريم في دور خاص في بيتنا في جدة القديمة، وأسفرت زيجتهما عن أربعة أبناء ذكور. كانت خالتي مريم ذكية، بل خارقة الذكاء، وأشعر بخسارة فادحة أنها لم تتعلم. يتعانق مع ذلك الذكاء الحاد جمال أخاذ ورشاقة لافتة وحضور اجتماعي كبير. كانت خالتي تسافر معنا إلى معظم الدول التي نسافر إليها، خصوصًا مصر وأوروبا. كانت محبة للحياة، على عكس عمي الذي لا يحب السفر.

بناءً على نصيحة الطبيب انتقلت أمي وأختي منيرة وخالي وأختي لطيفة وخالتي وزوجة عمي مريم للسكن في فيلَّا قريبة من مقر مجمع التحرير الحالي، وتطل على النيل، أي في حي جاردن سيتي أيضًا، لكنها في الجزء الشمالي منه. وفي أثناء انتقالهم إلى الفيلَّا تعرفوا على ممرضة مصرية تعمل في مستشفى قصر العيني

لزوم رعاية أختي، وهي أبلة عنايات، تلك السيدة الطيبة، التي عرفتها فيما بعد وأحببتها، وأحببت طيبة قلبها.

من ضمن جيراننا في الفيلَّا أسرة نجدية، وهي أسرة عبد الله الخريجي، نقول نحن في السعودية بيت الخريجي، وهم نفس جيراننا في جدة، والخريجي - عليه رحمة الله - كان صديقًا عزيزًا لوالدي، وينتميان إلى نفس المنشأ في عنيزة بالقصيم، ويشتغلان معًا بالتجارة، وتأثر به والدي فيما يخص السفر للعلاج في مصر، والإقامة في أحياء القاهرة الراقية.

الحق أنه بالنسبة إلى ما يمكن أن أسميهم عائلات النخبة في جدة، التي تضم والدي والخريجي وكثيرًا غيرهما، فإن تراكم الثروة لديهم خلق لهم ظروفًا ساعدتهم على تطوير نمط متميز لحياتهم عن نمط حياة أهل جدة الآخرين. على رأس تلك الظروف السفر المبكر إلى الخارج، وتملُّك العقارات في البلدان العربية مثل مصر، خصوصًا مع اكتشاف النفط والازدهار الاقتصادي الذي أحدثه في البلاد في ظل المملكة الحالية.

ففي أثناء الحكم التركي وحكم الأشراف لم يكن يسافر إلى الخارج سوى رجال الأعمال والوكلاء المشتغلين في تنظيم مجموعات الحج وتزويدهم بما يحتاجون إليه. وفي تلك الفترة لم تكن النساء يغادرن البلاد إلى الخارج إلا للعلاج في مصر أو سوريا.

ما جعل بيت الخريجي منفتحين على السفر في ذلك الوقت المبكر أن إحدى بناته نورا كانت الزوجة الثالثة لعبد الله السليمان الحمدان أهم شخصية بالحكم السعودي عند تأسيسه، وأول وزير مالية للمملكة، وأحد أبرز رجال الملك المؤسس عبد العزيز آل سعود ومن أقربهم إليه مكانة وثقة. ويُقال إن أغنية «نورا يا نورا» التي غناها فريد الأطرش قد وضعت خصيصًا لها.

عاصر الحمدان مرحلة تأسيس الدولة في نشأتها الأولى بعد توحيد البلاد، وساهم في تذليل عدد من المصاعب المالية التي واجهت المؤسس، فجمع المال من التجار الذين سافروا من القصيم وعموم المملكة العربية السعودية إلى الهند

وغيرها، وساعده في ذلك أنه بدأ رحلته العصامية من خلال سفره وتنقله بين الأقاليم والبلدان قبل وصوله إلى ديوان الملك عبد العزيز، حيث جاب بلدان الخليج واستقر فترة في شبه القارة الهندية، ومارس التجارة بعد أن نال ثقة أهل بلدته من تجار مدينة عنيزة، حيث مثلهم بعد أن وكلوه على تجارتهم، فكان حافظًا وأمينًا على حساباتهم وسجلاتهم.

وهكذا كانت العلاقات متشابكة، فالانتماء إلى عنيزة يجمع والدي بعبد الله السليمان الحمدان، الذي عينه مديرًا لمالية جدة، ويجمعه كذلك ببيت الخريجي الذين هم أيضًا من عنيزة وأصهار عبد الله السليمان. ومن هنا صرنا نسافر مثل بيت الخريجي الذين كانوا يسافرون إلى مصر.

بيت الخريجي المجاور لبيتنا في جدة كان مركزًا لكل تلك العلاقات العائلية والتجارية المتشابكة في تلك الفترة المبكرة من عمر الدولة السعودية، فعندما يسدل الليل ستاره، يجتمع في بيت الخريجي رجال الدولة والتجار والأعيان في حلقة مجلس ثابتة، يصلون المغرب والعشاء، ويلعبون البلوت بأوراق الكوتشينة، ويناقشون أمور النهار من أعمال ومشكلات.

* * *

تكررت زيارات عائلتنا إلى مصر، خصوصًا أمي وأختي منيرة ثم خديجة، وخلالها تعرَّفوا على عائلة أحمد حمزة باشا، الذي درس الهندسة وسافر إلى إنجلترا، ليعود بعدها ويقرر أن يبدأ أول مصنع عربي متخصص في إنتاج الزيوت العطرية المستخلصة من الزهور المختلفة التي أشرف على إنتاجها بنفسه، فكان يصدرها إلى الخارج وخصوصًا فرنسا إلى أشهر مصانع العطور هناك. ولم يكتفِ بذلك، بل قرر إنشاء مجلة «لواء الإسلام»، وتولى وزارة التموين ثم وزارة الزراعة. وتعرفت أمي وأخواتي على حرمه زينب هانم خشبة، التي تنتمي إلى بيت خشبة باشا بأسيوط. كانت زينب هانم وبعض صديقاتها صديقات لأمي وأخواتي، وكن محتشمات، لكنهن يُجِدن اللغات الأجنبية خصوصًا الفرنسية والإنجليزية، على عادة الطبقة الأرستقراطية المصرية في ذلك الزمان.

حدث أن عزم بيت خشبة باشا أسرتي وبيت الخريجي على الغداء، ويُقال إن أهلي وجيرانهم السعوديين الآخرين قد انبهروا مما رأوه، قال بعضهم لبعض: «شُفتوا العزومة الكبيرة، وكيف كان الرجال على الصفين (السفرجية) ينحنون للضيوف؟». ما زاد انبهارهم أنهم وجدوا - على الرغم من تلك الحداثة التي عليها بيت خشبة باشا - عنصرًا إسلاميًّا محافظًا كان بمثابة الرابط الجامع بين العائلتين السعوديتين والعائلة المصرية، وهو الحشمة.

هنا يجب أن أتوقف مرة أخرى عند مزايا السفر لعائلات المملكة، نجدية كانت أم حجازية، وتأثيره على نمط حياتها وخصوصًا النساء، فإقامة عدد من العائلات السعودية بشكل مؤقت في مصر وغيرها في السنوات الأولى من عمر المملكة أدت إلى تعرض هذه العائلات للتأثير الثقافي الخارجي، الذي أوصلها في نهاية المطاف إلى تبني بعض القيم الوافدة على مجتمع نجد والحجاز. فالنساء على سبيل المثال، اكتسبن طريقة جديدة في الملبس والمأكل من إقامتهن في مصر، وعلى الرغم من أنهن حافظن على ارتداء الحجاب في الخارج، فإنهن قد عدلن من شكله واستخدامه، فاستبدلن بالعباءة المعطف، وأخذن بالتدريج يضعن وشاحًا على الوجه بدلًا من الطرحة. كما انفتحن على المغنى والطرب وارتياد السينما والمسارح في القاهرة، وكذا عادة التسوق من المحال الكبرى مثل شيكوريل وعمر أفندي، والانخراط في نمط استهلاكي جديد.

لا أستطيع أن أصف حجم الصداقة التي جمعت أمي وأختي منيرة بالسيدة زينب خشبة، إلى درجة أنها كلفت صديقتها - وكانت سيدة راقية تُدعى منيرة محمد علي - بالإشراف الطبي على أمي وأختي، لأنها على ما أذكر كانت ممرضة مشهودًا لها بالكفاءة. صارت هذه السيدة صديقة حميمة لنا، من آنٍ إلى آنٍ تطبخ لنا الطعام بنفسها في بيتها كنوع من الحفاوة الخاصة.

لقد نشأت صداقة قوية بين أسرتي وتلك الأسرة المصرية، التي كنا نستقبلها

في جدة ومكة والمدينة. ومن الجدير بالذكر أن أحمد حمزة باشا أضاء الحرم المدني من ماله الخاص، قبل أن تتحسن أحوال المملكة بعوائد النفط.

القصة كما رواها الدكتور محمد علي شتا، مدير مكتبه، جاء فيها أنه في سنة ١٩٤٧ قرر الوزير حمزة حج بيت الله الحرام بصحبة مدير مكتبه، وبعد أداء مناسك الحج توجه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنه تفاجأ بأن المدينة المنورة ومسجد الرسول بلا كهرباء، وأنهما مضاءان بمصابيح زيتية لا يستطيع الزائر أن يرى منها شيئًا. وبعد عودته إلى مصر قرر حمزة شراء محولات كهربائية وعدد من المصابيح والأسلاك لإنارة المسجد النبوي بأكمله، وكلف مدير مكتبه «شتا» بصحبة عدد من المهندسين، بالسفر إلى المدينة لإتمام العملية، وبالفعل وبعد ٤ أشهر تحول المسجد النبوي من الظلام إلى النور، واحتفلت السعودية بإضاءة مسجد النبي الأكرم.

في العام الثاني شدَّ حمزة رحاله إلى البيت الحرام لأداء مناسك الحج ورؤية مسجد الرسول مضاءً بالكهرباء، وخلال زيارته طلب من أمير المدينة المنورة الذي استقبله، الدخول إلى قبر الرسول، لكن الأمير أكد أن الأمر ليس بيده لكنه سيرفعه إلى السلطات لإصدار أمر ملكي به. وبعد مرور ٢٤ ساعة فقط جاء الرد بالموافقة ليقرر الوزير تأجيل الزيارة، وهنا يقول الدكتور محمد شتا في مذكراته إن الوزير ظل لمدة ٣ أيام متواصلة يتعبد في المسجد النبوي من قراءة القرآن والصلاة استعدادًا لمقابلة أشرف الخلق، مضيفًا:

> «دخلنا قبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، فاستقبلتنا رائحة زكية شديدة الروعة، وجدنا أرضًا رملية، وشعرت من جلال المكان أنني غير قادر على الكلام، وبعد دقائق من الرهبة، ظللت أتلو ما تيسر لي من آيات القرآن الكريم، والأدعية، ونفس الشيء كان يفعله الباشا أحمد حمزة».

* * *

تعرَّفت أمي وأختاي منيرة وخديجة، من خلال زياراتهن المتعددة إلى مصر وتشعب علاقاتهن الاجتماعية مع العائلات المصرية التي تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، على مطربة شهيرة من مطربات ذلك العصر اسمها حفصة حلمي. كانت مشهورة في مجالس أسر الطبقة الراقية المصرية، وتُذاع أغنياتها في الإذاعة المصرية، وسبق اسمها اسم عبد الحليم حافظ في أوبريت «موكب النيل».

بصداقة هذه المطربة انفتح الباب قليلًا أمام أمي وأختي للتعرُّف على حياة المغنى والطرب المصري. كانت أمي وخالتي من أفضل من يغنون الطرب الحجازي، كان صوت أمي جميلًا، لكنها لم تكن تعرف الطرب المصري بآلاته الموسيقية المتنوعة بين الشرقي القديم والغربي التي دخل بعضها مع الاحتلال البريطاني.

اقتربت خديجة من حفصة، التي اعتبرتها بمنزلة الأخت، وكانت تذهب وخالتي مريم معها إلى استديو مصر، وإلى المسارح وحفلات الغناء من دون علم الوالد، ومن خلال حفصة انطلقت أختي إلى عالم الموضة والطرب والحياة العصرية ما استطاعت إليه سبيلًا، فلم يكن واردًا التنازل بالكلية عن هويتها المحافظة.

* * *

اتفقت نورا الخريجي وخديجة مع بقية أخواتي على مشاهدة فيلم «ما تقولش لحد» لفريد الأطرش وسامية جمال. اتفقن على أن يكون مكان المشاهدة الطابق العلوي من بيتنا. عرفت الأمر من خلال مزاح بين اثنين من الخدم، فقال أحدهما للآخر:

- ما تقولش لحد.

ورد عليه زميله بالعبارة نفسها:

- ما تقولش لحد.

سألتهما: ما المقصود بهذه العبارة؟ فقال أحدهما إنه اسم الفيلم الذي سيُعرض بعد قليل في بيتنا.

ركضت صوب أمي. قلت لها:

- أبغى أشوف الفيلم، وما أبغى المعلمة اليوم.

احتضنتني أمي، ولم أكن قد بلغت السادسة بعد:

- لا يا حبيبتي، هذا للكبار، ابقي مع معلمتك.

في تلك اللحظة كرهت الكبار وكرهت المعلمة!

في أثناء ذلك الحوار الذي دار بيني وبين أمي أرسل والدي صبيًّا يطلب من السائق إحضار المعلمة. جُننت عندما رأيته يفعل ذلك، لأن تلك المعلمة لو جاءت فلن أتمكن من مشاهدة الفيلم مع بقية النساء. لست أدري كيف فعلتها، ولكني أرسلت صبيًّا آخر إلى السائق يقول له والدي يقول لك: «لا تحضر المعلمة، ما عندهم درس اليوم!».

السائق كان عصبيًّا، فقال محتجًّا بصوت عالٍ:

- إيش هذا؟ روح جيب المعلمة، وما تروح تجيب المعلمة، ارسوا لكم على بر!

خرج والدي إليه، وفهم ما فعلته.

من شدة الرعب والخوف من أبي بعد الجريمة التي ارتكبتها هربت إلى السطوح عند خزان المياه، وكان الجو مائلًا للبرودة. سمعت وقع أقدامهم متجهين نحوي، وفكرت في البقاء داخل الخزان، لكنني خفت، ثم زاد الطين بلة أن البستاني قرر تشغيل الخزان لري الحديقة، على الفور نزلت متخفية من الناحية الأخرى إلى الطابق الأرضي.

دخلت مكتب والدي. كل ذلك وهم يقلبون الدنيا بحثًا عني داخل البيت وخارجه، إلى درجة أنهم ذهبوا إلى البوليس للبحث عني. وجدت بطانية فوضعتها فوق جسدي النحيل، ومكثت تحت المكتب، ثم في أثناء البحث عثر عليَّ أبي الذي كان الشرر يتطاير من عينيه، وأمي تقول بلهفة:

- الله يخليك يا أبو أحمد لا تضربها، من فضلك يا أبو أحمد لا تضربها.

لم يستطع أحد أن يمنعه عني، وضربني ضربًا مبرحًا.

في أثناء الضرب قالت أمي:

- تعالي عندي يا حبيبتي.

قال لها:

- أتقولين لها يا حبيبتي؟!

وزاد في ضربه لي. كل ذلك وأخواتي مع بنت الخريجي يشاهدن «ما تقولش لحد».

الحق أن تلك الواقعة لم تكن وحدها سببًا في غضب والدي مني. كانت هناك واقعة أخرى سابقة عليها. كان لدينا طبيب سوري لبناني وهو الدكتور عبد الله سعادة، يعمل في المستشفى اللبناني بجدة، والذي كان أول مستشفى خاص أُنشئ بجدة في عهد الملك سعود سنة ١٩٥٥، حيث قدم إلى مدينة جدة بعض الأطباء اللبنانيين حاملين معهم فكرة افتتاح مستشفى خاص بها، فاستقبلهم الشيخ عبد الله السليمان الحمدان أول وزير للمالية، ورحب بهم وشجعهم على تنفيذها ووعدهم بتوفير كل ما يطلبونه من دعم مادي ومعنوي، فأخلى لهم أحد فنادقه الأربعة الكبرى بمدينة جدة، ليتحول إلى المستشفى اللبناني.

جاءوا بالدكتور عبد الله سعادة للكشف على أمي، كانت معه سيارة، رُحت أتفحصها، فقال لي وهو خارج: «تعالي يا ابنتي أفسحك بها ما دمت معجبة بها». وعندما رجعت تعرضت لعقاب شديد، فقد أبي السيطرة على نفسه، كيف أخرج من دون إذنه ومع شخص غريب، لكن تصادف أن خالي كان موجودًا في بيتنا فصد عني، لذلك كان عقاب والدي قاسيًا في المرة التالية، لأنه اعتبر أن تمردي ربما صار ظاهرة، ولا بد من كبحها وردعها.

* * *

كانت أختي منيرة عاشقة للفن والطرب، تدق العود وتغني، وكانت أمي وخالتي تغنيان أيضًا في إطار العائلة، لذلك كان بيتنا يُسمَّى «بيت الطرب»، لكن كل الغناء والعزف يتوقف بمجرد سماعنا صوت سيارة أبي قادمة من بعيد. كان يعترض على الطرب لأنه حرام شرعًا.

كان أبي مصرًّا على مفهومه المحافظ للدين وللتقاليد، لا تفاهم أو نقاش معه في ذلك، ممنوع يعني ممنوع. كانت الصلاة أهم شيء لديه، إذا عزمنا على طلب نقود منه فأول شيء نفعله هو أن ندعه يرانا ونحن نصلي، نعلم أن ذلك يجعله راضيًا عنا، فمن فرط حبه لنا كان يريد أن يضمن أننا نفعل ما يقربنا من دخول الجنة. كنت أتدلل عليه كثيرًا، وأحاول العبث في جيبه الذي أعرف أنه يضع فيه النقود، فكان يقول دومًا: «لا تقتربي من هذا الجيب فهو حق الله»، في إشارة إلى أنه يخصص ما فيه للصدقة.

دومًا كنت أحضر من القاهرة إلى جدة قبيل عيد الفطر، فور أن يراني وبعد السلام يقول لي: «غدًا تذهبين لأداء مناسك العمرة». كنت أرد عليه بالحجة الجاهزة بأنه «يا أبي أنا ما عليَّ صلاة أو صيام»، أي أنني أمر بالمانع الشرعي الذي يحول بين النساء والصلاة والصوم. لما تكرر ذلك الأمر رد عليَّ في مرة منفعلًا: «إنتِ كلما حضرت إلى جدة ما يكون عليك صلاة؟ خلاص بلاش تيجي».

كان من مظاهر تمردي في تلك الفترة عدم الالتزام بالشعائر الدينية من صلاة وصوم، وذات مرة دخلت عليَّ ابنة أخي وأنا أتناول الفراولة في نهار رمضان، وإذ بها تباغتني: «هو إنتِ ما عليك صلاة يا عمة؟».

كان لدى أخواتي جهاز جرامافون وعدد كبير من الأسطوانات الغنائية والموسيقية، التي تُعَد بمثابة ثروة لا تُقدَّر بثمن. بالصدفة جاء أبي مبكرًا في يوم ما واكتشف ذلك الأمر، فلم يتردد في تحطيم الجهاز والأسطوانات على الفور.

كانت حادثة تحطيم الجرامافون فاجعة بالنسبة إلى أمي، وبالأخص أخواتي. فقد كان الطرب جزءًا مهمًّا من حياتنا، من أهل والدتي إلى خالتي إلى أخواتي وإلى حتى أمي، كان الغناء دائمًا معنا. عندما نخرج في نزهة بالسيارة، وبالأخص عند الوصول إلى البستان في الطائف أو البحر في جدة، يكون معنا الطار أو أي شيء نطبل عليه، تغني أمي وتتبعها منيرة وتلحقها خالتي مريم. وفي بيت جدي

لأمي كثيرًا ما تحضر النساء من أطراف المدينة، هن صديقات جدتي، وينخرط الجميع في غناء البادية وأهل البلد.

بيتنا الجديد كانت له شرفة مربعة تُفرش في الصيف، بل في كل يوم عند الغروب كجلسة عربية. يحضر الزوَّار والأهل، وتُقدم القهوة والشاي، وغالبًا ما يتبعهما الغناء تبدأ فيه كوكبة من النساء. هذه سلوتنا حتى بعد أن دخل التلفزيون حياتنا. ولكن المتشددين في الدين رأوا أنه لا يجوز انطلاقًا من مقولة إن صوت المرأة عورة، وكان والدي في ذلك الوقت من هؤلاء. وتحايلت نساء البيت على هذا القانون بأن امتنعن في وجود أبي، وكانت هناك حلقة إنذار تبدأ من عم حسن البواب إلى الشغالات إلى نساء البيت تنذر بوصول الوالد، فيسكت الجميع وبسرعة تزول آثار الطرب.

وانفتح الجميع على الطرب في مصر ومنهم أخواتي، وكانوا يحضرون من آنٍ إلى آنٍ حفلات أم كلثوم، أما جيل أخواتي فأدمن هذا الطرب ومارسه في كل فرصة!

لكل هذه الأسباب كانت الفاجعة الكبرى عندما عاد والدي قبل موعده واكتشف الجرامافون والأسطوانات التي هرَّبنها من مصر! تدمر الجرامافون والأسطوانات في عاصفة غضب من أبي، وكان حجم الخسارة كبيرًا، إلا أن الغناء عاد إلى حياتنا بعد أيام معدودة.

* * *

أنا من الجيل الذي عاصر وجود تجارة الرقيق في المملكة قبل إلغائه بموجب وثيقة إلغاء الرق التي صدرت في السعودية في سنة ١٩٦٢، حيث كان هناك دلالون متخصصون في جلب الجواري والعبيد إلى جدة من أصقاع مختلفة من العالم، خصوصًا أفريقيا.

تعرَّفت على مجتمع الجواري والعبيد من خلال أولئك الذين كانوا في بيتنا، وهم خمس جوارٍ وعبد واحد. كنا ننادي الجارية بلقب «دادتي»، والعبد بلقب «دادي». كانت دادتي نتيجة من أصول يمنية، ودادتي زهرة سودانية، ودادتي

دنانير، لا أعرف الأصل الذي تنحدر منه، لكنها كانت غامقة اللون، ومرضت بداء السل، وأرسلها والدي إلى لبنان للعلاج إلى أن تُوفيت متأثرة بمرضها. كانت لدينا كذلك دادتي ياسمين، ودادتي فرح، ولا أعرف إلى أي البلاد يرجع أصلهما.

وكان لدينا عبد كنا نناديه دادي سفيان، استمر معنا فترة طويلة، وأرجح أن أصوله سودانية. كان مفضلًا لدى أمي في قضاء حوائجها من خارج المنزل، لأنه كان مطيعًا ومهذبًا، وينفذ المطلوب منه بدقة ومن دون جدال كعادة الجواري. كانت أمي توزع شغل البيت على الجواري الخمس، بجانب أن كل واحدة منهن كانت مكلفة بخدمة واحدة من أخواتي، وعندما تتزوج تذهب معها إلى بيت زوجها.

من اليسار إلى اليمين: أنا، وابتسام ابنة خالي، وخادمنا دادي سفيان

خادمتنا نتيجة وأنا

كان بيتنا رقيقًا نسبيًّا في معاملة الجواري، فبعضهن كن يسافرن معنا في الإجازة الصيفية إلى سويسرا. حتى الجيل الثاني من أبنائهن كان يسافر معنا. أذكر أنه في إحدى المرات سافرت معنا ابنة دادتي فرح، من رجل اسمه سرور. وكنا نصطحبهن معنا في الفسح والنزهات.

كنت أشعر بنزوع الجواري إلى أن يعشن حياة طبيعية مثل كل البشر، فالواحدة تريد أن تحب شابًّا ويحبها، تريد أن تصبح زوجة وأمًّا لأبناء على الرغم من أن صك حريتها ليس في يدها، وقرارها فيما يخص حياتها ليس في يدها، وإن كان ذلك عامًّا حتى على النساء الحرائر بصورة أو أخرى في المملكة خلال تلك الفترة، لذلك كانت تنشأ بعض العلاقات الغرامية للجواري مع بعض الشباب الذين يعملون لدينا في الحديقة. كانت الأمور على الرغم من محاولات الفصل العديدة تفلت إلى أن يصير هناك حمل لبعضهن نتيجة لتلك العلاقات، وهو ما كان يعرضهن للعقاب من جانب أبي وأمي، باعتبار

أنهن لم يحافظن على سمعة البيت الذي يعشن فيه، فلا يصح أن يُقال إن جارية فلان حملت سفاحًا.

بشكل عام كان من حق رب البيت أو السيد أن يتمتع جنسيًّا بجواريه إذا ما رغب في ذلك باعتبار أنهن «مما ملكت أيمانكم» بالمعنى الديني، لكن ذلك لم يكن موجودًا في بيتنا، فأبي كان يتعفف عن ذلك، لكن غيره كان يمارسه باعتباره حلالًا بالنص القرآني، وإذا حملت الجارية فوجب عتقها، ويكون المولود تابعًا للأب مثل أخي سليمان كما ذكرت سابقًا.

لم تكن في بيتنا أعمال شاقة، كانت الجواري يأكلن مما نأكل، ويشاركننا جلسات الطرب والسمر والدق على العود، التي كانت تقيمها أمي وأختي منيرة، لكن ذلك لا يساوي شيئًا أمام فقدان المرء حريته، فضلًا عن بعض الممارسات الصارمة للتفريق بين العبد والسيد، والجارية والحرة، فغير مسموح لهن مثلًا أن يأكلن معنا على مائدة واحدة، وإن كان أبي - رحمه الله - لم يكن يلتزم بتلك التقاليد، فكان يشاركه طعام الإفطار في شهر رمضان دادي سفيان، وغيره من العاملين في حديقة المنزل.

بعد صدور قرار منع الرق في سنة ١٩٦٢ صارت الجواري ودادي سفيان أحرارًا، بعضهم قرر الخروج من البيت والاستقلال بحياته، فدادتي فرح التي عاشت مع أختي منيرة في مصر، ولا تزال ابنتها تعيش في القاهرة إلى الآن، كان لها من اسمها نصيب، فبعد أن صارت حرة أصبحت مطربة شعبية، وكوَّنت فرقة لإحياء الأفراح في المناطق الريفية والشعبية.

كما عاشت دادتي زهرة في بيتنا بجدة، وتولت الإشراف على إدارته من طبخ وتنظيف، خصوصًا بعد أن جاءت أمي لتعيش معي في مصر. وظلت زهرة معنا إلى أن توفاها الله.

جاءت نتيجة معنا إلى مصر، لم أكن أحبها وهي كذلك لم تكن تحبني، لأنها كانت مهملة في عملها، وأنا كنت على رأي أمي أبلة الضابط، بمعنى أنني أحب الانضباط في كل شيء، وإذا حصل تأخير فلم أكن لأتسامح في ذلك، ونتيجة

كانت تناكفني مثلًا بتعمد تأخير الطعام، وعندها كان يطير عقلي. ثم تهادنَّا إلى أن خرجت في مرة ولم تعد إلينا.

بيت خالي لم يكن فيه رق، لكن جيراننا بيت الخريجي كان لديهم الكثير، ومن وقت لآخر كانت تهرب من عندهم جارية لتحتمي ببيت الحكمدار أو الأمير. لم أرَ عنفًا جسديًّا يُمارس عليهن بشكل مفرط في معظم البيوت إلا في استثناءات نادرة. والحقيقة أننا كنا مثلهن لا نبرح البيت.

* * *

كان هناك نموذج آخر في مجتمع جدة لا نستطيع أن نقول عليه رقًّا، يتمثل في أولئك الذين يعملون معنا من أحرار اليمن، ويبقون معنا ولا يخرجون إلا للزواج سواء أكانوا رجالًا أم نساءً، فقد كان الكثير منهم يهاجرون من ديارهم للعمل في جدة. كان الصبيان أو الرجال يعملون في المتاجر والمحال التجارية مع أرباب البيوت التي يعيشون فيها، وتبقى النسوة للخدمة في تلك البيوت.

ولعل من المهم أن أشير هنا إلى أن علو النسب في اليمن يحدده حرف واحد، فالفرق مثلًا بين «بابكر» و«أبو بكر»، أن الأول يدل على علو نسبه مقارنة بالمنطوق الثاني. لكن أستطيع أن أقول إن الكثير من الفوارق قد انصهرت في نسيج جدة الاجتماعي المتنوع، باعتبار أنها مدينة ساحلية لا ينقطع الوصول إليها أو السفر منها، وهو ما جعلها تعتاد اختلاط الأعراق فيها، خصوصًا في حالة موجات النزوح اليمنية التي جاءت معها عائلة المعلم محمد بن لادن مع بداية تكوين المملكة على يد المؤسس عبد العزيز آل سعود، وكانوا من المؤسسين، وحاز بعضهم مناصب إدارية في الدولة.

كان «بن لادن» مقاولًا كبيرًا، وأشرف على توسعات في الحرمين الشريفين، وكان أبي وكيله، وجاهد الوالد في تعليمه التوقيع بالكتابة، لكن «بن لادن» الأب كان ذكيًّا وموهوبًا في التجارة، وعندما أراد الإنجليز أن يبيعوا له بعض الآلات الصناعية قال لهم: «أحضروها إلى المملكة وأختبرها أولًا ثم أشتري الصالح

منها للعمل». تزوَّج ابنه من لينا ابنة أختي الكبيرة منيرة، وكم أفجعني رحيل لينا قبل عدة سنوات، رحمها الله وأسكنها فسيح جناته.

كانت جدة مدينة ثرية ثقافيًّا وحضاريًّا لكثرة اختلاط الأعراق فيها، وكان التعايش بين هذه الأعراق في سلام ووداعة يدعو إلى الانبهار، إلى أن خرج الكثير من أبنائها للتعليم في مصر ولبنان في النصف الأول من القرن العشرين، وهناك تعلموا آفة التعالي على الخدم.

كما سبق أن أشرت، فإن والدي كان يفطر في رمضان مع الشغالين بالطابق الأرضي من بيتنا في جدة، حيث يوجد مكتبه وغرفة نومه، وأحيانًا يأتي بأحد المساكين لمشاركته الإفطار، وهذه من العادات الجميلة لأهل نجد، ومن ضمنها عنيزة التي وُلد ونشأ فيها والدي، حيث الشعور بأن الناس جميعًا سواسية، فلم تكن هناك فوارق كبيرة بين الناس، إلى أن جاء التمدين فوضع فوارق طبقية.

تربيت وإخوتي في مجتمع جدة، ولم نتعرَّف على مجتمع نجد. صحيح أصدقاء أبي وزوجاتهم نجديون، لكننا خرجنا أقرب لأهل الحجاز، حتى في اللهجة، لذلك عندما ذهبت لإجراء دراستي في عنيزة صار الناس فيها يسألونني:

- صحيح إنتِ بنت التركي؟

أرد:

- نعم.

يقولون:

- ليش تتكلمين بهذه اللهجة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

وعندما ذهبت للتدريس فترة قصيرة بجامعة الرياض وهي في نجد، شعرت بأن الطلاب يشعرون بأنني أقرب لأهل الحجاز على الرغم من أن أصولي نجدية.

وكما كان أهل الحجاز يمارسون التعالي على أهل نجد قبل حكم عبد العزيز آل سعود نجدي الأصل، باعتبارهم قرويين أو بدوًا، فإن أهل نجد يعتبرون أن الكثير من أهل الحجاز بواقي حجاج، من باب التعالي والتقليل من شأنهم.

وبعيدًا عن سياق التعالي المتبادل، فإن كثيرًا من الحجيج، بالفعل، كانوا لا يعودون إلى بلادهم، فتجد في مكة الكثيرين ممن تعود أصولهم إلى الهند وأفريقيا وآسيا، وفي المدينة تجد البيض ذوي البشرات الفاتحة والشعور الصفراء، وتعود أصولهم إلى داغستان والقوقاز وروسيا، وهؤلاء في معظمهم يفضلون العيش في المناطق الباردة مثل الطائف.

٤

إلى بلاد الأرز وعروس البحر المتوسط

في أواخر يوليو سنة ١٩٥٢، وبينما كان العالم العربي مشغولًا بالإطاحة بالملك فاروق في مصر على أيدي حركة الضباط الأحرار وبزعامة اللواء محمد نجيب والبكباشي جمال عبد الناصر، كانت أختي منيرة وزوجها ابن عمنا عبد الرحمن التركي يستعدان لاستقبال مولودهما الأول. الولادة في المملكة غالبًا ما كانت تتم من خلال القابلات، لكن لأن منيرة كانت تعاني بعض المرض، قرر أبي أن تذهب للوضع في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث كان قسم الولادة فيه يحظى بشهرة واسعة لجودة الخدمة الطبية التي يقدمها.

ما شجع أبي على اصطحابنا جميعًا للسفر إلى لبنان هو أن مجتمعه وأصدقاءه من كبار العائلات والشخصيات السعودية كانوا يقضون الصيف خارج المملكة، هربًا من سعير الصيف فيها، ومن بينهم وزير المالية عبد الله السليمان الحمدان وجيراننا بيت الخريجي، وغيرهم. كان المقصد في معظم الأحيان إلى مصر أو لبنان.

كانت وجهتنا في بلاد الأرز خلال تلك السنة إلى منطقة بحمدون الضيعة، التي لا تزال مصيفًا مفضلًا للكثيرين من أهل الخليج حتى اليوم، والتي تبعد عن بيروت نحو ٣٥ كيلو مترًا، وترتفع عن سطح البحر ألف متر، وتتمتع بطقس جاف وصحي يجعلها وجهة الفارين من لهيب شبه الجزيرة العربية.

أبي مع ابن أختي خديجة ناصر طفلًا في أوائل الخمسينيات

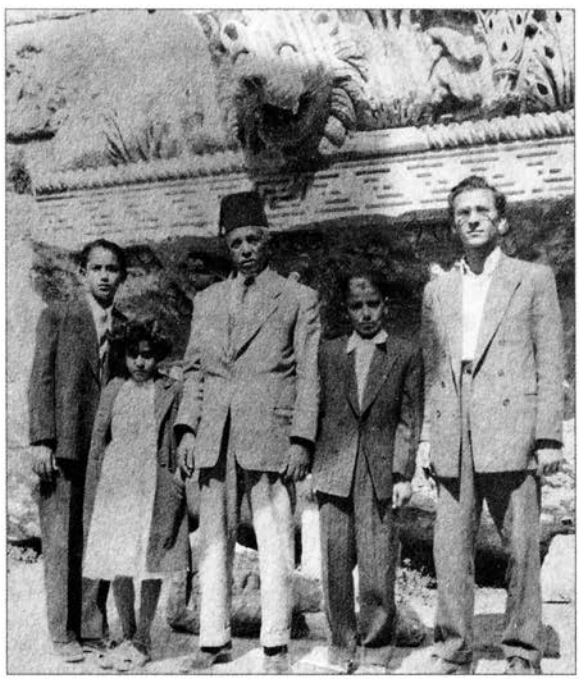

من اليسار إلى اليمين: ابن عمي يوسف التركي، وأنا، وأبي، وابن عمي خالد التركي

في يوليو من سنة ١٩٥٢ استأجر لنا أحد العاملين في السفارة السعودية بلبنان طابقًا أرضيًّا في فيلَّا جميلة في بحمدون الضيعة. سكنت فيه أسرتنا - أبي وأمي وأختاي، وزوجاهما، عبد الرحمن زوج منيرة، وخالد زوج خديجة - وأسرة خالي جميل فكهاني، وزوجته المصرية أبلة وداد التي كانت صديقة مقربة لأختي منيرة، وأولادهما.

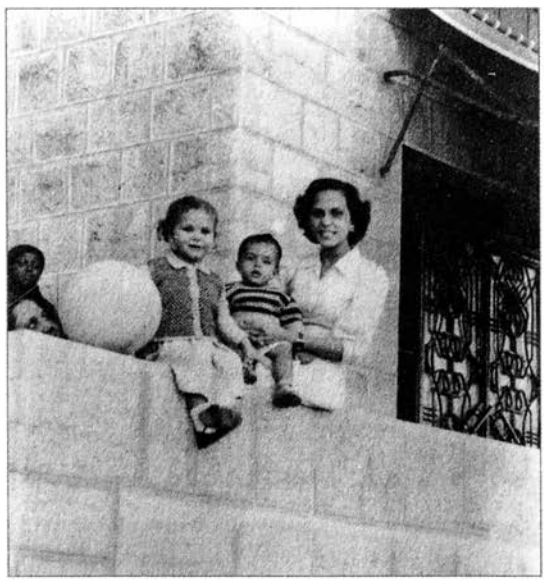

من اليمين إلى اليسار: أختي خديجة، وابنها ناصر، وآمال ابنة أختي، في بحمدون بلبنان

الأسرة التي تسكن الطابق العلوي من الفيلَّا كانت أسرة لبنانية درزية تنتمي إلى عائلة صعب المشهورة في منطقة الشوف بجبل لبنان. تقول لي أمي إن سبب تعرُّفنا على تلك الأسرة شديدة الاحترام أن الزوجة، الخالة أم زهير، أُصيبت بألم في بطنها، فأرسلت إلينا مَن يسأل عن مشروب بإمكانه التخفيف من آلامها، فالطب العربي الذي يعتمد على الأعشاب الطبيعية مشهور لدينا في شبه الجزيرة. بالفعل أعدت أمي لها خلطة أعشاب تحسنت عليها، وحدث تعارف وتزاور تطور إلى صداقة بيننا وبينهم لا تزال مستمرة إلى اليوم.

عندما علمت الخالة أم زهير بتعسر ولادة منيرة قالت على الفور: «دعوني أتصرف». وذهبت بها مع أمي إلى مستشفى طراد، وكانت الولادة متعسرة جدًّا، لكن الله يسر الأمور، وجاءت إلى الدنيا آمال ابنة أختي منيرة البكر، التي لا أستطيع وصف فرحة أمي وأبي بها باعتبارها الحفيدة الأولى لهما.

كان ذلك الاحتضان لآمال وبالًا عليَّ أنا الابنة الصغرى - آخر العنقود - التي كانت تحظى بالدلال كله، إلى أن جاءت هذه المفعوصة واستولت عليه مني. كبرت آمال وتزوجت طبيبًا مصريًّا، وعاشت في الإسكندرية ثم في القاهرة، وعلى الدوام كنت أذكرها بغيرتي منها في طفولتنا.

مع كل يوم يمر تتوطد الصداقة بيننا وبين آل صعب، فهم أناس طيبون إلى أبعد حد. صارت تجمعنا سهرات وعزومات متبادلة، حتى كنت تشعر عندما ترانا كأننا عائلة واحدة، إلى الدرجة التي جعلت أم زهير تقول لأبي عندما اقترب موعد عودتنا إلى جدة: «يا شيخ محمد، ثريا لن ترجع معكم، أرجوك اتركها معنا هنا لتدخل المدرسة وتبدأ رحلة تعليمها».

السيدة صعب في الوسط مع ابنتيها مي ولينا

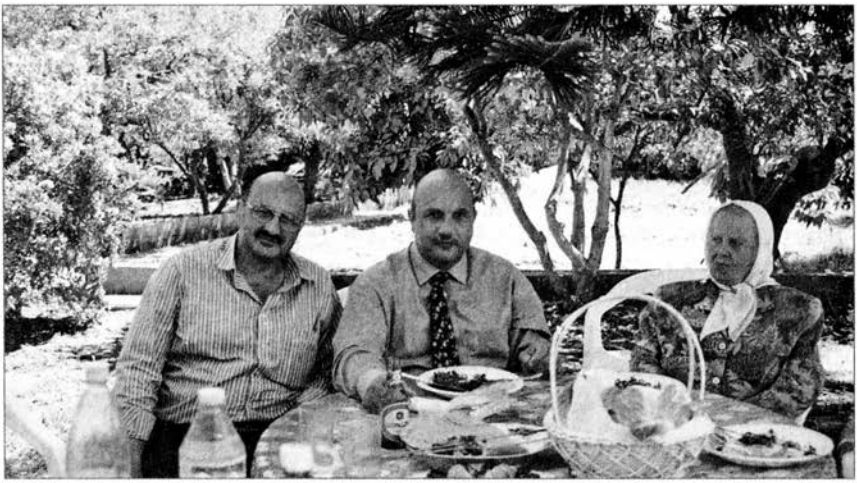

من اليمين إلى اليسار: السيدة صعب، وولداها أكرم وزهير

سؤال ما زال يحيرني، لماذا وافق أبي على أن يترك طفلته في لبنان ويعود، هل لأن ذلك الطلب وجد استجابة في نفسه لرغبته في أن أبتعد عن أختي لطيفة كي لا أتأثر بتمردها؟ لا أستطيع أن أجزم بسبب بعينه. ولكن لا ننسى أن والدي مخضرم، عاش مراحل انفتاح جدة على الخارج وعاصر بداية تعليم البنات في جدة ومكة. وهناك مَن يقول إنه ساهم في فتح مدرسة مؤقتة لبنات العائلة ليتعلمن الدين والحساب، إلخ، وإنه كان يحضر مُدرسات أجنبيات لابنته خديجة من السفارات الأجنبية لتتعلم اللغة الإنجليزية. وأقول إنه لا بد أنه تقبل تعليم البنات، مما يسر عليه قبول ما قالته الست أم زهير في لبنان، وإن كنت أعتقد أن والدتي حسنت له هذا الأمر إلى حدٍّ بعيد.

لم يكن الأمر سهلًا على أمي، التي لم تتصور أن بإمكانها العودة إلى جدة من دوني. جاءت لحظة السفر، أوصت أمي الخالة أم زهير عليَّ، كانت أمي في غاية التأثر، ويبدو عليها مزيج من الحزن والقلق بخصوصي، وأنا كذلك صرت حزينة عندما فهمت أنهم سيرحلون ويتركونني، كنت شديدة التعلق بأمي وكنت أصغر إخوتي، ومدللة من أبي.

كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بألم لحظات الوداع، التي صرت أكرهها منذ هاتيك اللحظة، قضيت عمري كله أفر منها قدر استطاعتي. أشعر على الدوام بأن الإنسان لا يموت مرة واحدة، لكنه يموت على مرات، بالبطيء، هذه المرات هي التي يودع فيها أحبابه. لم أكن أدري أنه قد كُتب عليَّ الترحال والبعد عن الأسرة معظم سنوات حياتي.

تنهمر الدموع على خدَّي أمي التي تضرب وجهها حمرة تكاد تُحال إلى لهيب في تلك اللحظات المشحونة بالعواطف والدموع، تمسح بيديها على وجهي وتبكي وأنا معلقة بثيابها وأبكي أيضًا، بكت كثيرًا حبيبتي وبكت منيرة. لم تفلح محاولات أم زهير في تخفيف وطأة اللحظة على قلب الأم الملهوفة على صغيرتها. قالت لي أمي بعد ذلك: «بعد أن تركتكِ وتحركت بنا السيارة تراءى لي أن جبال لبنان تردد اسمك، وما كان هاين عليَّ أعود من دونك».

* * *

عشت أيامًا صعبة بعد سفر عائلتي إلى جدة، لم أكن أستوعب مفهوم المدرسة، بمعناها الموجود في لبنان، المدرسة في جدة كانت عبارة عن فصل يفتحه أحد الأثرياء أو الوجهاء يحضر فيه معلم لتعليم الصغار القراءة والحساب وبعض سور القرآن الكريم. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أدخلني آل صعب مدرسة إنجليزية داخلية اسمها «British Lebanese Training College». كانت من أفضل مدارس لبنان في ذلك الزمان، وهي مدرسة مسيحية تبشيرية، مثل معظم مدارس بلاد الأرز في تلك الفترة.

بعد رحيل أسرتي تعلق قلبي بالخالة أم زهير، صارت أمي، كم كانت حنونًا عليَّ هذه السيدة العظيمة، كنت لديها مثل أبنائها: زهير وأكرم ومي ولينا. على الرغم من أن تلك الأسرة غمرتني بمحبة صافية وحنان خالص، فإنني افتقدت أمي، خصوصًا في تلك اللحظة التي أخذوني فيها إلى المدرسة التي سأقيم فيها، لأنها مدرسة داخلية، لا أخرج منها إلا في بعض العطلات. كنت طفلة لم تتخطَّ عامها السابع بكثير، وألقت بي المقادير من دون مقدمات في خضم

ثقافات مغايرة، حضارات مختلفة، أديان وعقائد متباينة، حتى اللهجة والطقس كانا شديدَي الاختلاف عما عشته في جدة.

لم أكن أعرف الرعد والبرق اللذين يلفان شتاء بيروت، كنت أخاف، أرتعد، عندما يزلزلان السماء بتلك الأصوات العالية مع ذلك الضوء الوحشي المفاجئ الذي يشعرك كأن السماء ستسقط فوق رؤوسنا، بالتزامن مع انهمار شديد للمطر، فيما الكون كله يغلفه الضباب الذي يخفق له القلب، ويكرهه مَن اعتاد وهج الشمس في المملكة.

كان نظام المدرسة صارمًا، ولأنني وُلدت وعشت في مدينة منفتحة نسبيًّا مثل جدة، وكنت مدللة من أبي، فقد كنت أكره تكبيلي بالأوامر والتعليمات. تهفو على الدوام روحي للانطلاق وتأنف القيد، أي قيد. كنت وحيدة في تلك المدرسة، ما ضاعف شعوري بالغربة. لم يكن أمامي إلا الامتثال لما يصدر لي من تعليمات وأوامر، وإن لم تخبُ تمامًا مقاومتي، وجنوحي إلى الانطلاق والحرية، ويطوقني الشوق والحنين إلى دفء الأسرة وحضن أمي.

كنت في تلك السن الصغيرة غير قادرة على استيعاب لهجة اللبنانيين المختلفة عن لهجتنا، كان ذلك يسبب صدامًا مع المعلمات، لم أكن أفهم بعض ما يوجه إليَّ من أوامر فأعجز بالتبعية عن تنفيذها، وهنا تثور ثائرة المشرفات والمعلمات.

داخل تلك المدرسة التبشيرية وجدتني أنا الطفلة، التي نشأت في أسرة مسلمة محافظة، محاصرة بطقوس دينية مختلفة، لم أرَها في حياتي، والأنكى أنني كنت مطالبة بممارستها، فالصلاة على طريقتهم تسبق وتلي أي شيء، قبل النوم نصلي، وفي الصباح نقرأ قليلًا من الإنجيل، وتشرف على ذلك إحدى المعلمات التي تنام معنا في نفس العنبر.

بعد ذلك، نرتب أسِرَّتنا وننزل إلى حيث المطعم لتناول الإفطار. شكَّل الذهاب إلى الحمَّام مشكلة بالنسبة إليَّ، لأن الطريق إليه كان من خلال سلم خشبي متهالك ومنصوب بزاوية حادة تجعل المرء يخشى السقوط في أثناء صعوده، وهو ما

جعلني أقاطع الذهاب إلى الحمَّام ليلًا على الرغم من حاجتي الماسة إلى ذلك في ليالي الشتاء الباردة والموحشة، مخافة السقوط من فوق الدرج.

كانت المدرسة تتبع نظامًا صارمًا، قبل الأكل لا بد من الصلاة، وعندما نفرغ من تناول الطعام لا بد أن نشكر الرب بالصلاة، إلى أن ينتهي اليوم والتلاميذ الخارجيون يعودون إلى بيوتهم، فيما مَن يقيم في المدرسة ينخرط في عمل الواجبات المدرسية والصلاة إلى أن يحين موعد النوم.

كنت أذهب مع بقية زميلاتي إلى مدرسة الأحد، أسبوعيًّا كانوا يجرون لنا اختبارات في القصص الدينية المسيحية وسير القديسين وحياة المسيح التي تُدرَّس لنا. كنت أنجح بتفوق في تلك الاختبارات. أنا على يقين أن أبي المسلم المتدين لو كان يعلم ما أعيشه في تلك المدرسة ما تركني ساعة واحدة فيها، ولم يكن ليسامح نفسه على تركه لي في لبنان.

تعرضت لأشياء لم أسمع عنها أو أشاهدها من قبل، كنت على حداثة سني أتساءل في داخلي: ما هذه الصلاة؟ أبي لا يصلي هكذا، ثم إنهم يصلون من دون وضوء، هنا بالضبط بدأت أتلمس بالفطرة ومن دون أن أعي الأمور بعمق الكبار أن لديَّ هوية دينية مغايرة.

في بعض عطلات نهاية الأسبوع كان آل صعب يحضرون لاصطحابي لقضاء العطلة معهم في بيتهم بمنطقة الشويفات. كنت ألعب مع زهير وأكرم ومي ولينا الصغيرة، وكنت أحظى بدعم ورعاية السيدة أم زهير. بخلاف هذه الأسرة التي احتضنتني وتوطدت علاقتنا بها مع الأيام لم أنخرط في المجتمع اللبناني، كنت ما زلت طفلة صغيرة.

لكن الطريف أننا استعرنا اسمَي بنتَي صعب (مي ولينا) بإطلاقهما على بنتَي أختي، ومن هنا تفرنجت العائلة في أسماء الأحفاد، فبدلًا من الأسماء القديمة مثل: منيرة وخديجة ولطيفة صار لدينا مي ولينا (وإن كان الأول عربيًّا قديمًا، لكنه غير دارج في جدة)، وهذا تأثير مهم للسفر والاختلاط بثقافات أخرى.

عشت وحيدة في تلك المدرسة، لم تكن لديَّ صديقات، عززت من عزلتي

المعاملة القاسية التي كنت أتلقاها على أيدي المعلمات. أتذكر أنهن في مرة عاقبنني على خطأ ارتكبته بأن أوقفنني على قدم واحدة، وكان الجو زمهريرًا، وانهمر المطر عليَّ، لم أكن أرتدي إلا مريلة خفيفة. لم يرحمنني من العقاب في ذلك الطقس السيئ، كم كرهت المدرسة!

كنت أشعر على الدوام بعدم تقبُّل المعلمات لي، أعترف أنني كنت شقية، لكنهن لم يحترمن اختلافي عنهن، ربما كنت في أعينهن بدوية همجية، انطلاقًا من نظرة استعلائية نمطية كنت أشعر بها على الدوام من جانبهن.

في أحد الأيام جاءتني معلمة الرسم، الذي لم أكن أحبه. قالت بنبرة آمرة وفيها شيء من التنمر والعنصرية: «لازم ترسمي، ولَّا بدِّك تكوني همجية مثل أمك؟».

لم أفهم معنى كلمة همجية، ولكن بالحس أدركت أنها إهانة لأمي، فلم أدرِ بنفسي إلا وأنا أصعد فوق كراسي معمل الرسم وأصفعها بالكف على وجهها. انفجرت وأخرجت من داخلي كل المعاناة التي عشتها في تلك المدرسة التي نفرتني منها وكادت تنفرني من التعليم كله، صفعتها ولم تهمني العواقب والمآلات. وكانت هذه بدايات لمقاومتي لما تصورته محاولات لقهري.

تركت المدرسة بعد ذلك، خصوصًا بعد إصابتي بمرض في الصدر، وبعد أن صدر قرار في السعودية بأن البنات السعوديات لا يدرسن إلا في البلاد التي تقيم أسرهن فيها. سافرت لاستكمال دراستي في مصر بعد عامين قضيتهما في «British Lebanese Training College»، على مرارة تجربتي فيها فإنها طبعت بصمتها على حياتي اللاحقة قاطبة، والأهم من هذا أرى فيها أساس شعوري بالنقص بالنسبة إلى آخرين تعرضوا وتقبلوا حضارة الآخر كما سأشرح فيما بعد. وفي الوقت نفسه كنت أدرك أنني أزداد شدة وقوة في مواجهة مَن يحاول كسري. جعلتني أخشى الغرباء إلى أن أطمئن إليهم، وتعرُّفي على التعاليم المسيحية جعلني أكثر انفتاحًا على أتباعها.

* * *

كان يسود الاعتقاد لدى عامة الناس بأن تعليم الفتاة في المملكة يُعتبر من

المحرمات، ودعوة إلى الانحلال والفجور وإفساد الأخلاق وفتح باب للفساد والرذيلة، وعلى الرغم من ذلك فكان هنالك تعليم متاح للبنات عبر الكتاتيب والمدارس الأهلية للأقلية أو عبر السفر خارجًا للتعلم كما في حالتي.

سبق التعليم الأهلي للبنات في المملكة التعليم الحكومي بنحو ٥ أعوام عندما أنشأت الأميرة عفت الثنيان زوجة الملك فيصل بن عبد العزيز مدرسة دار الحنان في جدة سنة ١٩٥٥، واستطاعت أن تستقطب الأهالي وتقنعهم بأهمية تعليم البنات، وقدمت «دار الحنان» تعليمًا متطورًا في وقتها، لأن الأميرة عفت أحضرت معلمات مؤهلات من بعض الدول العربية. وتقول بعض الكتب التي أرخت لتعليم البنات في المملكة إن مدرسة النجاح الأهلية في جدة سبقت «دار الحنان» بسنة.

كانت هناك بعض الأسر السعودية التي قد انتهجت نهج والدي معي بإرسال بناتها للتعليم بالخارج، وصرن نجمات في مجالات تخصصاتهن. أذكر منهن الدكتورة سميرة ابنة إبراهيم مصطفى إسلام، وكانت أول سعودية تحصل على درجة الأستاذية في مجال علم الأدوية، وكان ذلك في سنة ١٩٨٣، والدكتورة ثريا أحمد عبيد، التي شغلت منصب وكيل الأمين العام للأمم المتحدة والمديرة التنفيذية لصندوق الأمم المتحدة للسكان، كأول سعودية وعربية تتبوأ منصبًا مهمًّا وبارزًا في المنظمة الدولية، وكذلك الدكتورة ابتسام البسام، وهي أول رئيسة سعودية لقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية في جدة، وأول موظفة من مواطني دول مجلس التعاون الخليجي بمنظمة اليونسكو.

إن عدم وجود مدارس رسمية لتعليم البنات في السعودية خلال تلك الفترة، دفع بعض المثقفين السعوديين إلى تأسيس وإنشاء مدارس تلبي رغبات وحاجات أبناء وبنات المملكة في مصر، فكان أن أنشأ السيد ولي الدين أسعد - أحد أعلام المربين في السعودية والذي كان لفترة مسؤولًا عن بعثات الطلاب إلى الخارج - مدارس منيل الروضة الخاصة في سنة ١٩٥٢، تضمنت قسمًا داخليًّا بمراحلها الأربع: الحضانة والابتدائية والمتوسطة والثانوية. تقول ابنته الدكتورة

ثريا ولي الدين أسعد في كتابها «تاريخ باقٍ وأثر ممتد» عن الهدف من هذه المدرسة كما قصده والدها:

«كان الهدف هو إيجاد مدرسة تربوية تعليمية، تُعنى بالآداب الإسلامية والمحافظة على الأخلاق الفاضلة، واحتضان أبناء الوطن من الأُسر السعودية في مصر، التي نزحت إليها وتوافدت عليها في الخمسينيات، إما لظروف العمل أو لتعليم أبنائها».

على نفس النهج جرى إنشاء الكلية السعودية في بيروت بأقسامها: الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وسكنها الداخلي، والتي أنشأها الأستاذ الرائد عبد الله الملحوق في الفترة نفسها التي أنشأ فيها السيد ولي الدين أسعد مدارسه في القاهرة.

في تلك الأثناء كانت الأمور تتطور بسرعة في السعودية لجهة تعليم البنات، إذ أصدر الملك سعود بن عبد العزيز في ٢٤ أكتوبر ١٩٥٩، أمرًا ملكيًّا بإنشاء مدارس لتعليم البنات بالمملكة، على النحو الآتي:

«الحمد لله وحده، وبعد: فلقد صحت عزيمتنا على تنفيذ رغبة علماء الدين الحنيف في المملكة في فتح مدارس لتعليم البنات العلوم الدينية من قرآن وعقائد وفقه، وغير ذلك من العلوم التي تتماشى مع عقائدنا الدينية، كإدارة المنزل وتربية الأولاد وتأديبهم، مما لا يخشى منه عاجلًا أو آجلًا أي تغيير على معتقداتنا، لتكون هذه المدارس في منأى عن كل شبهة من المؤثرات التي تؤثر على النشء في أخلاقهم وصحة عقيدتهم وتقاليدهم، وقد أمرنا بتشكيل هيئة من كبار العلماء الذين يتحلون بالغيرة على الدين، لتشرف على نشء المسلمين في تنظيم هذه المدارس، ووضع برامجها بمراقبة حسن سيرها فيما أنشئت له، وتكون هذه الهيئة مرتبطة بوالدهم حضرة صاحب السماحة المفتي الأكبر الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، على أن تختار المدرسات من أهل المملكة

أو غيرهم، اللواتي يتحقق فيهن حسن العقيدة والإيمان، ويدخل إلى هذه المدارس ما قد سبق فتحه من مدارس للبنات في عموم المملكة، وتكون جميعًا مرتبطة في التوجيه والتنظيم بهذه اللجنة تحت إشراف سماحته، مع العلم أن هذا التشكيل يتقدم الوقت الكافي بتهيئة وسائل التأسيس، ونأمل أن يكون ذلك في وقت قريب. والله الموفق، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وعلى الرغم من هذا البيان الملكي الذي أكد دور الدين والعلماء في هذا النمط التغييري وراعى بنية المجتمع المحافظ، فإن التوجس والترقب من المجتمع المحافظ بقيا قائمين إلى حدٍّ بعيد.

وفي يوليو ١٩٦٠ تأسست الرئاسة العامة لتعليم البنات، واعتمدت ميزانية خاصة بها، وبدأ التعليم رسميًّا في المدارس الحكومية في السنة نفسها، وهكذا أتيح للإناث حق التعليم بعد اعتماده رسميًّا من الحكومة.

أدى السماح بتعليم البنات في مدارس رسمية إلى خروج مظاهرات من قِبل بعض المتشددين. ففي عام ١٩٦٣ عندما افتُتحت مدرسة للبنات في بريدة أرسل الملك فيصل (الذي كان وليًّا للعهد وقتها) جنودًا للسيطرة على المظاهرات المناهضة لفتح مثل تلك المدرسة.

ويذكر الدكتور عبد الله الوشمي في كتابه «فتنة القول بتعليم البنات» أن معارضة شديدة لفتح مدارس لتعليم البنات كانت في نجد، وبالأخص في القصيم والزلفي، وأن وفدًا من هذه المناطق ضم قرابة ٨٠٠ شخص سافروا إلى الرياض لمقابلة الملك أو ولي عهده، للمطالبة بعدم فتح مدارس للبنات في بريدة، وقد تأجل بالفعل فتح المدرسة إلى العام التالي.

أما في الزلفي فقد ضربوا مندوب الرئاسة العامة لتعليم البنات، الذي تقدم بعد صلاة الجمعة يقرأ على المصلين فتوى الشيخ محمد بن إبراهيم المفتي العام والمشرف على تعليم البنات، فما كان من البعض إلا أن ضربوه بالحجارة فلم يتوقف، فتقدمت مجموعة منهم فنزعت الورقة من يده ودفعته،

فما كان من الجنود إلا أن قبضوا على تلك المجموعة ونقلوها إلى الرياض، حيث سُجنت في سجن الملز، ثم أطلقوا سراحها بعد تعهدها بعدم التعرض للمدرسة أو العاملين فيها.

بينما أهل مدينة عنيزة أرسلوا وفدًا إلى الملك فيصل يطالبونه بفتح مدرسة للبنات في المدينة، وكان ذلك من دواعي فخر أهل عنيزة - بحسب ما قالوه لي في أثناء إجراء دراستي هناك التي تحمل عنوان «عنيزة: التنمية والتغيير في مدينة نجدية عربية» إن حافلات كانت تخرج يوميًّا من المدينة حاملة فتيات إلى مدرسة تبعد عن المدينة، إلى أن جرى افتتاح عدد من مدارس البنات فيها.

في نهاية المطاف قبِل الأصوليون تعليم البنات ولكن بضوابط وقيود معينة، بحيث يجب أن تكون المدارس محاطة بجدران عالية، وستائر حاجبة خلف مدخل كل باب، وأن يوضع شخص أو شخصان بعمر يتراوح بين ٥٠ و٦٠ عامًا للإشراف على هوية مَن يدخل المدرسة، وبشكل عام لحراسة البنات اللاتي في المدرسة حتى مجيء آبائهن أو إخوتهن.

وهكذا، عُزل تعليم البنات عن التعليم العام، وحوصرت مدارسهن بأسوار عالية تحقق عزلهن عن المجتمع، وقوقعتهن خلف الأبواب. وقد حدث أن وقع حريق في إحدى المدارس الكائنة في شوارع ضيقة، ولم تتمكن عربات الإطفاء من الوصول إليها إلا بعد فترة طويلة، مما أدى إلى زيادة الإصابات.

فكريًّا سُلِّمت أمانة هذا التعليم إلى رجال الدين، وكثيرًا ما كانت نظرتهم محصورة في السلف ومعادية للتغيير، وانحصرت اهتماماتهم فيما يخص تعليم البنات بإدارة المنزل وتربية الأولاد وحمايتهم من كل شبهة قد تؤثر على صحة عقيدتهم وتقاليدهم.

* * *

كانت القاهرة وجهتي الأولى بعد مغادرة بيروت. قرر أبي أن أستكمل دراستي في العاصمة المصرية، وأن أعيش مع أختي خديجة وزوجها خالد التركي، الذي كان يعمل في السفارة السعودية بالقاهرة. كانا يقيمان في بناية جميلة في شارع

أبو الفدا بالزمالك، وكانت تعيش معهما والدة خالد وأخته، وعشت معهم أجواء عائلية جميلة وحميمية، خففت وطأة ما عشته في مدرسة لبنان.

في البناية نفسها التي تسكن فيها أختي وزوجها كانت هناك أسرة سعودية أخرى من بيت زينل، كانت السيدة عائشة زينل، صديقة لأختي بحكم الجيرة، وبحكم أنهما «بلديات» من جدة. وفور عودتي من بيروت طُرحت مسألة المدرسة التي يجب أن يلحقوني بها. اقترحت السيدة عائشة إلحاقي بمدرسة مانور هاوس سكول الواقعة في الزمالك، وليست بعيدة عن بيتنا. وكانت تلك المدرسة رائدة في مجال التعليم منذ أربعينيات القرن الماضي، ثم تغير اسمها في سنة ١٩٥٦ إلى مدرسة بورسعيد.

قررت أختي وزوجها بعد فترة بسيطة إلحاقي بكلية البنات الإنجليزية في الإسكندرية، وهي مدرسة داخلية، موازية لمدرسة فيكتوريا الشهيرة الخاصة بالبنين. وفي الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية كنت جد متخوفة من تكرار تجربتي في مدرسة لبنان، خصوصًا أنني مقبلة على مدرسة داخلية مثلها، لكن فور أن وصلت تبددت كل مخاوفي، والسبب الرئيسي في ذلك أنني وجدت من بين تلميذاتها بنات من المملكة العربية السعودية.

بل وجدت العالم العربي متمثلًا في كلية البنات الإنجليزية في الإسكندرية، حيث ضمت تلميذات ينتمين إلى عدد كبير من أقطاره. كان الكثير من أثرياء العرب وساستهم الكبار يرسلون بناتهم للتعليم في تلك المدرسة، كما يرسلون أولادهم إلى مدرسة فيكتوريا الموجودة كذلك في الإسكندرية. كانت معي بنات من بيت الغانم في الكويت، وأخريات بنات النقيب من العراق، وبنات من البحرين. وقبل التحاقي بها كانت تضم الشقيقتين عليا ومنى الصلح ابنتَي الزعيم اللبناني الراحل رياض الصلح.

كما كانت لدينا زميلات أوروبيات من اليونان وإيطاليا وغيرهما، باعتبار أن الإسكندرية في تلك الفترة كانت تُعَد فسيفساء عرقية لكثرة وتعدد وتنوع الجاليات الأجنبية المقيمة فيها، ولعل أشهر الطالبات الأوروبيات الملكة صوفيا ملكة إسبانيا، التي زارت المدرسة في ١٩٨٩ و٢٠٠٢.

وأنا أتسلم جائزة من كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم في أثناء دراستي بمدرسة الإسكندرية أواخر الخمسينيات

كانت المدرسة تضم ملاعب رياضية متعددة، ومسبحًا بالحجم الكامل مع غرف تغيير الملابس، ومختبرات علوم للفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، هذا الأخير كان به هيكل عظمي بشري كنت أخاف منه، وكان ذلك موضع تندر بعض صديقاتي عليَّ. تضم المدرسة كذلك غرفًا للموسيقى، ومشغلًا، وغرفة طعام أنيقة، ومكتبة رائعة ومسرحًا، بخلاف الفصول التعليمية ومباني سكن التلميذات. وكان نظام الإقامة الداخلية بالمدرسة يقضي بإقامة أربع طالبات في غرفة واحدة. في أول التحاقي سكنت مع نوال العطار، وهي سعودية، وكان والدها يعمل في البنك الهولندي بجدة وصديقًا لوالدي، وسعاد الغانم، بجانب طالبة يونانية اسمها ألكسيا.

كان مَن يرعى الفتيات السعوديات في هذه المدرسة القنصل السعودي طلعت ناظر، وكان صديقًا لوالدي الذي حضر إلى الإسكندرية ليزورني، وكانت الزيارة ممنوعة، فتدخل القنصل وحصل لي على إذن بالخروج مع والدي يوم الجمعة.

كان المعتاد أن أي طالبة جديدة تدبر لها رفيقاتها خدعة أو مقلبًا بالتعبير الدارج. وهو ما جرى معي في ليلة يوم الجمعة التي سأخرج فيها مع أبي. قالت لي نوال: «ثريا تعالي نستمع إلى الراديو في الحمَّام».

ذهبت، ولم أدرك أن ثلاثتهن قد ملأن البانيو بالمياه ويردن بالحيلة إيقاعي فيه، وهو ما حدث جزئيًّا، بمجرد سماعهن صوت المشرفة اليونانية أفروديتي قادمة من بعيد فررن إلى أسِرَّتهن، وشددن الأغطية على أجسادهن، جريت معهن وتدثرت بالغطاء فوق سريري، لكن الطرقة كانت مبتلة. قالت مس أفروديتي لسعاد:

- من أين جاءت هذه المياه يا سعاد؟

ردت عليها بالقول:

- مش الدنيا مطرت النهارده، إنتِ ما تعرفيش؟

وصار تحقيق مع كل مَن في الغرفة بمن فيهن أنا.

في الصباح حضر والدي لاصطحابي للنزهة في الإسكندرية، فاستغلت مديرة المدرسة المشحونة ضدي قدوم الوالد، وأجرت معه مقابلة كلها شكوى مني. لم يكن والدي يجيد الإنجليزية فأتت بنوال لتترجم له. وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان. المديرة تقول له فيما معناه: «نحن فُجعنا في ابنتك».

وتترجمها نوال: «إحنا مبسوطين جدًّا من ثريا وهي ممتازة».

طلب أبي أن يصطحبني إلى خارج المدرسة وفق اتفاق طلعت ناظر معها، فقالت المديرة: «لن نسمح لها بالخروج، لأن ابنتك شقية، ولم تتصرف على النحو الصحيح».

فترجمتها نوال: «نحن نهنئك على حسن أخلاق ابنتك، لكن لن نسمح لها بالخروج، لأنها مرتبطة بواجبات دراسية هذه الأيام».

كان حرماني من الخروج مع أبي قاسيًا على نفسي. كما أن شعوري بأنني

أكذب على أبي وأستغل عدم إتقانه الإنجليزية لخداعه كان موحشًا. كانت المرة الأولى التي أراه فيها في موقف ضعف، شعرت بحسرة لعدم تلقيه تعليمًا متقدمًا، على الرغم من اعترافي بذكائه ونجاحه في عمله.

كانت حياتي في تلك المدرسة من أثرى وأمتع التجارب في حياتي، سواء على الصعيد الإنساني أو الدراسي. وكانت المدرسة تقدِّم تعليمًا جيدًا، لكن وجودي في القسم الداخلي أثَّر بالسلب على تحصيلي. كثيرًا ما كنا نخرج للتنزه من دون إذن المدرسة، فقد نجحنا في شراء رضا عم عبده، المسؤول عن بوابة الخروج، كنا نعطيه نقودًا مقابل السماح لنا بالخروج والدخول بعد انتهاء اليوم الدراسي، كما نجحنا في منع وصول الخطابات التي ترسلها المدرسة إلى آبائنا وتحمل شكاوى منا بنفس طريقة تعاملنا مع عم عبده.

وعلى الرغم من انخراطي في بعض أعمال الشقاوة في بداية التحاقي بالمدرسة، فإنه كان بالإمكان احتسابي على معسكر الشاطرين. وهو ما أهلني لاختصار سنوات الابتدائية، والالتحاق بالإعدادية. بعدها تراجع مستوى تحصيلي للغاية لعدم اهتمامي بالمذاكرة.

* * *

في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ قرر جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس، بسبب رفض البنك الدولي تمويل مشروع السد العالي، وكان قرار التأميم أحد الأسباب القوية للعدوان الثلاثي على مصر، حيث شنت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل حربًا ضد مصر بدأت في ٢٩ أكتوبر من العام نفسه. وبسبب الحرب تعطلت الدراسة في المدرسة، ورجعت إلى القاهرة بالقطار. استقبلني في محطة مصر محمد السفرجي، الذي استمر في العمل معنا طيلة ٤٠ سنة، وصار جزءًا من العائلة، وكانت أمي تثق به وتحترمه، لأجد أن أبي حضر إلى مصر، واستأجر لنا شقة جميلة تطل على النيل وعلى نادي الجزيرة، ولخوفه علينا من أن نتعرض للقصف قرر أن ننتقل من الزمالك إلى جاردن سيتي. قدَّر أن بريطانيا لن تقصف ذلك الحي لوجود سفارتها فيه. يبدو أن ذلك التقدير

وصل إلى الكثير من البيوت السعودية في القاهرة التي اتخذت من بيتنا ملاذًا لها في تلك الفترة العصيبة.

خلال فترة الحرب كان أبي يريد الاستماع إلى بعض الإذاعات الناطقة بالإنجليزية لمعرفة الأخبار. كان يقول: «هاتوا لي ثريا تترجم لي الأخبار». لم تكن إنجليزيتي تكفي لترجمة أخبار بها معانٍ سياسية صعبة، لكنني كنت أحاول بقدر استطاعتي أن أعطيه خلاصة ما فهمته.

بعد انتهاء القتال بقليل فتحت المدرسة أبوابها مرة أخرى، لكنها لم تكن المدرسة التي نعرف، حيث أقالت الحكومة المصرية بعد الحرب هيئة التدريس البريطانية، وأطلقوا عليها اسم «مدرسة النصر للبنات». وأحضرت الحكومة مدرسات مصريات، أو أجنبيات متزوجات من مصريين، وصارت المديرة سيدة تُدعى «مسز راشد»، بقيت فترة، وحلت محلها سيدة إنجليزية متزوجة من مصري اسمها «مسز خلف الله». والحقيقة أننا استغللنا ذلك التغيير أفضل استغلال، فتحولت حياة الانضباط النسبي التي كنا نعيشها في كنف الإنجليز إلى فوضى عارمة ضربت المدرسة.

كانت الإسكندرية في تلك الفترة تضم جاليات وثقافات ولغات كثيرة مختلفة، أضفت على العيش فيها بهجة خاصة، فضلًا عن موقعها الساحر على البحر الأبيض المتوسط. هواؤها كان منعشًا بالمقارنة مع غبار القاهرة، والبحر لم يكن بعيدًا عن النظر في أي موقع. كانت تضم أماكن أنيقة مثل فندق سيسل وبسترودس ومطعم مونسنيور. والذين لم يكن بوسعهم تحمل كلفة هذه الأماكن كانوا يستأجرون الكبائن على شاطئ ستانلي وسيدي بشر، وكانوا ينطلقون في السباق أو يلعبون الجولف، وإذا كانوا من أصحاب المال والنفوذ فهم يستمتعون من دون غيرهم بالترف الذي يشع من نادي اليخت الملكي في مدينة الثغر.

الإسكندرية في تلك الأثناء استطاعت أن تلبي مطالب الذين افتقروا إلى المال أو الجاه على السواء. على الكورنيش كنت ترى أكشاكًا صغيرة بغير حصر تذهب إليها عائلات بأكملها لكي تشرب المرطبات. وفي كازينو سان ستيفانو

على الشاطئ كانت أجرة دخول واحدة تتيح للزبون أن يشاهد السينما وأن يرتاد المقهى والكازينو، فضلًا عن نزهة على الأقدام في الممشى، وكان بوسع المرء أن يستقل الترام من الشاطبي، حيث توجد المدرسة، إلى «أبو قير» ليأكل السمك الطازج في مطاعم خشبية صغيرة تقع على الشاطئ.

كنا نهرب من المدرسة، وفي بعض الأحيان كنا نلتقي شبابًا من مدرسة فيكتوريا، نمشي معًا على شاطئ المنتزه، ونذهب معًا إلى السينما ونأكل بعض الوجبات الخفيفة. كانت مسألة مقابلة شبان مربكة لي في البداية، لكن مع الوقت رأيت أن الأمر ما دام يتم في إطار «شلة»، أي مجموعة من الأولاد والبنات فلا بأس، خاصة بعد أن اكتشفت أن هؤلاء الأولاد ليسوا غيلانًا سيفترسوننا، بل بشر عاديون مثلنا.

كنت كذلك أهرب من المدرسة للذهاب إلى السينما مع بعض صديقاتي، أو نذهب إلى القاهرة، كما حدث في تلك المرة التي استضاف فيها استاد القاهرة مباراة الزمالك وريال مدريد التي أقيمت يوم ١٠ مارس ١٩٦١. في تلك المرة حضر ابن عم إحدى صديقاتي السعوديات ليأخذها بسيارته من الإسكندرية إلى القاهرة لمشاهدة المباراة، فذهبت معهما أنا وطالبة سعودية أخرى.

كان فريق ريال مدريد يضم بعضًا من أساطير كرة القدم في ذلك الوقت مثل: فيرينك بوشكاش، وألفريدو دي ستيفانو، وخوسيه سانتاماريا.

عند وصولنا إلى الاستاد فوجئنا بانتهاء المباراة، لأنها على عكس الشائع بدأت في الساعة الثانية عشرة ظهرًا. وفي عودتنا إلى الإسكندرية تعطلت بنا السيارة على الطريق الصحراوي، واضطررنا إلى استئجار حمارين لجرها، ما أدى إلى أن وصلنا إلى المدرسة في ساعة متأخرة، وانكشف أمرنا أمام الإدارة التي علمت بفعلتنا، وعاقبتنا بالحرمان من الخروج لمدة شهر.

من الموبقات التي كنا نرتكبها في مدرسة الإسكندرية التدخين. كان بالقرب من المدرسة معسكر قديم للإنجليز كنا نتدرب فيه على إقامة المعسكرات والرحلات ونشاط الكشافة، وكنا نذهب إلى هناك لندخن. أطلقنا على تلك البقعة اسمًا كوديًّا

هو «الهوسة العظيمة» (magnificent obsession). وتطور الأمر وصرنا ندخن داخل أسوار المدرسة بين الحصص. وأحيانًا كنا لا نستطيع الرجوع إلى الفصل بسبب رائحة التبغ التي تعلق بنا. ونتيجة كل تلك الشقاوة في سنوات الدراسة الأخيرة حصلت على مجموع لا يتجاوز ٦٠٪ في الثانوية العامة.

لم تكن الأمور كلها شقاوة في المدرسة، بل نظرًا إلى أنها كانت تضم مجتمعًا متعدد الأعراق والأجناس، فقد لعبت دورًا كبيرًا في انفتاحي على العالم. فيها تطورت لغتي الإنجليزية، ومارست هوايات ما كان لي أن أمارسها لو بقيت في جدة مثل التمثيل، حيث لعبت دور البطلة في مسرحية «الأيدي الناعمة»، للكاتب الكبير توفيق الحكيم.

داخل هذه المدرسة بدأت علاقتي تتوطد بالقراءة، بدعم من أخي أحمد، الذي كان يقدِّم لي عيون الأدب الإنجليزي. قرأت روائع العصر الفيكتوري، مثل أعمال تشارلز ديكنز. وكذلك أعمال وليم ثاكري وإيميلي برونتي. كما قرأت رواية أوستن الكلاسيكية «كبرياء وتحامل».

قرأت كذلك «ألف ليلة وليلة»، ولم أحبها، وارتبطت في ذهني بالخرافات والعفاريت. لكنني أحببت أعمال كُتَّاب مصريين مثل: يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، ويوسف إدريس، ويحيى حقي.

من الأمور الإيجابية التي تعلمناها في تلك المدرسة نمو الروح القومية العروبية داخلنا. ما زلت أذكر تلك الفرحة التي اجتاحت الطالبات المصريات والعربيات يوم الإعلان عن الوحدة بين مصر وسوريا، فيما عُرف باسم «الجمهورية العربية المتحدة» سنة ١٩٥٨، ومن هنا بدأ ارتباطي بعبد الناصر والقومية العربية، التي انحزت وما زلت أنحاز إليها حتى اليوم.

* * *

قضيت الكثير من حياتي في السفر، عشقته منذ نعومة أظافري، كان جزءًا من نصيبي في الحياة. ما زلت أذكر الانتظار الذي كان على أحر من الجمر قبل أول رحلة لي إلى أوروبا، كانت الوجهة إلى روما مع أختي خديجة وزوجها خالد التركي، الذي للتو كان قد جرى تعيينه في سفارة المملكة في إيطاليا.

من الإسكندرية ركبنا باخرة تُسمَّى «الأوزونيا»، تحركت بنا إلى ميناء نابولي، كان ذلك هو عهدي الأول بركوب البحر. عشت أيامًا قبلها وكلي شوق لرؤية القارة العجوز، أوروبا، التي كنا نسمع عنها في المدرسة. سبح خيالي في محاولة تصورها، خصوصًا مع ذلك السحر المنبعث من حكايات كل مَن زارها في تلك الأثناء من خمسينيات القرن الماضي.

قطع عليَّ ذلك الخيال أجواء لحظات الوداع بين المسافرين وذويهم فيما تستعد الباخرة لتوديع الإسكندرية، فهذا يحتضن حبيبته، وذاك يقبِّل يدَي والديه، وتلك تلمح في عينيها لوعة الفراق في أثناء تعلق أطفالها بأبيهم المسافر، فيما يحبس زوجها دموعه التي تنهمر بمجرد أن يعطيهم ظهره. إنه ذلك المشهد المتكرر من زفرات الشوق والحنين، المتوقع أن يخوضه المرء في بداية مشوار الغربة وفراق الأحباب.

دوى صفير الباخرة معلنًا تحركها، انقبض قلبي، كلما اندفعت إلى عرض البحر انقبض أكثر، مع كل ثانية تمر نبتعد عن الشاطئ، تتضاءل أجساد المودعين، لا أكاد أرى أذرعهم التي تلوح لمحبيهم المغادرين بمناديل بيضاء. بعد أن اتخذت الباخرة طريقها شاقة عباب البحر، اجتهد طاقمها في التخفيف عن المسافرين من عناء تلك الأيام التي سنعيش فيها بلا شطآن، كانوا في غاية اللطف، ساعدهم في ذلك تنوع وطيب ما كانوا يقدمونه من طعام وشراب في الوجبات الثلاث. كنا نتناول عشاءنا بمصاحبة فرقة تعزف الموسيقى الأجنبية مع حفل راقص.

وذات مرة بينما نتناول العشاء اكتشفت أن معنا على ذات الرحلة عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وزوجته الفرنسية السيدة سوزان. كانت سعادتي كبيرة جدًّا لرؤيته، فقد كان ملء السمع والبصر وقتها. ومن فرط مراقبتي له والناس يتحلقون حوله سواء على موائد الطعام أو على ظهر الباخرة وهو يحتسي قهوته كنت أقول لخديجة وخالد: «غير صحيح أن الدكتور طه ضرير، لقد شاهدته يأكل سمكًا بالشوكة من دون مساعدة من أحد». كنت منبهرة بوجوده معنا وكذلك بزوجته السيدة سوزان. وكانت رؤيته مادة مفضلة لي في الحكي عن تلك الرحلة لصديقاتي بعد عودتنا من أوروبا.

من اليسار إلى اليمين: أنا وأختي خديجة وزوجها خالد على متن الباخرة في رحلتنا الأولى إلى أوروبا

أنا وأختي خديجة على متن الباخرة في رحلتنا الأولى إلى أوروبا

من اليسار إلى اليمين: أختي خديجة وأخي أحمد وأنا في أوروبا خلال رحلتنا الأولى

في اليوم الرابع من توديعنا شاطئ الإسكندرية وصلنا إلى نابولي، ومنها أخذنا القطار إلى روما، وهنا بالضبط كان أول لقاء لي مع أوروبا. هالتني البنايات التي تسر الناظرين، فضلًا عن ذلك المرح الذي يبدو على وجوه الناس رجالًا ونساءً. كنا في يوليو وأوروبا في الصيف تنزع ثيابها، تكشف عن جمالها الأخاذ الذي تداريه السحب، ويعكر صفوه انهمار المطر، ويحجبه الضباب طيلة الشتاء.

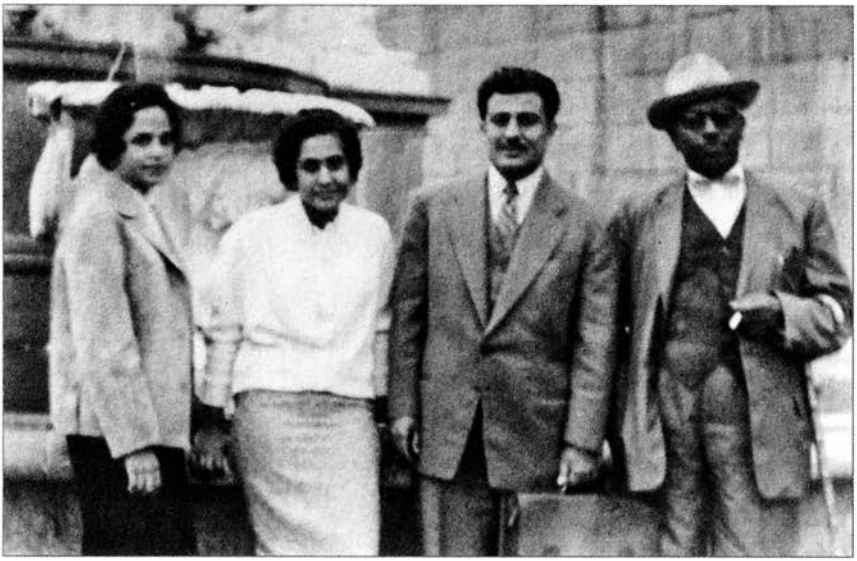

من اليسار إلى اليمين: أختي خديجة، وأنا، وخالد زوجها، ومترجمنا في البندقية

أختي خديجة وأنا في البندقية

من اليسار إلى اليمين: أنا وأختي خديجة وأخي أحمد في أوروبا

أختي خديجة، وزوجها خالد، وأنا، وأخي أحمد، بمقهى في أوروبا

أبي وأختي منيرة خلال رحلتنا إلى إنجلترا

طاب لي المقام في روما، وأحببت متاحفها وحدائقها، فروما تكاد تكون متحفًا مفتوحًا وحديقة غناء مترامية الأطراف، فينطق كل شارع وميدان فيها بآيات من الجمال والذوق الرفيع الذي خطف قلبي من أول نظرة. كنت محظوظة في ذلك الصيف، إذ قرر خالد أن نتحرك إلى فيينا، هالني في تلك المدينة الساحرة الكم الكبير للمتاحف بين جنباتها وروعة تصميم بناياتها وميادينها وحدائقها، إلى درجة أنني اعتبرت أن أسمهان كانت على حق عندما غنت «ليالي الأنس في فيينا». كانت فيينا في تلك الأثناء مدينة تحاول استعادة شبابها بعد سنوات الحرب العالمية الثانية التي كانت ماثلة في الأذهان. كنت تتلمس الحياد الذي اتخذته النمسا سياسة لها ونصت عليه في دستورها، في أعقاب تلك الحرب العظمى المدمرة، من الأريحية البادية على وجوه الناس والنابعة من أنهم قرروا ألا يكونوا طرفًا في حرب كونية مدمرة أخرى تؤدي إلى احتلال بلادهم، كما جرى عقب هزيمتهم في الحرب التي كانوا فيها إلى

جانب ألمانيا. كان الناس يعبرون بقوة عن حبهم للحياة، يخرجون دومًا إلى الحدائق، يتناولون الحلوى والمشروبات على وقع صدح الموسيقى. الكبار والصغار يمرحون ويلعبون كأنهم للتو قد بُعثوا للحياة من جديد وفرغوا من الحساب.

انتهى بنا أغسطس من ذلك العام في سويسرا التي لا تقل جمالًا عن إيطاليا والنمسا، وطيلة تنقلنا بين تلك البلاد كنت أنا مترجمة العائلة بحكم إجادتي للإنجليزية، لغة التواصل بين الناطقين باللغات الأخرى المختلفة. ومن لطائف تلك الرحلة أن خالد كان كلما طلب لنا - خديجة وأنا - طعامًا نعبر عن عدم إعجابنا به بعد أن نتذوقه، إلى درجة أننا ضايقناه بصنيعنا هذا.

كان من الصعب علينا تجربة أصناف ومذاقات جديدة، خصوصًا في النمسا وسويسرا، أما إيطاليا فهي دولة متوسطية وطعامها كثير الشبه بطعام الإسكندرية، وطعامنا في العالم العربي عمومًا. لم تكن أطباق الطعام العربية قد اجتاحت أوروبا مثل هذه الأيام، من خلال المهاجرين العرب الذين تضاعفت أعدادهم في السنوات الأخيرة، بعد أن دخلوا أوروبا لاجئين في غالب الأحيان.

كنت في تلك المرحلة الباكرة في حياتي أخشى الأوروبيين، لأنهم صارمون، خصوصًا في برن عاصمة سويسرا. كان الخوف أيضًا مبعثه الإحساس بالغربة في أوروبا، فأنا على الرغم من حداثة سني لم أحتَج إلى كثير من الوقت لأدرك أنني في مجتمع مغاير، وعلى الرغم من انفتاحي وحياتي في حواضر عربية مهمة مثل بيروت والقاهرة والإسكندرية، فإنني شعرت بالاغتراب في أوروبا، لذلك كانت روحي معلقة بأخي أحمد. كنت أمشي في ظله، إذا غاب عني أشعر بالضياع، إلى أن كبرت واعتدت أوروبا وألفت سكانها.

صارت أوروبا بالنسبة إلى عائلتنا مثل بلدنا، أو مثل مصر ولبنان من كثرة أسفارنا إليها كل صيف، سواء إلى إيطاليا أو سويسرا بمدنها المختلفة، أو إنجلترا التي امتلك كلٌّ من أخواتي بيتًا فيها، فضلًا عن أحمد الذي درس في مانشستر.

قلت سابقًا إن ابن عمي عبد العزيز عبد الله التركي كان الساعد الأيمن لوزير النفط السعودي التاريخي زكي يماني، وأضيف إلى ذلك أن يماني كان أيضًا صديقًا حميمًا لخالد التركي زوج أختي خديجة، الذي عاش فترة كبيرة في إيطاليا في بداية حياته الدبلوماسية، واشترى بيتًا في سردينيا، وكنت أذهب مع أختي وأسرتها التي كانت تقيم في بيت ملحق ببيت يماني في هذه الجزيرة الإيطالية، لنقضي أوقاتًا ممتعة من الصيف فيها.

كان زكي يماني مثقفًا من طراز فريد، درس القانون بمصر ويعشق الأدب. كما كان في الوقت نفسه يحب الطرب، فيأخذ معه مغنيًا شرقيًّا في أثناء إقامته في سردينيا، وكنا نسعد بالحفلات التي يقيمها كل ليلة تقريبًا في حديقة منزله.

من اليسار إلى اليمين: مها التركي، ومي التركي، وخالد التركي، وناصر التركي، وخديجة التركي، وأنا، بسردينيا في منتصف التسعينيات

أختي خديجة في الوسط، وابنتها مها، وابنها ناصر، في سردينيا

ناصر ابن أختي وخديجة أختي وأنا ومها بنت أختي، في سردينيا

* * *

في ٣١ يوليو ١٩٥٩ أجرى الملك سعود بن عبد العزيز زيارة استشفاء في ألمانيا، وتحديدًا في بلدة باد ناوهايم، التي كانت تُعَد مركزًا طبيًّا عالميًّا، وزارها العديد من المشاهير أمثال ملك الروك الراحل إلفيس بريسلي باعتبارها من أبرز البقاع الاستشفائية. دامت زيارة العاهل السعودي أربعة أسابيع، وكان بصحبته وفد مكون من ٨٠ فردًا. كانت تلك الزيارة حديث الصحافة الألمانية في ذلك الوقت، وازدحمت الشوارع عند وصول الملك سعود.

في أعقاب تلك الزيارة الملكية لألمانيا ووسط الزخم الذي أحدثته، تحركنا من سويسرا قاصدين مدينة دوسلدورف الألمانية التي يقسمها نهر الراين إلى شطرين، كنت بصحبة أمي وأبي، على أن يلحق بنا أخي أحمد. كان الغرض من الزيارة هو أنني سأجري عملية جراحية في الأذن. حجزت لنا سفارتنا في ألمانيا في فندق الإنتركونتيننتال والمنتجع الصحي الموجود في هذه المدينة.

وفي رحلة ثانية إلى دوسلدورف لم تكن لدى آمال تأشيرة دخول إلى ألمانيا، فاستخدمت جواز سفر وتأشيرة الجارية ليلى، التي كانت معنا في سويسرا، لأنه لم تكن هناك صور توضع في جوازات السفر خلال تلك الفترة. بعد يومين من إقامتنا في هذه المدينة إذ بنا نسمع جلبة في الفندق، نظر أبي من الشرفة، وإذ به يقول إنه الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، محاط بحاشيته والنزلاء، أصر والدي على أن ينزل للسلام عليه، وقد فعل ذلك بالفعل.

أذكر خلال إقامتنا في دوسلدورف أننا - آمال وأنا - خرجنا للتنزه في الحديقة الموجودة فيها. مرت إلى جوارنا سيارة مودرن يقودها شاب، وقف بجوارنا وقال:

- هل ترغبان في أن أوصلكما إلى مكان بعينه؟

قلت:

- فسِّحنا في هذه الحديقة بالسيارة.

الحق أنه كان شابًّا لطيفًا ومهذبًا وجال بنا بسيارته في تلك الحديقة الغناء. كنت خلال تلك الفترة اعتدت الأوروبيين، وصرت أفهم ثقافتهم، وقلَّ منسوب خوفي منهم ومن صرامتهم، التي لا تنقص من ذوقهم شيئًا.

* * *

نُقل عبد الرحمن إلى سفارة المملكة في العاصمة السويسرية برن، ومن هنا صارت سويسرا مقصدًا دائمًا للعائلة في الصيف. كنت أسافر معهم كل عام. خلال تلك الفترة تعرَّفنا على مدرسة بالقرب من جنيف تقيم معسكرات صيفية لإكساب المشتركين فيها مهارات اللغة الفرنسية، تُسمَّى «Le Grand Verger».

اقترح عبد الرحمن فكرة إلحاقي بهذه المدرسة خلال عطلة الصيف كي أتقن فيها اللغة الفرنسية، حيث كانت السفارة السعودية ترشح هذه المدرسة للكثير من الأسر السعودية المقيمة في جنيف أو تتردد عليها صيفًا لإدخال بناتهم فيها، وقد تلقت الأميرة فريال ابنة الملك فاروق تعليمها في تلك المدرسة.

اشترطت عليهم أن أسافر وحدي إلى المدرسة الواقعة على أطراف جنيف، وأعود منها بمفردي إلى برن حيث العائلة، كي لا أعتمد على أحد في توصيلي إلى المدرسة.

لا أستطيع أن أصف جمال موقع هذه المدرسة التي لا تزال موجودة إلى الآن، وتقدِّم برامج متنوعة للطالبات في الصيف. وكانت المدرسة بالفعل مجتمعًا دوليًّا متعدد الجنسيات، فيها طالبات من الولايات المتحدة، ومن يوغوسلافيا، ومن جنسيات أوروبية وآسيوية أخرى، ممن يعمل آباؤهن في منظمات الأمم المتحدة وغيرها، ثم دخلتها في مرحلة لاحقة بعض البنات السعوديات. كانت الدراسة تبدأ من التاسعة صباحًا إلى الواحدة ظهرًا، ثم نحصل على راحة لتناول الغداء، بعدها نبدأ نشاطنا في الترفيه من خلال رحلات منتظمة إلى نقاط منتقاة بعناية في جبال الألب، والاستمتاع باللهو على العشب الأخضر، وفي أحضان الغابات البديعة بحياتها البرية، التي تضفي على الأجواء روحًا من المغامرة المحسوبة المحببة إلى النفس.

تعلمت قليلًا من الفرنسية بالفعل في تلك المدرسة، وقليلًا من رياضة التنس، وتعلمت السباحة في بحيرة جنيف. كنا كذلك ندخن بشراهة في حجراتنا وفي رحلاتنا المتكررة، إلى درجة أنني بعد فترة معينة شعرت بأن الترف زاد على حده في تلك المدرسة، وأن الفائدة العلمية المرجوة منها قليلة جدًّا، مقارنة بحياة اللهو التي نعيشها.

بهرني في المدرسة البنات اليهوديات، كانت واحدة من بينهن تجمع تبرعات بصفة منتظمة من زميلاتنا اليهوديات وغيرهن. لم أكن مسيسة في تلك الفترة، لكنني سألتها:

- لمَن تجمعن هذه التبرعات؟

قالت:

- لليهود الفقراء.

لم أعلق، وإن أُعجبت بيني وبين نفسي بانتظام اليهوديات في الدفع. مع الوقت أثار ذلك حفيظتي، خصوصًا مع تغلغلهن بين زميلاتنا من معظم الجنسيات وغير اليهوديات.

كانت المديرة يهودية، استدعتني إلى مكتبها، وراحت تشرح لي الفرق بين اليهودية والصهيونية، وكيف أن الأخيرة مشروع سياسي، قد نختلف معه وعلى تقييمه، لكن لا علاقة له بالديانة اليهودية، وأن اليهود كانوا جزءًا من نسيج مجتمع شبه الجزيرة العربية الذي أنتمي إليه.

كانت مديرة المدرسة شديدة الصرامة، ولديها فكرة سيئة عن العرب أو شعور عنصري تجاههم، كنت أستشعره على الدوام. ذات مرة كنت أتزين ببروش به حبة لؤلؤ من النوع النفيس، طارت عينا المديرة على البروش. أمسكته بيدها، ثم قالت:

- هو أصلي أم تقليد؟

قلت:

- إنه أصلي، وهو من ضمن مجوهرات والدتي.

الحقيقة أنه كان تقليدًا، لكنني أردت أن أغيظ هذه المديرة المتعالية.

شعرت من وقتها بأنها بدأت تتعامل معي كأني للتو صرت من جنس البشر.

بعدها أخذتني إلى مكتبها، وراحت تسألني:

- ماذا يعمل والدك؟

قلت:

- نحن من جدة، ووالدي يشتغل تاجرًا.

قالت:

- وما الذي أتى بكِ إلى سويسرا؟

قلت:

- جئت مع أختي التي يعمل زوجها بسفارة المملكة في برن.

كنت أشعر بأنه لا يوجد تقبُّل لي في هذه المدرسة، خصوصًا من المديرة، ودومًا كنت أستشعر نظرتها الاستعلائية. لم أكن قادرة على فهم أسباب عدم قبولها لي. كنت صغيرة، كان بإمكانها استيعابي، لكنها كانت شديدة الفظاظة معي.

٥

شقاوة بنات في الجامعة الأمريكية

في صيف سنة ١٩٦١ أنهيت دراستي الثانوية في المدرسة بالإسكندرية. كانت الشقاوة قد بلغت منتهاها في السنة الأخيرة مع الزميلات، لذلك لم أحصل على مجموع كبير في الثانوية العامة، بعدها صرت أمام لحظة مفصلية في حياتي، بل أمام ما أعتبره أكبر وأصعب تحدٍّ واجهته على الإطلاق، وهو إقناع أبي بأن يسمح لي بدخول الجامعة. كان تصوره عن الحياة الجامعية بالنسبة إلى البنات يتمثل في الانفلات الأخلاقي، فقد كان لروايات مثل «أنا حرة» ومجمل أعمال إحسان عبد القدوس تأثير كبير على خلق تلك الصورة الذهنية عن الجامعة لدى الأوساط المحافظة في العالم العربي. كان أبي شديد التخوف من دخولي تلك العوالم التي رسمها «عبد القدوس» بقلمه وتحولت إلى أفلام، والتي تدعو إلى التحرر.

لم أترك شخصًا استشعرت بأن له تأثيرًا على أبي إلا وطلبت وساطته لإقناعه بإدخالي الجامعة. كان البديل بالنسبة إليَّ بشعًا، وهو العودة إلى المملكة، التي سيتبعها بلا شك الزواج، والانخراط في الحياة الاجتماعية التقليدية المرسومة للبنات في ذلك المجتمع المحافظ، وانتهاء حياتي الدراسية والعملية.

كان أخي أحمد يدرس في إنجلترا، فلم أستطع التشاور معه وطلب دعمه لي عند أبي، لكن موقف أحمد من استكمال تعليمي كان مبدئيًّا، على الدوام كان يقول لي: «التعليم حق فلا تتخلي عنه وأنا معكِ إلى آخر المشوار».

وفق تلك المعطيات لجأت إلى زوجَي أختيَّ، عبد الرحمن زوج منيرة وخالد زوج خديجة. بذل عبد الرحمن جهدًا مضنيًا في إقناعه حتى وافق أبي في نهاية المطاف، فكم أنا مدينة لعبد الرحمن! كنا في إجازة في سويسرا وساعدت أجواؤها على تليين دماغ أبي والموافقة أخيرًا على أن أدخل الجامعة الأمريكية بالقاهرة، بعد أن استغرق أمر إقناعه عامًا دراسيًّا بكامله ضاع عليَّ.

لا أستطيع أن أصف فرحتي في أثناء عودتي إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة الأمريكية، التي دخلتها بمعية سناء حسن، صديقتي من أيام المدرسة الثانوية بالإسكندرية، وكانت شديدة الذكاء، متمردة إلى حدٍّ بعيد، وكانت تشاركني نفس الغرفة في القسم الداخلي بالمدرسة. كانت سناء وقتها تلعب دور عُطيل في رائعة شكسبير، ولأجل ذلك تركت شعرها من دون غسل فترة طويلة حتى يصل إلى درجة التجعيد التي كان عليها شعر عطيل!

أخلدنا إلى النوم، وبعد فترة شعرت بيد تقترب من رقبتي رويدًا رويدًا، حتى كدت أختنق، وصرخت فيها:

- إنتِ بتعملي إيه؟

قالت:

- يوه بلاش دوشة، افتكرتك ديدمونة زوجة عطيل!

اختلط الحلم بالواقع واليوم بالأمس عندها.

* * *

سناء هذه حكاية كبيرة في حد ذاتها. في فترة مبكرة من حياتها تزوَّجت الدبلوماسي المصري تحسين بشير، الذي شغل عدة مناصب مهمة منها المتحدث الرسمي باسم البعثة المصرية في الأمم المتحدة، ومدير مكتب فلسطين في الجامعة العربية، والمتحدث الرسمي باسم الرئيسين عبد الناصر والسادات، وممثل مصر الدائم لدى الجامعة العربية، وسفير مصر في كندا، لكن ما جعلها تحظى بشهرة واسعة أنها كانت أول مصرية تزور إسرائيل، قبل أن يزورها الرئيس أنور السادات.

التقت سناء الصحفي الإسرائيلي عاموس إيلون سنة ١٩٧١ بجامعة هارفارد الأمريكية، عندما ألقى محاضرة هناك، وذلك بعد كتابة مقال لها بعنوان «دعونا نشرع في السلام»، لتلتقي به مرة أخرى سنة ١٩٧٣ ويتفقا على إصدار كتاب مشترك خرج إلى النور سنة ١٩٧٤، وفي العام نفسه انطلقت سناء إلى إسرائيل في رحلة أكاديمية قصيرة لمدة ستة أسابيع، ليسحب الرئيس السادات منها الجنسية المصرية، ويطلقها زوجها، ويُقال إن السادات أعاد إليها الجنسية المصرية بعد زيارته إلى القدس في نوفمبر ١٩٧٨، إلا أنها ما زالت تقيم في الولايات المتحدة حتى اليوم.

درست سناء العلوم السياسية في الجامعة الأمريكية، وحاولت أن أزاملها في التخصص نفسه، لكن مجموعي الضعيف في الثانوية العامة لم يؤهلني لذلك، فالتحقت بقسم اللغة العربية. استمرت صداقتنا طيلة فترة الجامعة، كنا نذاكر معًا في بيتها بشارع النيل، كان بيتًا أنيقًا تشعر في ترتيبه وأثاثه بذوق رفيع، ولا غرابة في ذلك فوالدها هو محمود حسن باشا، الذي شغل منصب وزير الشؤون الاجتماعية في عهد الملك فاروق، ثم سفير مصر لدى الولايات المتحدة لمدة عشر سنوات.

بصرف النظر عن رفضي لما أقدمت عليه سناء فيما بعد من تطبيع مع إسرائيل، وهو موقف مضاد تمامًا لموقفي السياسي والفكري، فإنني أقول إنها كانت صديقة عزيزة خلال دراستنا في الجامعة الأمريكية. كانت مرحة ومحبة للتعليم وودودًا.

* * *

أقمت فور التحاقي بالجامعة الأمريكية مع أختي منيرة وزوجها عبد الرحمن، وكانا يسكنان في بناية تطل على النيل أمام حديقة الحيوان بالجيزة، بعدها جاءت كذلك أختي خديجة وزوجها خالد إلى مصر وعاشا في شقة بالدقي أسفل الشقة التي أعيش فيها الآن. صديقاتي كن يزرنني في هذه الشقة كما أزورهن في بيوتهن.

من ضمن صديقاتي في تلك الفترة، بل أعز الصديقات على الإطلاق مديحة خياط، التي تنتمي إلى عائلة خياط القبطية الشهيرة في أسيوط. بتعرُّفي على هذه العائلة العريقة انفتحت على عالم آخر غير الذي أعرف. الذي بهرني في هذه العائلة هو ذلك الحضن الواسع الذي فتحته لي، تقبلوني كما أنا، وهم أبناء ثقافة فرنسية. تعلمت منهم الرقي في كل شيء، كانوا يحكون عن أمجاد عائلتهم في الصعيد، وكيف كانوا ملوكًا.

مديحة خياط

الحق أنني اكتشفت أنهم كانوا بالفعل ملوكًا في عيشتهم على الرغم من عدم غناهم ماديًّا وقت تعرُّفي عليهم، فقد أمَّم عبد الناصر أملاك العائلات الكبيرة الإقطاعية، مثل عموم المصريين، لكنهم يأكلون بطقوس تجعلك تشعر بأنهم أمام

أطباق باريسية أو سويسرية، فالمائدة لها تقاليد بصرف النظر عن نوعية الطعام المعتاد عند الطبقتين المتوسطة والعليا في المجتمع المصري.

كنا نأخذ مقاعدنا على السفرة في بيتهم بالزمالك، يغرف لنا السفرجي الطعام، الذي يُتناول في أناقة تامة، وبترتيب معين، كما كانت هناك أطقم معينة للسفرة تُفرش عند حضور الضيوف مع تزيين المائدة بالزهور. لم تكن مثل تلك الأمور شائعة لدينا، كنا نتناول طعامنا على السفرة، ونأكل بالشوكة والسكين، ولكن لم نتعود وجود السفرجي حولنا.

تعلمت من صداقتي ببيت خياط كيف يمكن للمرء أن يناقش في تحضُّر، مع قبول لانهائي للآخر، وكيف تستمع إلى محدثك من دون أن تقاطعه. تعلمت منهم كيف يمكن للمرء أن يتشكَّل معرفيًّا من أكثر من حضارة وثقافة في آنٍ معًا، إذ كانت ثقافتهم خليطًا من الفرنسية (معظم العائلة) والإنجليزية (وهي ثقافة الدكتور أندريه خياط) بجانب الثقافة العربية.

كانت طنط نادية، والدة مديحة، لا تكف عن القراءة، كنت أحيانًا أذهب إليها في مقر إقامتها في روف أعلى البناية، جل قراءتها كان في الديانة المسيحية، خصوصًا ما كُتب عنها بالفرنسية، كانت تقرأ عن القديسين وتحكي لي عنهم وأنبهر بهم. كانت صاحبة ثقافة رفيعة في الأدب والتاريخ وغيرهما من صنوف المعرفة، وقد ثقَّفت نفسها بنفسها، لأنها تعليميًّا لم تحصل إلا على الشهادة الابتدائية، وأشهد أنها طيلة اختلاطي بهم لم تجرحني بكلمة واحدة، بل احتضنتني هي وبناتها.

البناية التي كانت تقطنها عائلة خياط كانت مملوكة لشخص ينتمي إلى عائلة قبطية ثانية وهي عائلة عبيد، ومن حسن الحظ أن ابنة صاحب البناية صوفي عبيد كانت قد سبقتنا - مديحة خياط وأنا - إلى الجامعة الأمريكية. كنا ننادي صوفي بسوسو كنوع من التدليل، وخُطبت سوسو وفُسخت خطبتها، وعشقت الفن الإسلامي وتخصصت فيه.

كنا نجتمع - مديحة وسوسو وأنا وأخريات - في شقة صغيرة بجوار الجراج

في الدور الأرضي ببناية عبيد. كنا نتحدث عن الأدب الإنجليزي والأدب العربي وعن الأحداث الجارية والجامعة وأصدقائنا والموضة. كانت أجمل الأيام.

* * *

في عام ١٩٦٢ شهدت العلاقات المصرية-السعودية أزمة حادة في أعقاب الانقلاب الذي قام به عبد الله السلال قائد الحرس الملكي في اليمن، والذي أطاح بالإمام سيف الإسلام البدر بن حميد الدين، عن حكم البلاد. وأعلنت الثورة أنها جاءت لإنهاء الحكم الرجعي المستبد للإمام، وأنها تهدف إلى تحقيق الإصلاح الاجتماعي والوحدة العربية، وقد نجح الإمام في الهروب إلى جبال الشمال، حيث حصل على مساندة القبائل وألَّف حكومة في المنفى.

انقسمت الدول العربية في اعترافها بالنظام الجمهوري الجديد في اليمن. فبينما اعترفت به مصر والعراق وسوريا ولبنان والسودان وتونس والجزائر، امتنع المغرب وليبيا والكويت عن الاعتراف به. اعترفت السعودية والأردن بالحكومة الملكية في المنفى، في ظل إصرار الملك فيصل بن عبد العزيز على عودة أسرة حميد الدين إلى حكم اليمن. انتهى الأمر بنشوب نزاع مسلح داخل اليمن بين طرفين؛ أحدهما ملكي تؤيده السعودية بالسلاح والدعم والأفراد، والآخر جمهوري تؤيده مصر بالقوات العسكرية التي أرسلتها إلى اليمن.

في ظل تلك الأجواء العاصفة بين القاهرة والرياض، وعلى وقع القتال الدائر بينهما على المسرح اليمني وعلى المسرح الإعلامي، وصل إلى أختي منيرة أن البوليس المصري يقتحم شقق السعوديين. كنت تستطيع أن تصف منيرة في تلك الفترة بأنها عميدة العائلات السعودية في مصر. كانت تلك العائلات تودع لديها أمانات تتضمن مبالغ كبيرة. وإذا حدث أن اكتشف الأمن المصري وجود تلك المبالغ فربما تحدث عن تمويل أعمال مضرة بمصر في ظل التصعيد السياسي والإعلامي بين البلدين.

فزعت أختي من الخبر. قالت منيرة بخوف:

- سيأخذونني إلى السجن.

ردت أمي عليها قائلة:

- لا تخافي، إحنا كلنا نروح معاك إلى السجن، لن تكوني بمفردك.

بعدها ذهبت أنا وخديجة إلى بيت سوسو. قلت لها:

- لديَّ أمانة أريد أن أتركها عندكِ.

على الفور أعطت سوسو مفتاح دولابها لخديجة، وقالت:

- سأخرج خارج الغرفة وضعي في الدولاب ما تشائين، وإذا وددتِ أن يبقى المفتاح معك فلا بأس، وإذا أعدتِه إليَّ مرة أخرى فالأمران سيان عندي.

لم تسألنا صوفي عبيد عن ماهية الأمانة التي وضعناها في دولابها، ربما كانت قنابل، لم تنظر حتى إليها. لا أستطيع أن أصف ذلك الموقف النبيل لهذه الشخصية النبيلة معنا، هذا أمر يتجاوز الرقي، فلو جرت مداهمة لبيت عبيد المحسوب على نظام الملك فاروق، لاعتبر الأمن المصري أن هذه مؤامرة مكتملة الأركان بين السعودية وعناصر من النظام البائد. لكن على الرغم من تلك المخاطرة فإن سوسو لم تتردد في نجدتنا. لم أفارقها لحظة واحدة إلى أن سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

* * *

كانت الجامعة الأمريكية في فترة الستينيات تعج بالطلاب العرب. كان معنا طلاب فلسطينيون، وبطبيعة الحال كانوا مسيسين، وينظمون ندوات للتعريف بالقضية الفلسطينية، وكان من بينهم طالب من عائلة الفرا المعروفة. كان معنا أيضًا طلاب سعوديون وأردنيون وسوريون، بخلاف المصريين.

لم أختلط بطلاب بنين طيلة دراستي في الجامعة الأمريكية، وكانت على شاكلتي صديقتي وزميلتي راجية ابنة اللواء عبد المنعم الشاذلي، الذي كان رئيسًا لنادي هليوبوليس، وأخوها السفير محمد الشاذلي، وعمها القائد العسكري التاريخي الفريق سعد الشاذلي، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، وتزوجت محمد عيسى الصحفي بالأهرام. كانت راجية شديدة الانضباط في حياتها، ترسل عائلتها إليها السيارة في مواعيد معروفة

بعد انتهاء المحاضرات، ولم يكن مسموحًا لها أن تذهب بمفردها أو مع شلة إلى السينما على سبيل المثال.

بجانب أنه كان ممنوعًا عليَّ من قِبل عائلتي الاختلاط بشباب منعًا لدخولي عوالم إحسان عبد القدوس، أعترف أنني كنت أهاب زملائي الشباب وأُحرج منهم، وهذه المهابة تعود إلى عدم المعرفة بهم، وفرط تصويرهم على أنهم أوغاد عندما يتعاملون مع الفتيات، لا تفكير لهم إلا في الجنس.

كنت مشهورة بأنني أدوِّن المحاضرات خلف الأساتذة بشكل جيد، وكان لنا زميل لا يهتم بالحضور، وقرب الامتحانات يبحث عن طالب دوَّن المحاضرات بشكل جيد ومنظم. فقالوا له «عليك بهذه الزميلة السعودية». اتصل زميلي بالتلفون وردت أختي، طلب أن يكلمني فردت عليه أختي قائلة: «معندناش بنات تكلم رجال!».

كنت من داخلي أتمنى أن تكون لي علاقة زمالة طبيعية بالشباب، لكنني لم أدخل مثل هذه التجربة من قبل. في هذا الصدد كنت أحسد صديقتي عزيزة رجائي، التي أصبحت أستاذة الكيمياء المشهورة في الجامعة الأمريكية، وابنة الكاتبة والمناضلة النسوية الكبيرة درية شفيق. كانت منفتحة، وتتعامل بتلقائية وأريحية شديدة مع الجميع سواء زملاء أو زميلات.

تطورت الأمور لديَّ إلى أن صرت أكثر جرأة داخل قاعات المحاضرات وفي التعامل، فلم أجد غضاضة في الاتفاق أو الاختلاف سواء مع الأساتذة أو الزملاء. وفي السنة النهائية كنت قد تجرأت أكثر، ونويت حضور حفلة رأس السنة التي سيحضرها زملاء وزميلات لي، وستقام في مكان عام. بالفعل وفرت ثمن فستان أنيق. شاهدتني أختي خديجة مرتبكة ليلة الحفل. سألتني عن الخطب.

قلت:

- أبغى أحضر حفلة رأس السنة.

قالت:

- مفيش خروج، كيف تحضرين مثل هذه الحفلات؟

قلت:

- أنا جهزت الفستان.

قالت:

- يغور الفستان.

قضيت ليلة رأس السنة في سريري مع دموعي، أنظر إلى فستاني الجديد بحسرة شديدة على عدم لبسي إياه والانطلاق إلى الحفل مع الأصدقاء، ويلح عليَّ ذلك السؤال القاتل: لماذا ذلك التناقض القاتل بيني وبين أسرتي؟

كانت الكثيرات من صديقاتي يحضرن مثل تلك المناسبات، ويَعُدن ليحكين لي ما جرى فيها، فكنت أشتاق إلى حضورها معهن. أحيانًا كنت أضطر إلى أن أكذب كي أتمكن من الخروج مع إحدى صديقاتي، كنت أقول لهم سوف أذهب للمذاكرة عند سوسو، وأنبه على الأخيرة بأنه «لو اتصل أحد من عائلتي يسأل عني لديكِ قولي لهم إنها موجودة أو كانت موجودة وفي الطريق إليكم». استمر ذلك إلى أن تخرجت في الجامعة، وبعد الليسانس جاءت والدتي من السعودية لتعيش معي، وفي يوم وجدتني أستعد للخروج.

قالت:

- رايحة فين؟

قلت لها:

- ليس من حقك أن تسأليني رايحة فين وجاية منين؟ لست طفلة صغيرة.

كنت قد تخرجت وبدأت أشعر باستقلالية عن الأسرة، وهذا الشعور دفعني إلى التحدي أو حتى التمرد.

خافت أمي، وشعرت بقلة الحيلة، وطلبت من أخي أحمد الحضور من جدة إلى القاهرة ليجد له تصرفًا معي. وفي يوم من الأيام ذهبت مع صديقة مصرية إلى السينما (حفلة ٦-٩ مساءً)، ولدى عودتي فوجئت بأن مَن فتح الباب هو أخي أحمد، صُعقت كأنني شاهدت ماردًا أمامي.

قال:

- كنتِ فين؟

قلت:

- ما لك دعوة.

لا أستطيع وصف ما جرى لي بعدها من عنف وصفع وركل في كل مكان بجسدي. أخذت «علقة موت» كما يقولون!

لم أشعر إلا بعد أن أفقت ووجدتني في السرير، والذي مارس العنف ضدي بهذه الوحشية هو أخي المتعلم المتنور الذي درس في بريطانيا وصاحب الأفكار التقدمية، لكنه على أي حال لم يفلت من ازدواجية المثقف العربي بين التمسك بتقاليد بالية حينًا والتحرر منها حينًا آخر.

لسبب أو لآخر حضر أبي من السعودية، وجاءني أحمد معتذرًا عما جرى، لكنني وللأمانة لست سريعة التسامح، فقد سافر بعد أن رفضت اعتذاره، ولم أرد على اتصالاته الهاتفية فترة طويلة. كان شعوري بالإهانة لا حدود له، خصوصًا أنني لم أرتكب جريمة تستدعي كل هذا العنف. أعتقد أن تحدي سلطة كبار الأسرة، وبالذات الرجال منهم، حمل ثقلًا كبيرًا، ولذلك كثيرًا ما يقابل بالعنف الجسدي.

نعم، كان هناك عنف في التعامل معي بسبب التقاليد، فكثيرًا ما كانت أخواتي وأمي يستدعين أخي للسيطرة عليَّ وإخضاعي. الحقيقة أنني واجهت بسبب هذه التقاليد مصاعب جمَّة، كيف لي أن أدرس وأتعلم وأنا عاجزة عن التواصل مع زملائي! كان ذلك يمثل عقبة كبيرة، لم يساعدني في تجاوزها حضوري الفعاليات المقصورة على الطالبات والأساتذة كبار السن من الأجانب، التي كانت تنظمها حبيبتي صوفي عبيد، ربما لأجلي في المقام الأول.

* * *

تتلمذت في الجامعة الأمريكية على أيدي أساتذة مصريين كبار بجانب

الأساتذة الأجانب المرموقين، أذكر منهم الدكتورة وداد سعيد، أستاذة الفلسفة المعروفة، زوجة عالم الجيولوجيا الشهير الدكتور رشدي سعيد. وقد أثرت الدكتورة وداد فيَّ تأثيرًا ملموسًا، وأحبتني جدًّا أنا وسناء حسن، وأولتنا عناية خاصة.

كانت الدكتورة وداد رائعة، تدخل المحاضرة من دون أن تمسك أي أوراق في يديها، وتشرح بانسيابية وطلاقة، كنا نسمعها من دون ملل حتى نُفاجأ بانتهاء المحاضرة. كان المحتوى الفلسفي جديدًا عليَّ ويثير في نفسي تساؤلات، خصوصًا مع الشائع في الثقافة العربية منذ أصدر الإمام أبو حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري كتابه «تهافت الفلاسفة» بما تضمنه من هجوم على الفلسفة والفلاسفة. ولم يعبأ أحد برد ابن رشد عليه بكتاب «تهافت التهافت»، الذي احتفى به الغرب لتأكيده على قيمة وأهمية الفلسفة وإعمال العقل، وكانت من أسباب نهضتهم.

شعرت الدكتورة وداد بما يعتمل في نفسي، فعقب إحدى المحاضرات طلبتني في مكتبها. قالت: «لا تخجلي من أن تسألي عن أي شيء يجول في خاطرك»، وقليلًا قليلًا تولدت ثقتي بنفسي، وصرت أكثر جرأة في التعبير عن هواجسي ومخاوفي، وما يدور في ذهني من تساؤلات. لقد منحتني أستاذتي مزيدًا من الثقة والجرأة في التعبير عن نفسي، كم أحببتها.

كان من أشهر الأساتذة الذين درَّسوا لي في الجامعة الأمريكية الدكتور محمد النويهي، درَّس لنا الشعر العربي ومقدمة ابن خلدون، والذي أصر على أن أدرسها بالعربية احتفاءً بلغتي الأم. كان أستاذًا متمكنًا، وكنت قد حصلت على محاضراته من زميلة تسبقني بعام. وفي أثناء شرحه لأحد أبيات الشعر الجاهلي يصف فيه الشاعر نظرة حبيبته إليه بعد الاجتماع بها، سأل الدكتور النويهي سؤالًا:

- بمَ تصفون هذه النظرة؟

نظرت في محاضراته في السنة الماضية، وعلى الفور قلت:

- نظرة الشبع.

استغرب، ورفع نظارته أعلى حاجبيه ونظر إليَّ، ثم قال:

- فوتي عليَّ في المكتب.

ذهبت بالفعل. قال: «أريدك أن تبذلي مجهودًا كبيرًا في البحث وجمع المعلومات لا أن تغشي من محاضرات سابقة، فأنتِ لديك القدرة على البحث». ومن يومها نشأ بيننا ما يمكن أن نُسمِّيه صداقة بين التلميذة والأستاذ.

أذكر أيضًا أن إدارة الجامعة أحضرت لنا أستاذًا من جامعة القاهرة ليدرس لنا مادة العالم العربي التي أدخلها جمال عبد الناصر كمادة إجبارية في الجامعات المصرية في إطار الخط العروبي الذي كان يتبناه. كانت اللغة الإنجليزية لذلك الأستاذ ركيكة. وتعرض لسخرية من جانبنا بسبب ذلك الأمر، إلى درجة أننا ذهبنا لشكواه عند رئيس القسم وطلبنا تغييره، وقد ندمت على مشاركتي في تلك السخرية، لكن يبدو أنها كانت إثر اختلاطي بمجموعة أرستقراطية، ترى في إتقان اللغات الأجنبية وجاهة، وعدم إتقانها نقيصة تجلب لصاحبها الاستهجان والتنمر!

* * *

تخرجت وجاء أستاذ من أساتذتي في الجامعة الأمريكية، أمريكي من أصل لبناني اسمه «توماس ناف»، وقال لي:

- يا ثريا عايزة تكملي تعليمك؟

قلت:

- لا أعرف، لم أقرر بعد.

قال:

- أنتِ بإمكانك الدراسة في كبريات الجامعات الأمريكية.

قلت:

- حتى اللحظة لا أرغب في ذلك.

قال:

- لو غيرتِ رأيك تعالي إليَّ.

لم أشأ أن أغلق الباب أمام عرض أستاذي الدكتور توماس ناف باستكمال دراستي في الولايات المتحدة الأمريكية. قلت له ذات مرة قبل سفره للتدريس في جامعة هارفارد، وتحديدًا في مركز دراسات الشرق الأوسط:

- أوافق على السفر.

قلت ذلك وأنا أعلم أن الأمر سيحتاج إلى جهد مضنٍ لكي أنتزع موافقة الوالد، لكن الأمر يستحق.

قال:

- هل تفضلين جامعة معينة في أمريكا؟

قلت:

- أنا أريد مكانًا حلوًا، جوه جميل، تسطع فيه الشمس، ويتسم بالمرح ويكون بعيدًا عن الثلوج.

لم أقل له مثلًا أريد الجامعة الفلانية لأنها كبيرة ومرموقة، لم تكن لديَّ فكرة عن ترتيب الجامعات وقتها.

سافر توماس في صيف ١٩٦٦، ورُحت أهيئ الأسرة شيئًا فشيئًا لموضوع السفر لاستكمال دراستي، تحدثت مع أختي منيرة لأختبر رد فعلها، فعارضت الفكرة. بعدها سافرنا لقضاء الصيف في سويسرا، والتحقت بالمدرسة الصيفية كما هي العادة، وفاتحت عبد الرحمن زوج منيرة في أمر السفر، وطلبت وساطته لإقناع أبي بالموافقة، فوعدني بالحديث معه، وكان عبد الرحمن منحازًا إليَّ، وساعدته والدتي بالطبع.

بنهاية الصيف انتزع عبد الرحمن موافقة أبي على سفري إلى أمريكا من حيث المبدأ. زففت هذه البشرى في خطاب أرسلته إلى أستاذي توماس الموجود في الولايات المتحدة، ثم عدت أمارس حياتي العادية في القاهرة، إلى أن جاءت احتفالات رأس السنة، التي قضيتها مع نفسي في بيت أختي كما ذكرت من قبل.

في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة الأمريكية لأرى إذا ما كان هناك بريد قد وصل إليَّ، وجدت تلغرافًا من توماس يقول:

«مبروك، قُبلتِ بجامعة كاليفورنيا-بركلي، وعليكِ الحضور في ١٠ يناير».

٦
السير على حواف الجمر
إلى كاليفورنيا

صُعقت فور تسلُّمي التلغراف، ذلك أنه يتعين عليَّ أن أكون في كاليفورنيا بعد تسعة أيام، لم أكن أملك ثمن تذكرة الطائرة، وأهلي في السعودية. هنا جاء دور صديقاتي اللاتي وقفن معي، كنا في الشتاء ولا يوجد معي معطف ثقيل أواجه به برودة الجو في هذه الولاية الأمريكية التي كنت أتصور أنها شديدة البرودة، فرُحت أفكر في هذا الأمر.

كانت لحظة على مفصليتها في حياتي إلا أنني عشت فيها مشاعر جد متناقضة ومتقلبة بين الفرح والخوف من المجهول، فلم يمهلني القدر وقتًا كافيًا للاستعداد لها، كان بحق مجهولًا وجدتني أندفع إليه بكل جوارحي، وكنت صغيرة السن، في العشرينيات من عمري، ولم أجرب العيش بمفردي، ولكنني أردت أن أنطلق إلى العالم الجديد الذي يكاد ينفتح أمامي.

نعم كانت الأيام العشرة الأولى من يناير ١٩٦٧ من أصعب أيام حياتي، تملكني فيها خوف رهيب من ذلك البعد الجغرافي الذي أنا مقدمة عليه في بلاد الكاوبوي، وفي الوقت نفسه أشعر بأنني صرت على وشك أن ألامس حلمي بيدي، وبين هذا وذاك تحدثني نفسي عن ذلك الجنون الذي صار يسيطر عليَّ، فقد جُبل الإنسان على حب الاستقرار، يميل إلى إيثار السلامة واللعب في المناطق الآمنة مقارنة بالمغامرة.

لكنني خفت أيضًا من العودة إلى جدة، أيُّ أمان في حياتي سيكون في عودتي إلى السعودية والحياة في كنف زوج يتحكم في شؤوني، وأصبح ظلًّا له ولقراراته؟! لا أريد ذلك على الإطلاق، ومن ثَمَّ كان عليَّ أن أتمسك بفرصة السفر، وبداية حياة أكاديمية وعلمية ومهنية جديدة وأتمناها عريضة. ولكن ماذا أفعل بهذا الخوف الساحق من ذلك العالم المجهول؟

من حسن الحظ أن الزمن بمعناه الميكانيكي يمضي من دون توقف، فمرت الأيام سراعًا، لكن قبل مضيها بوقت قصير دعمتني أختي وحبيبتي منيرة. قالت: «سافري أولًا إلى جنيف، قابلي عبد الرحمن، واشتري معطفًا واحتياجاتك من الملابس، وسيحجز لك تذكرة السفر إلى الولايات المتحدة». وقبل ذلك رتبت لي حقائبي.

صحبتني منيرة إلى المطار، تذكرت فراقنا عندما كنت أدخل المدرسة في بيروت، شدَّت على يدي والدمع ينهمر من عينيها، وفي اللحظة ذاتها توصيني بالحفاظ على صحتي. ارتميت في حضنها، كأنني أحتضن عالمي الذي أحب، حضنتها بقوة مخاوفي من المستقبل الذي أنا مقبلة عليه، واستقررت في حضنها حتى سمعت النداء على المسافرين على متن الطائرة التي ستقلني إلى جنيف. غبت عنها أو هي غابت عني وصوتها يعلو: «خلي بالك من نفسك، وكُلي كويس».

وجدتني في الطائرة إلى جنيف، كان منسوب التوتر ليس في أعلى معدلاته، فما زلت في طريقي المعتاد إلى بلد أذهب إليه كل عام، فأنا متوجهة لمقابلة زوج أختي الذي سيقدِّم لي الدعم، ومن ثَمَّ ما زلت في إطار المجال الحيوي للأسرة. وصلت إلى جنيف واستقبلني عبد الرحمن، واشتريت معطفًا و«بوت» من الفراء لزوم مواجهة البرد.

ودَّعت زوج أختي، وأقلعت بي الطائرة إلى محطتي الأولى في الولايات المتحدة وهي بوسطن، حيث ينتظرني أستاذي توماس ناف، كنت أقول لنفسي: هل

جُننت حتى أعبر ذلك المحيط وأبعد عن أهلي كل تلك المسافات؟! خلال تلك الرحلة عشت مشاعر القلق المرعبة، كنت أشعر بأن مصاعب جمَّة ستواجهني.

حطت بي الطائرة في مطار بوسطن، أظن أنني كنت أول امرأة سعودية تدخل هذه المدينة، حيث بدا على رجال الشرطة في المطار أنهم أول مرة يرون جواز سفر لسيدة سعودية! كنا في يوم الجمعة ١٣ يناير ١٩٦٧، وهم يتشاءمون من رقم ١٣. قال لي الضابط مستنكرًا:

- أين الصورة؟ هل يوجد جواز سفر من دون صورة؟

قلت:

- هذا هو المعمول به في بلادنا، ونسافر به إلى أوروبا وإلى كل مكان.

قال:

- لا أستطيع أن أخرجكِ من المطار.

ذلك والدكتور توماس ينتظرني في منطقة الخروج.

قال الضابط:

- سأحاول التحدث إلى القنصلية أو السفارة السعودية.

قلت:

- كلِّم أي جهة تريد.

غاب فترة، وأعصابي تكاد تصل إلى حد الانهيار، وأتساءل: ما هذا الوجه الذي تستقبلينني به يا أمريكا؟

رجع الضابط بوجه عبوس. قال:

- القنصلية أغلقت أبوابها، اليوم جمعة وموعد الدوام الرسمي انتهى، ولن يفتحوا إلا صباح الاثنين، بعد عطلة نهاية الأسبوع.

صُعقت وطلبت منه التصرف، لأنه لا يمكنني الانتظار في المطار. أجرى الرجل محاولة أخرى بعد جدال معه، وكان قد مضى نحو خمس ساعات على وصولي وأستاذي في منطقة الانتظار.

ذهب الرجل وعاد، وبعد اتصالات كثيرة أجراها قال:

- سنسمح لكِ بالدخول.

ولكن ما إن سمحوا لي بدخول بوسطن وفتحوا حقائبي حتى كانت المفاجأة: وضعت لي منيرة ينسونًا وبعض الأعشاب الأخرى لشربها إذا ما تعرضت لتعب في معدتي أو حلقي، على عاداتنا في البلاد العربية.

قال لي الضابط وهو يقلب في الأعشاب:

- ما هذا؟

قلت:

- هذا دواء لمغص البطن.

نظر مليًّا إليَّ ثم أشار إلى عشب آخر وقال:

- وما هذا؟

قلت:

- عشب لعلاج التهاب الحلق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

زادت دهشة الرجل، وراح يسألني:

- هل أنتِ متأكدة؟!

شرحت له أنها أعشاب طبيعية، قلت له بعد أن انهرت وانهمرت الدموع على خدَّي:

- ألا يوجد في بلدكم ينسون وأعشاب؟ لا أريد أن أدخل هذا البلد، أعيدوني إلى بلدي.

شعرت بتعاطف الضابط معي عند هذه اللحظة. قال:

- أريد منكِ وعدًا بأن تلقي في المرحاض ما لا تريدينه من هذه الأشياء لا في سلة القمامة.

وعدته وكنت صادقة.

خرجت بعد نحو خمس ساعات، وجدت توماس ينتظر على أحر من

الجمر. كانت لديَّ فوبيا من البرد، فلبست المعطف والبوت ذا الفراء، وملابس أخرى كثيرة. أخذني أستاذي إلى بيته، الذي شعرت فيه بالدفء، دفء الجو ودفء المشاعر في لحظة قاسية وصعبة على نفسي، نتيجة ما جرى لي بالمطار والذي زادني ارتباكًا على ارتباكي. استقبلتني زوجته السيدة جون، وكانت سيدة عظيمة ورقيقة وودودًا.

بدأت أخلع دولاب الملابس الذي كنت أرتديه، خلعت أولًا المعطف الثقيل، ثم سترة البدلة الصوف الرمادية التي كانت تحته، وبعد قليل خلعت سترة أسفل البدلة، وجون تتابع كل ذلك وتكسو وجهها ابتسامة حنون، وتبقى أسفل هذه الملابس طاقم كشمير، سترة وبلوزة، وكنزة ذات رقبة طويلة. وعلقت جون وهي تضحك كلما خلعت قطعة: «كل هذا لكاليفورنيا؟». (علمًا بأنني لم أحدثها عما كان أسفل طاقم الكشمير). كان تصوري مبالغًا فيه عن برد أوروبا وأمريكا، فكل زياراتي لأوروبا كانت في الصيف، ولم أكن أحتاج إلى أي قطعة من الملابس الثقيلة التي ارتديتها استعدادًا لبرد أمريكا.

ما أجمل هذه الباقة من الأمريكان الذين تبنوني بعنايتهم وقاموا بمجهود هم في غنى عنه لييسروا عليَّ التأقلم مع أمريكا! كم كنت مخطئة في التعميم على الأمريكان في سنوات ماضية، وتنبهت فيما بعد إلى أن التعميم على البشر يعمي البصر والبصيرة.

بعد أن جلسنا إلى مائدة العشاء قال توماس:

- شايفك خايفة يا ثريا، أريد أن أطمئنك بأن لدينا أسرة صديقة لنا في بركلي منذ أيام دراستي هناك ستنتظرك في سان فرانسيسكو، وستتولى أمرك إلى أن تجدي سكنًا.

صباح اليوم التالي كان عليَّ أن أتحرك من بوسطن إلى سان فرانسيسكو، كي أصل خلال عطلة نهاية الأسبوع ليتمكن أصدقاء توماس من استقبالي في المطار خلال العطلة. ودَّعني أستاذي وزوجته، كانت لحظة مشحونة

بالعواطف، الرجل وحرمه يشعران بالخوف الذي يتملكني ويحاولان التهدئة من روعي. لم أكن أعلم أنني مقدمة على ست ساعات سفر أخرى، وهي المسافة الفاصلة بين المدينتين.

وصلت إلى مطار سان فرانسيسكو، وعند الخروج وجدت أصدقاء توماس يرفعون لافتة مكتوبًا عليها اسمي، فتوجهت إليهم. طمأنني استقبالهم نسبيًّا، أسكنوني في بيت الطلبة التابع للجامعة.

وهنا يجب أن أقول إذا كان هناك عدد محدود من الأشخاص قد لعبوا دورًا كبيرًا في حياتي فإن توماس ناف واحد منهم. أنا مليئة بالحب والعرفان لهذا الأستاذ الكبير والإنسان النبيل، الذي ظل يتابعني ويهتم بشؤوني في لحظات فارقة في حياتي كان هو أحد صناعها، بعد أن شجعني على السفر لاستكمال تعليمي.

كنت أعرف أنه قد سبقني للدراسة في جامعة بركلي طالب مصري كان يسبقنا في سنوات الدراسة بالجامعة الأمريكية اسمه حسين فهيم، وأخذ معه أسرته. فور وصولي اتصلت به، وكم كانت سعادتي عندما رد عليَّ حسين بظُرفه المعروف. على الفور قال:

- هاعدي عليك صباحًا يا ثريا، لأكون معكِ في أثناء ذهابك إلى قسم الدراسات العربية الذي قُبلتِ فيه بالجامعة.

ذهبنا إلى القسم، وجدنا فيه أستاذًا اسمه برينر، كنت أعرفه، لأنه كان يأتي إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأوصاني توماس بالمرور عليه فور وصولي. فيما بعد اكتشفت أنه صهيوني متعصب. لكنه على أي حال استقبلني استقبالًا معقولًا، وباعتبار أن شهادتي هي ليسانس في الأدب العربي قال:

- ستكونين معنا في القسم، وستدرسين مادة اللغة العربية كمدرس مساعد مع أستاذ المادة.

وسألني عن المواد التي أرغب في دراستها.

قلت:

- الأنثروبولوجي.

قال:

- اذهبي إلى قسم الأنثروبولوجي واعرضي الأمر عليه.

ذهبت أنا وحسين، الذي كان يدرس في نفس القسم. قابلت الأستاذة المسؤولة عن دراسات الأنثروبولوجي بالشرق الأوسط وهي الدكتورة لورا نادر، وهي من أصل لبناني، وأخوها رالف نادر، اسم معروف في أمريكا، لأنه كان المحامي الذي فضح عيوب صناعة السيارات في الولايات المتحدة من خلال كتاب نُشر سنة ١٩٦٥.

أحسنت لورا استقبالي، وعلى الرغم من أنها عاشت حياتها كلها في أمريكا، فإنني كنت ألحظ عطفها عليَّ بحكم جذورها العربية. قالت:

- سنعطيكِ بعض المواد في هذا الفصل الدراسي، لو اجتزتِها بنجاح ستنضمين إلينا في القسم.

درست مادتين جديدتين، في الوقت الذي كنت أدرِّس فيه اللغة العربية مساعِدة لأستاذ المادة.

حضرت متأخرة إلى الجامعة، ولذلك قال لي الدكتور مكاو أستاذ الأنثروبولوجي: «عندي مساعد اذهبي إليه ودعيه يشرح لك ما فاتك»، وهو نفس ما قالته لي لورا نادر، وساعدني الأستاذان المساعدان جدًّا، وكان من بينهما مساعد كنا نناديه «رينجو»، وكان والده صحفيًّا كبيرًا في سان فرانسيسكو، والحقيقة أنه بذل مجهودًا كبيرًا معي.

كنت أحاول التأقلم مع المجتمع الجديد الذي وجدت نفسي فيه، كنت وحيدة لا أعرف إلا حسين فهيم الذي كان مشغولًا مع أسرته ودراسته. كنت ألتقيه هو وزوجته، فمن آنٍ إلى آنٍ كانا يدعوانني إلى العشاء. هذه الوحدة جعلتني أدفن نفسي في الدراسة والمذاكرة بحماس بالغ. قلت إذا لم يكن لديَّ أصدقاء فإن لديَّ كتبًا عليَّ أن أقرأها.

حسين كان مسالمًا، ومنغمسًا في حياته مع أولاده، ولم يكن مهتمًّا بالنشاط الطلابي، وخلال ذلك الوقت لم يكن قد أتقن التحدث بطلاقة باللغة الإنجليزية، وجاء من مصر بعد مشاركته في إجراء دراسة عن تأثير السد العالي اجتماعيًّا على أهل النوبة.

الحقيقة أنني اعتدت الخروج مع الكثير من الزملاء الشبان لتناول العشاء من مختلف الجنسيات في أيام الآحاد، فسبحان مَن قربني من الرجال عمومًا، فكنت قبل ذلك أتحرج من الاختلاط بهم. والطريف أن طالبًا مصريًّا خفيف الظل كان يرقب حركتي كل يوم أحد، وينتظرني عند عودتي عند الباب العمومي، وبمجرد أن يراني عائدة مع زميل أجنبي يصيح قائلًا: «بترول العرب للعرب!».

كنت أقضي وقتًا طويلًا في صالة للمذاكرة لا تنطفئ الأنوار فيها حتى مطلع الفجر، كنت أجد فيها الطلبة الصينيين معسكرين طول الوقت. قلت «ولأكن مثلهم في الصبر على التعلم وعدم الملل منه». كان السكن الطلابي عبارة عن مبنى للطلاب وآخر للطالبات، والمطعم مشترك. والجميل أن كل طالب كان في غرفة بمفرده في هذا السكن.

* * *

بركلي كانت جامعة تقدمية الهوى، تميل إلى اليسار، عكس السائد آنذاك في الولايات المتحدة. أذكر أنني في أول مرة أدخل فيها الحرم الجامعي، وقبل انتظامي في الدراسة وجدت أناسًا يبيعون أقلامًا، أمسكت قلمًا لأشتريه وجدتهم قد كتبوا عليه: «اطردوا ريجان». استغربت الهجوم على حاكم الولاية، لكنني في الوقت نفسه شعرت بحريتهم، وفي الآن ذاته شعرت بما نحن فيه من قمع في العالم العربي. ومن يومها صرت أتابع أخبار رونالد ريجان حتى انتهت ولايته في حكم الولايات المتحدة.

بعد فترة قصيرة من وصولي بدأت أتعرَّف على الطلبة العرب الموجودين في جامعة بركلي، وجدت طالبًا سوريًّا اسمه تميم كسراوي، كان يدرس

الهندسة المدنية، وكان متفوقًا وقوميًّا عروبيًّا، وتفاهمنا وصارت بيننا صداقة. كان هناك طالب سوري آخر اسمه صفوح الأخرس، موالٍ لنظام الرئيس السوري نور الدين الأتاسي السابق على نظام حافظ الأسد، وكان أكبر منا سنًّا. كما كان هناك طالب عراقي اسمه إياد القزاز، وكان متزوجًا ويسكن في مدينة المتزوجين مع حسين فهيم. وجدت كذلك في بركلي منظمة الطلبة العرب، وكان الأبرز فيها حسن الشريف، وكان طالبًا لبنانيًّا، تزوَّج فيما بعد بالأكاديمية السعودية ثريا عبيد.

كنت أشعر بأن الطلبة العرب إخواني، والجميع يتسابق لتقديم الخدمات لي شعورًا بمسؤولياتهم تجاهي باعتباري الفتاة العربية الوحيدة الموجودة بينهم. قلت لهم جميعًا: «اسمعوا، أنا أشكركم على مشاعركم الطيبة، لكنني هنا مثلي مثلكم، ويمكنني الاعتماد على نفسي، ولو احتجت إلى شيء بالتأكيد سألجأ إليكم».

منذ المدرسة الثانوية كنت أسمع عن المد الصهيوني، لكنها كلمات كانت تُقال هنا أو هناك في مصر من دون إدراك عميق لمضمونها. في بركلي بدأت أقرأ عن ذلك المد. قال لي تميم:

- دعيني أشرح لك حكاية الصهيونية.

قلت له:

- سأقرأ وأفهم بنفسي وأكوِّن رأيي بعد بحث واطلاع.

كانت هناك أشياء كثيرة لا أعرفها. حريتنا في العالم العربي كانت مكبوتة، فلا حرية لتداول المعلومات ولا للنقاش السياسي الحر، وفي الولايات المتحدة وجدت حرية بلا شطآن.

قالوا عندنا منظمة الطلبة العرب، ونريد أن نجعلكِ السكرتيرة فيها. لم أحب أن أكون سكرتيرة. قلت لهم أنا أريد أن أكون واحدة منكم لا سكرتيرتكم! ولكن انتهيت إلى أني كنت السكرتيرة فترة وجيزة. تعمقت معرفتي في هذه المنظمة بحسن الشريف وتميم كسراوي وصفوح الأخرس، وطالب لبناني

آخر اسمه أسامة دوماني، كان يساريًا وذكيًا ويدرس «أنثروبولوجي»، وعطف عليَّ باعتبار أنني فتاة عربية تائهة في بلاد العم سام، وعرَّفني على صديقته، وأستاذتي لورا نادر أوصته عليَّ.

كان أسامة شديد الاتساق مع ذاته، صادقًا بلا حدود، أجرى دراسة عن جنوب لبنان، وبعد أن فرغ من كتابتها، وأوشك على المناقشة حرقها، لأنها لم تعجبه، قال إما نكتب شيئًا له معنى وإما لا نكتب. تعلمت الكثير من أسامة، وكنت أشعر بأنه أخي، فكان يحدثني عن أهله في لبنان، ويكلمني عن بلاد الأرز والإقطاع فيها، وعن زراعة وتجارة الحشيش، لقد كان عروبيًّا بلا حدود.

* * *

كنا داخل هذه المنظمة نناقش أوضاع العالم العربي والقضية الفلسطينية، وسياسات أمريكا تجاه العرب، ومَن يساندنا ومَن يقف ضدنا. وفي مايو ١٩٦٧ بدأ التوتر يسود منطقة الشرق الأوسط، ففي ٢٢ مايو أعلن الرئيس جمال عبد الناصر غلق مضايق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية، بعد سريان أنباء عن حشود إسرائيلية على الحدود السورية، وهو ما اعتبرته إسرائيل إعلانًا للحرب عليها. وهو ما دفع السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك يو ثانت إلى التوجه للقاهرة بعد ظهر اليوم التالي، وهو الخبر الذي تصدر وسائل الإعلام الأمريكية، وجعلنا نترقب ما يدور على مسرح الأحداث في العالم العربي، خصوصًا في مصر وسوريا.

خلال تلك الأيام، كانت تسكن الحجرة المجاورة لي طالبة يهودية أمريكية اسمها سوزان كاي، من ولاية أخرى غير كاليفورنيا، تعرَّفت عليها وتصادقنا. كنا نخرج معًا لتناول العشاء مساء أيام الآحاد، لأن السكن لا يقدِّم وجبات في هذا اليوم. ولكن مع نكسة ٦٧ ظهرت سوزان على حقيقتها، وأنها صهيونية حتى النخاع، حيث انخرطت في الدعاية لإسرائيل في السكن الطلابي وفي أماكن أخرى خارجه، وانقلبت عدوة لي. وعلى ما يبدو أنني كنت عبيطة لأنني لم أشك في نياتها العدوانية تجاهنا. كان رد فعلي على تصرفاتها هو

أن قاطعتها، وبدأت أحارب نشاطها الدعائي بدعاية مضادة تشرح الموقف العربي ومأساة الشعب الفلسطيني. كنت أستغل تجمع الطلاب والطالبات في أثناء تناول الوجبات، خصوصًا الأمريكان، وأجُر الحديث إلى ما يجري في الشرق الأوسط، الذي كان يتصدر عناوين الأخبار وقتها، وأروج للرؤية العربية والحق العربي والعدوان الصهيوني على الأرض العربية.

في غضون ذلك جاءني شخص عربي لا أعرف هويته يقول لي: «ثريا أنت تهميننني جدًّا، وأنت الطالبة الوحيدة العربية الموجودة هنا، وجميعنا يشعر بأنك أختنا، ولذلك لا تزعلي مني إذا قلت لك إن نشاطك السياسي سوف يضرك في السعودية، لأن بلدك بعيد عن هذا الصراع، بل إن بينه وبين النظام المصري ما بينه من بغضاء». لم أعِر كلامه اهتمامًا، لم أكن أرى أمامي إلا أن مصر مقبلة على مواجهة مع إسرائيل، ومن ثَمَّ أي خلافات عربية-عربية يمكن تنحيتها جانبًا في هذه اللحظة.

حكيت لتميم ما قاله لي ذلك الطالب. فقال:

- سأتحدث معه لعدم تكرارها.

قلت له:

- لا، أنا كفيلة به، وأعرف كيف أصرفه عني.

وفي صباح الاثنين ٥ يونيو قامت إسرائيل بغارات جوية على مصر في سيناء والدلتا والقاهرة ووادي النيل دمرت فيها ٢٥ مطارًا حربيًّا، وما لا يقل عن ٨٥٪ من طائرات مصر وهي جاثمة على الأرض. وتوالت الأحداث، وأصدرت القيادة المصرية أوامرها بالانسحاب إلى الشاطئ الغربي لقناة السويس، وانتهت الحرب بهزيمة عسكرية للقوات العربية واحتلال إسرائيل لقطاع غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية وسيناء وهضبة الجولان السورية، وهو ما أصابنا بصدمة مروعة.

نعم تعرضنا لصدمة نفسية لا مثيل لها مع توارد الأنباء عن هزيمة الجيوش

العربية، وشروع الجيش المصري في الانسحاب إلى الشاطئ الغربي لقناة السويس. من هول الصدمة اعتبرنا أن الانسحاب ليس انسحابًا ناتجًا عن هزيمة، بل هو تكتيك يستدرج الإسرائيليين إلى فخ كبير نصبته جيوشنا لهم، إلى أن أفقنا على الحقيقة المروعة بإعلان عبد الناصر التنحي في ٩ يونيو.

بعد أن بدأنا نفيق من هول صدمة الهزيمة طرحنا للنقاش داخل منظمة الطلبة العرب ذلك السؤال: «هنعمل إيه؟». خلال تلك الفترة العصيبة تعرَّفت على طالب عراقي يُدعى يحيى الراوي، عمه كان بالحزب الشيوعي العراقي، وكان الأول على دفعته في بغداد، وكان جيولوجيًّا ويسكن مع أستاذ له، وأستاذه كان منبهرًا به وبحماسه لبلده وعروبته.

كنت من الذين شعروا بأنه يجب علينا جميعًا أن نعود إلى بلادنا ونساهم في إعادة الإعمار، وكانت هناك رؤية مغايرة تقول: «علينا أن نبقى في الولايات المتحدة ونتابع الموقف وتطوراته». كان صفوح الأخرس متشددًا في حتمية الرجوع إلى بلادنا، إلى درجة أنه قال:

- اللي يرفض الرجوع نأخذ جواز سفره.

صرخ فيه يحيى قائلًا:

- أنت الآن تكرر ما تصنعه الأنظمة العربية من قمع، لا أنت ولا أي مخلوق بإمكانه أخذ جواز سفري.

كانت اللحظة قاسية والأعصاب مشدودة على وقع الهزيمة، كنا ممزقين نفسيًّا، إلى درجة أن يحيى دخل المستشفى من فرط انفعاله. كنا نموذجًا مصغرًا من العالم العربي المهزوم الذي لا يدري كيف يتصرف إزاء هذه الهزيمة فور وقوعها.

بعد أيام قررنا جميعًا البقاء في الولايات المتحدة، وقلنا من الخطأ أن نترك الرأي العام الأمريكي للصهاينة يؤثرون فيه وحدهم. وفي الوقت نفسه قررنا جمع مبلغ من المال لتمويل سفر واحد منا إلى العالم العربي، ليزور بلدان

المواجهة تحديدًا ثم يعود ويعرض علينا حقيقة الأوضاع، بعيدًا عما تنشره وسائل الإعلام التي تأتمر بأمر الحكومات والأنظمة.

وقع الاختيار على طالب سوري اقترب من الانتهاء من دراسته باعتباره الأكثر حماسة لعودتنا إلى بلادنا. ما جرى هو أنه أخذ ما جمعناه من مال والتذاكر التي حجزناها له، وسافر إلى سوريا ولم نرَ وجهه بعدها، وعلمنا أنه شغل وظيفة كبيرة في دمشق.

* * *

علمنا أن الصهاينة يعتزمون تنظيم احتفال في حديقة بسان فرانسيسكو بمناسبة انتصار إسرائيل في الحرب، قلنا يجب ألا نترك لهم الساحة، فجمعنا أنفسنا وكنا قرابة ٣٠ طالبًا، قلنا سننظم مظاهرة في نفس المكان، وجهزنا لافتة كبيرة تعبر عن الحق العربي. لكننا فوجئنا بالصهاينة قد جاءوا متأهبين للقتال، انقضوا علينا وانهالوا علينا بالضرب المبرح. كان عددهم أكبر من عددنا ومسلحين، دخل بعضنا المستشفى من الضرب الذي تعرض له. لم ينقذنا منهم إلا البوليس الأمريكي، كنت تشعر وأنت ترى الشر في أعينهم كأنهم يريدون إبادتنا.

لم نتراجع عن دعمنا لقضايانا العربية، وانخرطنا في تنظيم الندوات التي تُعرِّف بالقضايا العربية في الجامعة، ومع الوقت بدأت هذه الندوات تجتذب الكثير من طلبة الجامعة ومن خارجها، وكان أحيانًا يحاضر فيها المناضل الفلسطيني والعروبي الكبير جورج حبش.

* * *

في أغسطس ٢٠٠٨ وبينما كنت مع صديقتي عالمة الآثار العراقية لمياء الجيلاني، ونحن في متحف المتروبوليتان في نيويورك، سألتها إذا ما كانت تعرف شخصًا اسمه يحيى الراوي. أجابت على الفور بأنها تعرفه، فهو متزوج إحدى قريباتها، وأنه يعيش في الأردن، وأن أبناءه يدرسون في واشنطن، وأن له ابنًا يعمل مهندسًا في أمريكا.

وقبل أن تنتهي من حديثها رن جرس تلفونها المحمول، وإذ به ابن يحيى الذي تتحدث عنه. قالت:

- ها هو ذا الشاب على باب المتحف، سينضم إلينا بعد دقائق.

مرت تلك الدقائق بطيئة بعد أن اجتاحتني حالة من الترقب والفرح في آنٍ معًا. عندما اقترب الشاب كأنني رأيت يحيى أمامي، نفس الشكل والملامح. قدمتني إليه صديقتي:

- هذه صديقة والدك في بركلي.

قال على الفور:

- خالة ثريا؟

لا أستطيع وصف سعادتي به عندما نطق «خالة ثريا»، فوجدته شابًّا عربيًّا يخطف الأبصار، لم تُغرِه الحياة في أمريكا على نسيان هويته وأصله العربي، وزادت سعادتي عندما انطلق يتحدث معي بلغة عربية جميلة لم تختلط بمصطلح إنجليزي واحد. دعوت ابن يحيى وصديقتي إلى العشاء في منزلنا، فحضر مشرقًا، يخطو بثقة خالية من الغرور، اندمج في الحديث مع الحضور بثقافة رفيعة، وعرفت أنه مهندس يعمل في مركز التجارة العالمي في نيويورك. الحق أنني انبهرت بذلك الشاب، ورأيت فيه النموذج الذي أتمناه لشبابنا العربي، الواثق والفخور بجذوره العربية، على الرغم من تمكنه من الثقافة الغربية واللغات الأجنبية.

يشغلني كثيرًا موضوع ذوبان الهوية العربية في الثقافات الأخرى، دومًا أتساءل مع الطلاب: لماذا نكتب باللغة الإنجليزية إذا كانت في مقدورنا الكتابة بالعربية؟! إنني أرى انسحاقًا حضاريًّا ضرب طبقة معينة في مجتمعاتنا العربية تعيش فقط بأجسادها على الأرض العربية، لكنها تعيش في عوالمها الخاصة، فلا يتحدث أبناؤها بلغتنا ولا يؤمنون بعاداتنا وتقاليدنا.

هل ألوم نفسي على العمل بمؤسسة أمريكية؟ مما أيضًا فرض عليَّ أن

تكون كل مؤلفاتي العلمية باللغة الإنجليزية. أفكر في هذا الأمر من آنٍ إلى آنٍ ولا أهتدي إلى يقين. لقد فضلت التعليم في جدة قبل أمريكا، ولكن كما سأحكي فيما بعدُ فشلت في المحافظة على وظيفتي. ثم عدت مختارة إلى العالم العربي، ولم أجد لي مكانًا إلا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. كنت أعزي نفسي بالاعتراف بأن مصر هي وطني الثاني، وإن كنت عشت فيها أكثر من وطني الأول.

٧
الغرب والشرق يلتقيان
كلاوس وأنا

منذ أن وصلت إلى بركلي تتردد في أروقة قسم الأنثروبولوجي حكايات أسطورية عن طالب درس في هذا القسم العتيد، وصار أستاذًا في جامعة هارفارد. كنت أتعجب من تلك اللمعة التي تشع من عينَي أستاذتي لورا نادر كلما جاءت سيرته، وكان يحلو لها أن تطلق عليه «تلميذي النابغة». كنت أستشعر بعضًا من المبالغة في الحديث عن ذلك الذي عاش في جنبات بركلي خلال الفترة بين ١٩٦٠-١٩٦٧، حتى حصل على الدكتوراه في نهاية المطاف قبل أن ينتقل ليعمل أستاذًا في هارفارد منذ سنة ١٩٦٧.

في أثناء وجوده في بركلي، تدرب كلاوس كوخ مع لورا نادر ضمن مجموعة من الباحثين في الأنثروبولوجيا القانونية، وتحت إدارتها. كانت أطروحته بشأن شعب جاليه في غرب غينيا الجديدة، هي الأولى في سلسلة أجرتها هذه المجموعة، تمخض عنها كتابه المرجعي «الصراع وإدارته بين شعب جاليه في غرب غينيا الجديدة».

* * *

في أحد الأيام في أوائل سنة ١٩٧٠، وكان قد تبقى على حصولي على الدكتوراه عدة أشهر ألحت أستاذتي لورا نادر عليَّ لأحضر المؤتمر السنوي لعلماء الأنثروبولوجي، حضرت بالفعل، وأظنه كان في شيكاغو في ذلك العام. في المناسبات الاجتماعية التي تُعقد على هامش المؤتمر تعرَّفت على نابغة بركلي،

كلاوس كوخ، ذلك الأستاذ المرموق، ذو الأصول الألمانية، الذي أُعجبت إعجابًا عاديًّا بأبحاثه وأطروحاته ومناقشاته.

عدت بعدها إلى بركلي، ولا يسيطر على تفكيري وجوارحي إلا اجتياز الامتحان الذي يؤهلني للدراسة الميدانية التي أنال عنها الدكتوراه، والذي إذا فشلت فيه فسأحصل على الماجستير وتنتهي دراستي في الجامعة عند هذا الحد. وكلما اقترب موعد الامتحان زاد منسوب خوفي وقلقي الذي يصل إلى حد الرعب في تلك المناسبات. وفي إحدى الليالي القريبة على موعد الامتحان، التي كنت أقضي معظمها في المذاكرة بمفردي في البيت الذي أسكن فيه، إذ بجرس التلفون يرن.

قلت:

- مَن معي؟

قال:

- أنا كلاوس كوخ.

قلت:

- ومَن يكون؟

قال:

- ألا تتذكرين لقاءنا في مؤتمر الأنثروبولوجي؟

تذكرته، على الفور قفز سؤال في رأسي: من أين حصل على رقم تلفوني؟ كان مندفعًا كشلال، جريئًا ومهذبًا في آنٍ واحد. في لمح البصر وجدتني محاصرة به، لم يتح لي فرصة للرد. قال:

- أنا الآن مع مجموعة من الأصدقاء في بوسطن، هطل علينا جليد غير عادي، نظرت إليه وهو ينزل من السماء، ثم تخيلت الصحراء، وعندها مرت أمامي صورتك.

ابتسمت عندما تأكدت أن ذلك الرجل الغربي بدأ وصلة غزل بيَّت لها النية، من دون أن يعلم أنني أنتمي إلى أمة إعجازها في لسانها.

تساءلت في نفسي بحكم دراستي للأدب العربي: هل يمكن أن يكون قد مر عليه قول عنترة بن شداد في تغزله بحبيبته عبلة:

ولقد ذكرتُكِ والرماح نواهلٌ مني وبِيضُ الهند تقطر من دَمي

فَوَدِدتُ تقبيل السيوف لأنها لمَعَت كبارق ثغركِ المُتبسِّم

التقينا بعد ذلك، وحكى لي عن نشأته، فقد وُلد في ١٢ نوفمبر ١٩٣٧ في لوبن، تلك المدينة البولندية الآن، التي كانت ضمن حدود ألمانيا عندما وُلد كلاوس، ومنذ أن احتلها الملك فريدريك الثاني ملك بروسيا في أثناء حروب السيليزيا في منتصف القرن الثامن عشر، أصبحت المدينة جزءًا من بروسيا ثم ألمانيا في سنة ١٨٧١.

كتب الرعاة المحليون من البولنديين الأصليين المتحدثين بلهجة محلية للغة البولندية تقارير عن رعاياهم في نهاية القرن الثامن عشر، حيث تعرض السكان البولنديون الأصليون لألمنة ونشر للثقافة الألمانية مخطط لها، التي استمرت حتى ثلاثينيات القرن العشرين، لكن كل ذلك تغير نتيجة للتغييرات الحدودية التي أُعلن عنها في مؤتمر بوتسدام سنة ١٩٤٥ في أعقاب الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا، حيث أصبحت لوبن جزءًا من جمهورية بولندا.

قاتل والد كلاوس كمجند في صفوف الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية، وأُجبر على ترك زوجته وطفلين - كلاوس أحدهما. كان الأخير في حديثه معي شديد الاعتزاز بوالدته وكفاحها لأجله وأجل أخيه حتى عاد والده من الحرب. لقد قابلت هذه السيدة عدة مرات، كانت سيدة قوية، متمرسة في الحياة التي رأت فيها ظروفًا صعبة، خصوصًا خلال سنوات الحرب.

خلال عامَي ١٩٥٨ و١٩٥٩ درس كلاوس علم الأعراق البشرية وعلم النفس والفلسفة في جامعة بون، وفي العامين التاليين (١٩٥٩ و١٩٦٠) تابع الدورات الدراسية في علم الأعراق البشرية وعلم النفس واللغة العربية في جامعة توبينجن، حيث حصل على درجة البكالوريوس.

كان كلاوس شابًّا فقيرًا، يحلم بالسفر إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته

العليا. اقترض مبلغًا من المال من أحد معارف العائلة، وفر له هذا المبلغ تذكرة للسفر من الدرجة الثالثة على متن إحدى السفن. وعندما حط رحاله في بركلي كانت لديه بعض المعرفة باللغة الإنجليزية، لكنه يجيد الألمانية واللاتينية، فعمل مدرسًا للأخيرة، وهو ما دبر له دخلًا ماديًّا ساعده على استكمال دراسته. في جامعة بركلي تعرَّف على طالبة ألمانية ثرية من أسرة هنكل، التي تمتلك مصانع إنتاج مساحيق التنظيف منذ سنة ١٨٧٦، وتزوجا، ثم انفصلا في وقت لاحق، وعندما التقيته لأول مرة في مؤتمر الأنثروبولوجي كانا منفصلين. استمر في بركلي حتى حصل على الدكتوراه في نهاية المطاف قبل أن ينتقل ليعمل أستاذًا في جامعة هارفارد من سنة ١٩٦٧.

* * *

لم يخطر ببالي قَطُّ أي أمر متعلق بمشاعر أو إعجاب شخصي قد ينمو بيننا في يوم من الأيام، ولكن تكررت اتصالات كلاوس بي. لم أشعر إلا وعلاقتنا قد تحولت إلى صداقة، تطورت إلى حب. كان يمطرني بباقات الزهور التي تأتيني على عنوان البيت الذي أسكن فيه، كان ذلك بالطبع سلوكًا مغايرًا لسلوك أغلبية الرجال العرب في التعبير عن مشاعرهم. كانت باقات الزهور تبهر صاحبة البيت، من ديمومتها ورفعة ذوقها ورقتها، كانت تداعبني بأن مرسلها لا بد أنه «ميت في دباديبي» بالمعنى المصري الشائع.

كنت أشعر بداخل كلاوس ببراكين من المشاعر، لا يمل في التعبير عنها بشتى الطرق الرومانسية والمبدعة والخلاقة في آنٍ واحد، وإن كنت أشعر بعجز اللغة عن استيعاب مشاعره. كنت أصاب بدهشة أعجز فيها عن التفكير من كثرة مفاجآته لي، وهو الأستاذ المرموق في التخصص الذي أدرسه. في تلك الفترة من عمر علاقتنا كنت أشعر بأن هناك حوائط تحول بين ارتباطنا، إذ كانت فكرة الارتباط بغير عربي غير واردة في تفكيري في تلك الأثناء.

لكنه كان قادرًا في كل مرة على إدهاشي وإدخال السعادة إلى قلبي. قبيل الامتحان كنت أجده يركب الطائرة ويمكث في الجو ست ساعات كاملة من

بوسطن إلى كاليفورنيا لمجرد أن يعزمني على العشاء، ويسدي إليَّ بعض النصائح الخاصة بالامتحان، ويؤجر سيارة خصيصًا من أجل أن يطوف بي ربوع كاليفورنيا. ما هذا الفيض من المشاعر الذي كنت أراه ضربًا من عالم الخيال؟! كانت مشاعره ومبادراته تلك تنزل بردًا وسلامًا على قلبي الراجف من الامتحان، وتبعث في نفسي فيضًا من مشاعر الاطمئنان فتُحال الرجفة إلى سَكينة، والخوف إلى أمن، فليس على الدنيا أروع من أن يكون لك حبيب متيم يحيطك بمشاعره المتدفقة وعطائه اللامحدود.

كان كلاوس داعمًا لي بطريقة لا يمكن وصفها، خصوصًا أنه كان متبحرًا في التخصص الذي ينتمي إليه كلانا. الحق أنه كان له الفضل عليَّ بدعمه الذي لم ينقطع لي في مراحل مفصلية من حياتي كامتحان الدكتوراه. قبل امتحان الدكتوراه تحدث إليَّ هاتفيًّا أستاذي جاك بوتر، وهو من المتميزين في الدراسات الأنثروبولوجية التي تناولت المجتمع الصيني. وكان من الفريق الذي سيمتحنني. قال بوتر لي بحنو: «ثريا لو أن لديكِ أي شيء تريدينني أن أشرحه لكِ، على الرحب والسعة». وفي يوم الامتحان أخذني لنزهة بالسيارة كي تهدأ أعصابي، لأنه كان يدرك حجم الرعب الذي كنت أعيشه خوفًا من الامتحان والمناقشة. عندما شعرت بأن الوقت يمر ولم نعُد إلى الجامعة والناس في انتظار المناقشة قال: «لن يستطيعوا البدء من دونكِ ومن دوني». كان يومًا مثيرًا، انتهى باجتيازي الامتحان، وقررت بعدها السفر إلى مصر كي أستعد لإجراء دراسة عنوانها «الدين والأيديولوجية بالمجتمع السعودي».

* * *

في أوائل عام ١٩٧٠ عدت إلى مصر، لكنني لم أجد القاهرة التي تركتها في يناير ١٩٦٧، كانت الهزيمة في حرب يونيو قد نالت من المصريين، تشعر كأن صمتًا رهيبًا يخيم على تلك المدينة التي لا تنام. غابت ابتسامات ذلك الشعب الذي أحبه، وتوارت بشاشتهم وكذلك نكاتهم المشهورون بها، فما معنى الضحك والأرض محتلة؟! كان هذا هو لسان حال الغالبية الكاسحة من الشعب المصري

التي تريد تحرير الأرض، ويقدم أبناؤه دماءهم على جبهات القتال لتحقيق ذلك الهدف.

عشت بعد عودتي متنقلة بين بيت أختي خديجة في الدقي، وبيت أختي منيرة على نيل الجيزة، شعرت بأنني صرت ثقيلة عليهما. لم تكن معي موارد مالية كافية خلال تلك الفترة، شعرت بالغربة مع الأختين، خصوصًا مع محاولتهما التحكم في تصرفاتي: لا تخرجي، لا تسهري، إلى آخر هذه الأمور. كانت خشيتهما في أساسها من أن لهما أولادًا وبنات، وتخشيان أن يقلدوا تصرفاتي التي لا تعجبهما، فحدثت صدامات بيني وبينهما في هذا الخصوص. لكنني كنت أخرج وأسهر مع صديقاتي، وأضع مفتاح الشقة تحت الدواسة الموجودة خارج باب الشقة، اكتشفت أختي خديجة ذلك وكانت معركة كلامية حامية الوطيس.

شعرت بفجوة حضارية وفكرية رهيبة بيني وبين منيرة وخديجة، فأنا عائدة من أمريكا بعد ثلاث سنوات بانفتاحها وهما ما زالتا أسيرتَي التقاليد. لم يكن هناك أي حديث بيني وبينهما إلا لمامًا، وفي الأمور الخاصة بالعائلة فقط، فضلًا عن أنني عدت من بركلي مدخنة شرهة، وهما تريان التدخين فعلًا ذكوريًّا محضًا، مَن تقترفه من النساء متشبهة بالرجال.

في تلك الأثناء كانت لي صديقة عزيزة على قلبي، وكانت من المسلمات القليلات بين صديقاتي في القاهرة - خلال تلك الفترة - وهي أمينة شهاب الدين - متعها الله بالصحة والعافية - شقيقة المخرج السينمائي فؤاد شهاب الدين، وزوجها كان أستاذًا للهندسة. كانت أكبر مني سنًّا وذات شخصية قوية وتتمتع برجاحة في العقل والرأي. تحدثت أمينة مع منيرة وخديجة في أمري. قالت لهما: «إن ثريا إذا خرجت تكون عندها في بيتها، وإن صديقاتنا جميعًا بنات عائلات كبيرة ومحترمة ولا خوف عليها معهن»، فتغيرت المعاملة إلى الأحسن نسبيًّا، فغضتا بعض الطرف عن خروجاتي وسهراتي.

* * *

قبيل منتصف ليلة ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ فُجعنا على صوت أنور السادات يتلو بيانًا على الشعب المصري والعربي من الإذاعة يعلن فيه وفاة جمال عبد الناصر بشكل مفاجئ:

«فقدت الجمهورية العربية المتحدة، وفقدت الأمة العربية، وفقدت الإنسانية كلها، رجلًا من أغلى الرجال وأشجع الرجال وأخلص الرجال، هو الرئيس جمال عبد الناصر».

شعرت بالصدمة لرحيل ذلك الزعيم العربي الكبير، الذي قل فيه ما شئت إلا أنني كنت وما زلت متعلقة به. كنت مشحونة من أمريكا وسياساتها الإمبريالية، وكان عبد الناصر هو الشخصية العربية الوحيدة التي أعول عليها في مواجهة ذلك الاستعمار الجديد.

في يوم جنازته شاهدت في شوارع القاهرة ملايين المصريين الذين زحفوا إلى القاهرة من جميع أنحاء مصر لوداع ناصر في مشهد مهيب لم أشاهد مثيلًا له. كان الحزن عميقًا جراء الرحيل المبكر لذلك الزعيم الذي غادر المسرح عن اثنين وخمسين عامًا. انتزعت الجماهير النعش وحضنته وهتفت في لحن جنائزي عفوي: «يا جمال يا حبيب الملايين». لقد بكيت عبد الناصر مثل أغلبية المصريين. كان بالنسبة إلينا رمز الكرامة والوطنية.

* * *

لم تنقطع خطابات كلاوس لي بعد عودتي إلى القاهرة، الحق أنه كان مندفعًا في عواطفه تجاهي، فيما كنت أنا مترددة، بل إن إنهاء العلاقة كان فكرة تلح عليَّ من آنٍ إلى آنٍ. كنت أقول لنفسي: «لازم أقطع هذه العلاقة، ملهاش معنى»، خصوصًا أنني حتى هذه اللحظة كنت قد قررت استكمال حياتي في السعودية بالدرجة الأولى على أن تتخللها زيارات لمصر التي فيها شطر من عائلتي وصديقاتي المقربات.

من دون مقدمات وجدت كلاوس في القاهرة. كانت زيارة مفاجئة لي، أربكتني، لكننا التقينا، وجعلته يتعرَّف على صديقاتي في بيت خياط، أحبته طنط

نادية جدًّا، بل شجعتني على الزواج منه. في المقابل أذكر أن أمي عندما علمت بوجوده في مصر شعرت بالقلق، لأنها كانت تعرف أنه يعرض عليَّ الزواج، وكانت تعارض تلك الخطوة، وكان ذلك بديهيًّا، فأي أُم عربية مسلمة مكانها كانت ستعارض زواج ابنتها برجل أجنبي، حتى لو قال إنه أعلن إسلامه.

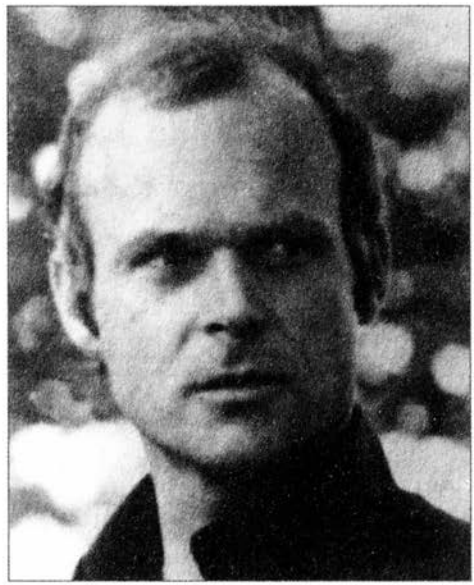

كلاوس كوخ

كنت خلال تلك الفترة محبطة بدرجة كبيرة، وغير قادرة على بدء العمل في دراستي «الدين والأيديولوجية بالمجتمع السعودي»، لكن زيارة كلاوس إلى القاهرة وتشجيعه لي على المضي قُدمًا في إنجازها رفعا معنوياتي، وزادا من حماستي. كانت له مقدرة رهيبة على الإقناع، وبث الحماس في نفسي، كان محبًّا لتخصصه، ومحبًّا لي، ويريد أن يراني ناجحة ومتفوقة، كان ذلك يحفزني ويبث في نفسي روح الإنجاز. لا أظن أن تلك سمة أصيلة في الرجل العربي، الذي لا يعير أمر نجاح زوجته أو حبيبته الاهتمام الكافي في الأغلب الأعم.

بعدها مرض والدي، فرأيت أنه من الأفضل أن أعود إلى جدة، أولًا لأكون بجوار والدي للإشراف على رعايته الصحية، وثانيًا لأبدأ العمل في دراستي. عدت بالفعل، واستمرت المراسلات المتبادلة بيني وبين كلاوس، كما التقينا خلال إقامتي في السعودية مرة في المغرب على هامش حضورنا أحد المؤتمرات.

انغمست في دراستي، وعندما شارفت على الانتهاء منها اقترح كلاوس أن نلتقي في أوروبا للاحتفال بما أنجزته، واستكمال بعض المراجع على هامش زيارتي السنوية للقارة العجوز صيفًا بصحبة عائلتي، ثم بعدها ألح عليَّ في السفر إلى الولايات المتحدة، لإنهاء الإجراءات الأخيرة لتقديم الرسالة.

كنت أرغب في العودة إلى جامعتي في كاليفورنيا، لكنه دعاني إلى هارفارد، حيث يعمل، وقد أُعجبت بأجواء الأخيرة، حيث عرَّفني كلاوس على أستاذ تركي عظيم اسمه نور يالمان، ومما أفتخر به حتى اليوم أنه انبهر بشغلي، ودعاني إلى إلقاء محاضرة في الجامعة، وقال لي يالمان: «عليكِ أن تنتهي من كل إجراءات دراستك، وأضمن لكِ وظيفة في هارفارد».

قضيت فترة مثمرة في هارفارد، التي منحتني وظيفة فيها زمالة بمعهد الشرق الأوسط، الذي يُعتبر أحد أكبر التجمعات وأكثرها تميزًا لعلماء الشرق الأوسط والمسلمين في العالم، ويترأسه المستعرب السير هاملتون جيب.

وجدت في هارفارد أيضًا الدكتور العراقي محسن مهدي، الذي كان نائبًا لمركز دراسات الشرق الأوسط. كان مهدي خبيرًا في الفكر السياسي العربي في العصور الوسطى، وأستاذًا للغة العربية في جامعة هارفارد منذ عام ١٩٦٩.

كما تعرَّفت على العالمة والمستشرقة الألمانية آنا ماري شيمل والدكتور وليم جراهام. كم استفدت من كل هؤلاء الأساتذة الذين عرفني عليهم كلاوس، والذين قدموا لي يد المساعدة بالنصح والمشورة والدعم والعلم. كم أنا ممتنة لهم جميعًا.

* * *

لم يمنحني القدر فرصة الفرحة باستلام وظيفتي الجديدة في جامعة هارفارد،

التي هي قمة الأحلام وسدرة المنتهى لأي أكاديمي في العالم. إذ أرسلت جامعة الملك عبد العزيز تلغرافًا تطالبني فيه بالعودة إلى المملكة لاستلام العمل فيها. كانت هذه الجامعة السعودية قد تأسست في سنة ١٩٦٧ في جدة بصفتها جامعة أهلية، هدفها نشر التعليم العالي في المنطقة الغربية من المملكة. وفي سنة ١٩٦٩ افتُتحت أول كلية في الجامعة (كلية الاقتصاد والإدارة)، وفي العام الذي يليه أُنشئت كلية الآداب والعلوم الإنسانية. وفي سنة ١٩٧١ صدر قرار مجلس الوزراء السعودي بضم الجامعة إلى الدولة، وتحولت بذلك من جامعة أهلية إلى حكومية. وبهذه المناسبة وصل إليَّ تلغراف من إدارتها يدعوني للانضمام إلى أعضاء هيئة التدريس فيها، في سياق البحث عن كوادر سعودية تحمل عبء مسؤولية إطلاق الجامعة الوليدة.

استشرت المحيطين بي. لم يتردد الدكتور العراقي محسن مهدي، الذي كان نائبًا لمركز دراسات الشرق الأوسط في هارفارد، في تحذيري من التفريط في فرصتي في جامعة تُعَد من أهم جامعات أمريكا والعالم بالعودة إلى المملكة. قال بالحرف: «يا ثريا أنتِ لا تعرفين مجتمعاتنا التقليدية، أرجوك لا ترجعي إلى السعودية، سيتعبونك بجمودهم ورجعيتهم».

قلت إن هذا الرجل لا يريدني أن أعود لخدمة بلدي، فهو منحاز إلى تجربته التي ترك فيها العراق، واستقر في الولايات المتحدة. لم أسمع كلامه، كنت مسكونة بحتمية العودة إلى الوطن والإسهام في إعادة البناء والتحديث. على نفس النهج حذرني كلاوس من ترك هارفارد والعودة إلى السعودية. قلت على الفور إن ذلك الرجل أناني، إنه يريدني أن أبقى بجانبه.

إغراء البقاء في هارفارد لم يؤثر في تفكيري وقراري بالعودة إلى بلدي على الإطلاق، بل لم أحتَج إلى وقت لمقاومته، فرجعت إلى السعودية على الفور. كانت تسيطر عليَّ فكرة العمل على بناء الوطن والإسهام في تقدمه، بدليل أنني كنت مع الفريق الذي طرح فكرة عودة الطلاب العرب إلى أوطانهم بعد هزيمة سنة ١٩٦٧. كنت أريد أيضًا أن يراني أهلي وناسي في وضع أكاديمي مشرف،

يجعل كل من انتقدوا والدي لأنه أعطاني فرصة ذهبية للتعليم يعضون أصابع الندم على موقفهم.

عدت في ربيع ١٩٧٢، وتسلمت عملي بجامعة الملك عبد العزيز، التي تضم حرمين جامعيين منفصلين، أحدهما للطلاب والآخر للطالبات، طبقًا لتفسيرات متشددة تدافع عن الفصل بين الجنسين بداعي درء الفتنة. جرى إلحاقي بالعمل في الحرم المخصص للطالبات بطبيعة الحال، وكانت المشرفة عليه السيدة بوران محمد خيري القباني، سورية الأصل، ولم تكن حاصلة على الدكتوراه، بل حصلت على الماجستير في مجال الخدمة الاجتماعية بجامعة كولومبيا في نيويورك.

اتجهت في أول يوم لي في قسم الطالبات إلى مدام بوران في مكتبها. شعرت ببرودة استقبالها لي على الفور، على الرغم من أنها وقفت لاستقبالي، وبادرتني بالقول: «إحنا في انتظارك». شعرت كذلك بقوة شخصيتها، وكم هي مخضرمة في التعامل مع عالم الجامعة بكل عقباته وكل ما يفرضه من تحكُّم في سلوك الطالبات، وفي الوقت نفسه تراعي أن الطالبات ينتمين إلى أسر مهمة في جدة، ولا يجب أن تجلب لنفسها عداوة تلك الأسر.

تحدثت لدقائق معدودة، ثم أشارت عليَّ بأن أذهب إلى رئيسة قسم العلوم الأدبية للاتفاق على المواد التي سوف أدرِّسها. ذهبت إلى حيث مكتب تلك السيدة فلم أجدها، انتظرتها قليلًا ثم انصرفت إلى بيتنا، حيث أقمت مع أمي.

أكثر المُدرسات في قسم الطالبات كن مصريات، معظمهن ذوات كفاءات محدودة إلا استثناءات قليلة كالدكتورة حورية توفيق مجاهد، أستاذة العلوم السياسية بجامعة القاهرة، والتي عملت في جامعة الملك عبد العزيز من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٩. كانت بالجامعة كذلك الدكتورة السعودية سميرة إسلام التي سبقتني في المدرسة الثانوية بالإسكندرية، وهي متخصصة في علم الأدوية وكانت مشغولة في عملها.

الحق أنه في أول فصل دراسي لي بجامعة الملك عبد العزيز لم تعطِني إدارة

الجامعة جدولًا للمحاضرات، لذلك ذهبت إلى بوران القباني لأشتكي لها، فلم تعِرني اهتمامًا. كنت أشعر دومًا بأنه لا يعجبها أنني حاصلة على دكتوراه، فيما هي التي تشغل منصب رئيس قسم الطالبات بكامله معها ماجستير.

كانت أجواء مريبة ومحبطة في آنٍ معًا. كنت أشعر بأن إدارة الجامعة الغارقة حتى أذنيها في تفسيرات متشددة للدين ترى في شخصي ربما خطرًا على الطالبات، باعتبار أنني درست في أمريكا، وتخصصت في مجال الأنثروبولوجي الذي يقول البعض عنه إن مقولته الرئيسية هي «الإنسان أصله قرد»، وهذا مخالف للرؤية الإسلامية لتطور الإنسان.

قتلني الانتظار. في كل يوم يمر عليَّ أخي أحمد يسألني:

- هل هناك جديد اليوم؟

أجيب بأن لا جديد. وكنت أقول لأحمد إنني غير متقبلة فكرة حصولي على راتبي من دون أن أعمل.

كان يرد عليَّ بحنو:

- حبيبتي طوِّلي بالك، هذا بلدنا، أنتِ عدت بدكتوراه في علم هم يتخوفون منه، لا تستسلمي في بداية الطريق.

واجهت أيامًا صعبة في الجامعة التي لم تسند إليَّ عملًا، وزاد من صعوبتها أنه لم يكن لي كثير من الصداقات في جدة، ذلك أنني قضيت جل حياتي بالخارج، سواء في مصر أو الولايات المتحدة. وفي كل مرة أصطدم بالمجتمع المناهض لخروج المرأة في الفضاء العام يجن جنوني. على سبيل المثال احتجت في مرة إلى النقود، وكانت معي شيكات سياحية، فلم يقبل الصرَّاف أن يعطيني مقابلها ريالات، وهو نفس الرفض الذي واجهته مع صرَّاف ثانٍ وثالث. ضاقت الدنيا في وجهي فقررت في لحظة أن أذهب لمقابلة مسؤولين في البنك.

تردد السائق - عم أمين - وقال عندما قلت له إنني سأذهب لمقابلة مسؤولين في البنك:

- ما يصير يا دكتورة!

نبهني عم أمين.

فقلت له وأنا في قمة العصبية:

- يصير، وإنت ما لك شغل بهذا الموضوع!

لم أكن معتادة الاحتداد على ذلك الرجل الطيب الذي نشأت في بيتنا على وجوده، والكل في بيتنا يحترمه.

سلم الرجل أمره إلى الله وتوجه بي صوب البنك، الذي بمجرد دخولي إياه تسمرت قدماي في الأرض، ذلك أنني فوجئت بأن الصالة مليئة بالرجال، ولا توجد امرأة واحدة فيها سواي. للحظة أردت أن أتراجع. لاحظ الجميع وقوفي عند الباب، لكنني عقدت العزم وتوجهت إلى أقرب مكتب. قبل أن أشرع في شرح مشكلتي باغتني الموظف:

- يا أمي ما في سيدات مسموح لها بدخول هذه الصالة.

لم أعِر كلامه اهتمامًا واستمررت في شرح مشكلتي. لم يتفاعل الموظف مع المشكلة التي أشرحها له. خرجت غاضبة من البنك، وتوجهت إلى البيت. كانت الثورة والغضب يسيطران عليَّ. لملمت أعصابي في ظل نظرات الجميع التي أشعرتني بأنني ارتكبت جريمة أو كبيرة من الكبائر!

دخلت غرفة الجلوس، حيث وجدت أمي، تحدثنا في عموميات، ولم أخبرها بمغامرتي في البنك، وإذ فجأة يرن جرس التلفون، وجاءني صوت خالي عصبيًّا:

- إيش سويتِ اليوم؟ هل فعلًا دخلت البنك؟

قلت:

- نعم، دخلت.

رد على الفور:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقفل السماعة.

وهكذا سرى الخبر حتى وصل إلى أهلي.

* * *

كان أخي دائم التردد على إدارة الجامعة للتعجيل بتسليمي مهامي باعتباري أستاذة فيها، وعندما يئست لبست العباءة والطرحة، وتوجهت إلى مكتب مدير الجامعة وأنا في حالة غضب شديد. قلت له:

- أنت استدعيتني بالتلغراف فحضرت إليكم من هارفارد. صار لي أكثر من خمسة أشهر بلا عمل. أرجوك وقِّع هنا على أنك لا تريدني في الجامعة.

انزعج وراح يهدئ من ثورتي. قال:

- إن شاء الله تسمعي كل خير قريبًا.

لكنني لم أسمع منه شيئًا، حتى جرى تغييره، وتولى إدارة الجامعة مدير جديد.

كنت أرى الجامعة لا تختلف عن المدارس الثانوية، نفس المناخ المتشدد والمنغلق، تتابع المحاضرات مثل تتابع الحصص المدرسية، توجد مكتبة لكن لا وقت لدى الطالبات للذهاب إليها، وفي نهاية اليوم يركبن الباصات إلى بيوتهن مثل التلاميذ الصغار. كان كل شيء في قسم الطالبات يخضع لمراقبة قسم الطلاب، فكل المحاضرات والأنشطة في قسم الطالبات تحتاج إلى موافقة سابقة من المسؤولين عن قسم الطلاب. كانوا يبثون المحاضرات تلفزيونيًّا للطالبات من محاضرات الطلاب، وكان من رابع المستحيلات السماح بأن تطأ قدما رجل قسم الطالبات، فلو احتاج الأمر إلى عامل أو فني لإصلاح شيء يتم ذلك بعد انتهاء اليوم الدراسي، كان الأمر أشبه بالحرملك. لم أكن أعرف أي شيء من هذا قبل حضوري من أمريكا.

خلال تلك الفترة سافرت إلى مصر في إجازة، وحضر كلاوس من أمريكا، وقال لي: «من الواضح أنهم لن يسمحوا لك بالتدريس في الجامعة، وسيعملون على تهميشك، وهو وضع أنتِ لن تقبليه بحكم معرفتي بك، وبالتالي عليك ألا تضيعي الفرص المتاحة لك في الولايات المتحدة».

في هذه المرة أخذت كلامه على محمل الجد، بعد ذلك التعنت الذي واجهته من إدارة جامعة الملك عبد العزيز، التي حطمت آمالي في الإسهام في تطوير

وتحديث بلدي. ورجعت إلى السعودية، فذهب أحمد إلى المدير الجديد للجامعة وكان يعرفه شخصيًّا. قال هذا المدير لأخي:

- قل لي يا أحمد، هل أختك الدكتورة ثريا تؤدي الصلوات الخمس؟

قال له أحمد:

- نعم تصلي.

وعندما رجع سألني أخي:

- هل أنتِ ملتزمة في الصلاة يا ثريا؟

لست أدري ما علاقة طبيعة عملي أستاذة في الجامعة بأمر يخصني وحدي مثل الصلاة؟ ورُحت أتساءل: هل أنا مشكوك في ديني ومطعون في بقائي على ملة الإسلام؟ كان أمرًا عجيبًا ما زال يستفزني إلى اليوم.

جاء الترم الثاني، وأعطوني فصلًا فيه ثلاث بنات راسبات في المادة التي سأدرسها لهن. كان يتعين عليَّ أن أترجم كل المنهج، لأن التدريس كان باللغة العربية. كان الأمر بمثابة إهانة أن يُسند إليَّ التدريس لفصل فيه هذا العدد القليل من الطالبات.

في مرة سمعت أن المادة التي أدرسها للطالبات الثلاث لا يوجد في قسم الطلاب مَن يدرسها، فطلبت من المديرة أن أدرسها لهم حتى من خلال التلفزيون، نظرت إليَّ بوران خريجة جامعة كولومبيا كأنني أقدمت على ارتكاب فضيحة أو أمر شائن!

تذكرت كلمات الدكتور محسن مهدي لي في هارفارد، وبالصدفة خلال تلك الفترة جاء مهدي في زيارة إلى السعودية، وزارني في بيتنا بجدة. تعاطف معي جراء ما أعانيه في جامعة الملك عبد العزيز. قال لي:

- أنا مش فرحان فيك يا ثريا، أنا زعلان إنك ما سمعتيش الكلام، وبقيت معنا في هارفارد.

عند هذه اللحظة اقتنعت بأن بقائي في جامعة الملك عبد العزيز مستحيل، ويبدو أن ذلك كان اقتناع إدارة الجامعة أيضًا، فذهبت إلى مكتب مديرها

باستقالتي. لم يخرج لمقابلتي، بل أرسل إليَّ مَن هو دونه. قابلني ذلك الدكتور في ممر بمكتب المدير. قلت له: «هذه استقالتي أرجوك وقِّعها». حاول أن يتظاهر بالرفض ودعاني لإعادة التفكير، لكنني كنت مصرة على موقفي، فوقَّع الرجل وهو خجل.

كانت تلك من اللحظات شديدة الحزن في حياتي، ملأني فيها الشعور بخيبة الأمل، لم أكن أريد التدريس خارج بلدي، كانت السعودية هي خياري الأول للعمل والعيش، لكنهم أجبروني على تركها. تبخرت أحلامي التي حلمت بها مع أخي أحمد في الإسهام في تطوير وتحديث مجتمعنا منذ أيام دراستي في بركلي.

اتفقت مع كلاوس بعدها على أن أعود إلى الولايات المتحدة بحثًا عن فرصة جديدة، وعندما ذهبت لوداع أحمد الذي كان يعاني الحُمَّى قال بتأثر شديد: «من فضلك لا تسافري يا أختي، أنا أعرف أنك لو سافرت لن ترجعي».

* * *

بعد فترة طويلة من تركي جامعة الملك عبد العزيز، تلقيت دعوة كأستاذة زائرة لمدة ثلاثة أسابيع في جامعة الرياض، التي تقع في أرض نجد، التي تنحدر جذور عائلتي منها. كانوا كرماء معي للغاية، حجزوا لي في فندق خمس نجوم طيلة فترة إقامتي، لكنني لم أستطع تناول طعامي في المطعم، لعدم وجود محرم معي!

كانت بالرياض في تلك الفترة كأستاذة زائرة أيضًا الأكاديمية والمترجمة والناقدة الأدبية المصرية الدكتورة فاطمة موسى، والدكتور والمفكر المصري المرموق المرحوم عبد الوهاب المسيري، الذي كان، على الرغم من حصوله على الدكتوراه وشهرته، طالبًا عندي في إحدى المجموعات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولا أدري سببًا لالتحاقه بالدراسة في البرنامج الذي كنت أستاذة فيه وهو الأستاذ المرموق الذي يشار إليه بالبنان. المهم أنه بمجرد أن علم أنني في الرياض قال:

- سأمر عليك يا ثريا.

قلت له:

- يا مرحبًا بالأستاذ الكبير، لنلتقِ في الصالون الملحق بغرفتي.

كان - رحمه الله - يشعر بحرج غير عادي لوجوده معي في هذا الصالون. قال لي: «نحن الآن في خلوة غير شرعية يا ثريا ويجب أن أغادر حالًا. دعيني أقابل الدكتورة فاطمة موسى ولنلتقِ معًا في مكان عام لنتغدى ونشرب قهوتنا على راحتنا»، وهو ما تم طيلة الأسابيع الثلاثة التي قضيتها بالرياض.

كان أخي يعلم أنني محبوسة في الرياض، فيركب الطائرة كل أسبوع من جدة، ليخرج معي ويعزمني على الغداء، ويعود إلى جدة في آخر النهار. لقد قدم لي أحمد دعمًا غير محدود خلال تلك الفترة، وطيلة حياته.

كنت أدرِّس لمجموعة رائعة من طالبات الدراسات العليا في جامعة الرياض، منهن مَن كانت صحفية وشاعرة، وكان ذلك من دواعي ابتهاجي وسروري في الفترة القصيرة التي قضيتها هناك.

تعرَّفت كذلك على رئيس قسم الاجتماع في جامعة الرياض، الذي نظم حفلًا في منزله دعا إليه أساتذة القسم وكلهم رجال. ثم أخذني بالسيارة من الفندق، ولم يكن مستريحًا، كان متحرجًا من جلوسي بجانبه في الكرسي الأمامي. لم أنتبه لعدم لياقة هذا الوضع. وفي بيته سعدت بلقاء زملاء عدة حدثوني عن أحوال القسم، وما يرونه فيما يتعلق بمستقبل القسم في جامعة الرياض. عند العودة جعلني أجلس في الكرسي الخلفي، وقاد هو السيارة، ومضى الحفل على خير.

* * *

بعد فشل تجربتي في جامعة الملك عبد العزيز عدت إلى الولايات المتحدة. صرت أتنقل بينها وبين جدة والقاهرة، في تلك الأثناء أعلن كلاوس إسلامه في جمعية إسلامية اسمها «الفرقان»، أسسها عدد من الطلبة المسلمين والعرب في جامعة هارفارد. وعقب إشهار إسلامه زار كلاوس السعودية لأداء مناسك العمرة، وزارنا في بيتنا في جدة، وقابل أخي أحمد، وحدث أن نفر منه الأخير، لم يتقبله، اعتبره شخصًا أوروبيًّا متعاليًا، وفيه شيء من العنصرية.

مضت بضع سنوات وموضوع زواجنا معلق، على الرغم من أن كلاوس بإعلان إسلامه أزال عقبات كثيرة كانت تقف حائلًا في طريق إتمام الزيجة. وفي سنة ١٩٧٦ عملت في جامعة نورث وسترن، وفي أواخر تلك السنة قررنا الزواج. طرحت الأمر مجددًا على أخي، الذي صار كبيرنا بعد وفاة أبي، إلا أن موقفه كان صلبًا وثابتًا في رفض زواجي من أجنبي.

مرة أخرى، أظهرت لي مسألة زواجي ذلك التناقض الكبير في عقلية بعض الرجال العرب، بإقدام أخي التقدمي الذي تعلم وعاش ست سنوات في بريطانيا على ضربي وإهانتي في مواجهة معه. ما زلت أستغرب تمسكه برأي أبي المتمثل في حتمية زواجي من أحد أبناء عمومتنا، فإذا تعذر فليكن من أي رجل نجدي آخر مناسب.

كان التنافر المتبادل بين أحمد وكلاوس يؤرقني على نحو خاص، وإن اكتشفت فيما بعد أن رأي أحمد في زوجي كانت فيه ظلال من الوجاهة، يخفيها ذكاء كلاوس وقدرته على المجاملة وتفهم الاختلاف الثقافي بين الناس بحكم أنه عالم أنثروبولوجي.

بصرف النظر عن رأي عائلتي قررت إتمام زواجي، كان أبي قد تُوفي، وهو الوحيد الذي كنت سأرفض لأجل خاطره الزواج من رجل اخترته بصرف النظر عن جنسيته، حتى لا أعرِّضه لحرج أمام أحد، وهو الذي غامر بسمعته منذ البداية من أجلي بسماحه لي بدخول الجامعة، ثم بالسماح لي بالسفر إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراستي.

اتفقنا - كلاوس وأنا - على أن نتمم مراسم الزواج في لندن، التي كانت فيها خلال تلك الفترة أختاي منيرة وخديجة وأبناؤهما. زرت كل واحدة منهما في بيتها، وطلبت منهما الموافقة على زواجي وحضور مراسمه، إلا أنني وُوجهت برفضهما حتى مجرد الحضور احترامًا لرأي أخي المعارض للزيجة، وكذلك فعلت أمي، التي كانت تعلم بموعد زواجي فامتنعت عن الحضور إلى العاصمة البريطانية، حتى لا تجد نفسها في موقف لا تُحسد عليه بين ابنها وابنتها.

لم أجد أمامي إلا بعض صديقاتي للوقوف بجواري في مراسم الزفاف. أقام كلاوس في الفندق، وأقمت أنا عند صديقة لي اسمها رندا عسيران من لبنان، ما زلت أشعر بالامتنان لرندا - رحمها الله - التي عوضت جزئيًّا غياب أهلي وتخليهم عني في تلك المناسبة التي تحتاج فيها الفتاة إلى عائلتها.

بعد أن أنهينا إجراءات الزواج المدني، جاء الدور على مراسم الزواج الشرعي في المسجد. يحتاج الأمر إلى شهود، هنا تدخلت رندا بعلاقاتها، كان لها صديق اسمه هشام السعيد، هو سليل عائلة سياسية عراقية شهيرة، فجده هو نوري باشا السعيد، رئيس وزراء العراق الأسبق، فدعته وبعض أصدقائه العرب لحضور مراسم الزواج الشرعي، فحضر وكان لطيفًا وذا شخصية مرحة، خففت عنا الكثير من كآبة اللحظة في ظل مقاطعة أهلي لمراسم عرسي.

انضمت إلينا أيضًا في ذهابنا إلى المسجد صديقة لي منذ أيام الدراسة في الإسكندرية، تنتمي إلى عائلة الغانم الشهيرة في الكويت. الحق أنني كنت على وشك الانهيار في أثناء عقد القران لشعوري بالوحدة على الرغم من أن خديجة ومنيرة وأبناءهما على بعد خطوات مني. ما ضاعف من ضيقي أن المسجد كان فيه بعض الإصلاحات، وأسلاك الكهرباء مبعثرة، وأصوات الدق والتكسير تحيط بنا من كل جانب، ما خفف من هول تلك اللحظات خفة ظل حفيد نوري السعيد.

بعد عقد القران، نظمنا حفل عشاء في أحد المطاعم، حضره نحو ٣٠ من أصدقائنا العرب في لندن، وأخبرت أختيَّ بعنوان المطعم، وطيلة السهرة كانت عيناي مصوبتين تجاه الباب، على أمل أن أجد إحداهما قد رق قلبها وأتت للوقوف بجواري في يوم عرسي، لكن ذلك كان ضربًا من الخيال والتمني.

في اليوم التالي لزفافنا كان مقررًا أن نسافر في الصباح الباكر إلى القاهرة، حيث سيتوجه كلاوس منها إلى السودان لإجراء دراسة هناك، وسأقيم أنا مع أمي وصديقاتي ومجتمعي في القاهرة. قررت أن أمر على أختي خديجة، ولذلك في أثناء توجهنا إلى المطار قلت لكلاوس: «سأمر على خديجة لوداعها قبل سفري.

انتظرني مع الحقائب في السيارة حتى أعود إليك ونكمل طريقنا إلى المطار». صعدت إلى أختي، فوجدتها في حالة صحية سيئة، ووجهها منتفخًا من آثار حزنها على عدم حضور حفل زفافي.

هرولت عائدة إلى كلاوس. قلت له: «إن أختي مريضة ولن أستطيع أن أتركها وأترك أولادها وهي في هذه الحالة. سافر أنت وسأبقى أنا معها، على أن ألحق بك عندما تتحسن حالتها». مضى بالفعل إلى سفره، وإن بدا عليه الضيق الشديد. ورجعت إلى خديجة، ففرحت وبدأت في الأيام التالية تتعافى. الطريف أنه بعد أن صارت وكلاوس صديقين قالت لي: «بالتأكيد أنه هو مَن حثك على البقاء بجواري وأنا مريضة، هذه مبادرات لا تخرج منك»، وضحكنا.

* * *

في سنة ١٩٧٧ انضممت إلى أعضاء هيئة التدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقدم زوجي أيضًا فيها للعمل في نفس القسم. من حسن الحظ أنهم وافقوا على انضمامه إلى التدريس في الجامعة.

عشنا في القاهرة مع أمي في البداية، كانت تسكن في شقة بجوار السفارة الروسية على النيل. كانت علاقة كلاوس مع أهلي جميعهم كجبل الجليد الذي بدأ يذوب شيئًا فشيئًا مع معظمهم. كان أول احتكاك مباشر له مع أمي التي نعيش معها. كانت تقول لي في البداية:

- كيف أسلم زوجك يا ثريا وهو لا يصلي؟

قلت:

- وهل كل المسلمين يصلون؟ أنا مسلمة يا أمي ولا أصلي.

كانت لديها قناعة بأنه مختلف جدًّا عنا، أسلم لكنه لا يشاركنا أشياء كثيرة، كنت أعذرها في حكمها المبدئي عليه. كان كلاوس شخصية غريبة ومتقلبة أحيانًا، تراه مع بعض الناس منفرًا ومتعاليًا وجافًّا، ومع آخرين شديد الحنو والرقة والعذوبة مع سعة لانهائية لصدره.

كانت أمي من الذين حرص كلاوس على الاقتراب منهم، ونجح في ذلك بالفعل، كان يجيد بعض العربية، مما سهل التواصل نسبيًّا بينهما. كان يأخذها كثيرًا إلى قصر الأمير محمد علي بالمنيل بحدائقه الغناء وأشجاره النادرة، يأخذ بيدها ويسندها في سيرها، الذي كان ضروريًّا لتحسين صحتها. كان كلاوس شديد الاهتمام بشؤونها، يجهز لها دواءها ويعطيه لها في مواعيده، ويحكي لها بعض الحكايات بلغته العربية المكسرة. وأمي كانت ذكية وتفهم المقصود من تلك الحكايات المشوقة.

لم يكن هناك احتكاك كبير بيننا وبين أختيَّ إلا في بعض الإجازات، فخديجة زوجها كان سفيرًا للسعودية في إيطاليا، وتقضي معظم العام في روما، ومنيرة الكبيرة كانت مريضة، وزوجها صار سفيرًا للمملكة في إثيوبيا، وظل أحمد على جفائه مع كلاوس.

أختي منيرة على اليسار وأنا، في حديقة السفارة السعودية بإثيوبيا

بعد استلامنا العمل في الجامعة الأمريكية انتقلنا للعيش في شقتنا الخاصة بحي المهندسين، وفي يوم طلبتني أمي وقالت: «لقد عزمت أبناء عمكِ على الغداء ولا بد أن تحضري أنت وزوجك لاستقبالهم معي». حضروا وبدأت أضيِّفهم، لكنني لاحظت أنهم يتعاملون مع كلاوس بطريقة فيها نوع من السخرية، فقررت إيقاف ذلك التنمر غير المبرر ضد زوجي بعدم حضور أي فعاليات عائلية أشعر بأن طرفها الآخر لن يتعامل بالاحترام الذي يستحقه كلاوس ذو المكانة الأثيرة في نفسي، والمكانة المرموقة في أي مجتمع يحل فيه.

أنا في بداية مسيرتي التدريسية بالقاهرة

* * *

حقق كلاوس شعبية جارفة في الجامعة الأمريكية على مستوى الأساتذة والطلاب، كان محبوبًا جدًّا وداعمًا للجميع، وكان الطلاب يقبلون على محاضراته الثرية بالمناقشة والتفكير الحر. كما انخرط في دوائر أصدقائي في القاهرة، وأقبل الجميع عليه وأحبه.

كانت البناية التي نسكنها في المهندسين مؤلفة من ثلاثة طوابق، في الثالث كان يسكن أحد الموظفين في إدارة الجامعة الأمريكية، وزوجته التي كانت أستاذة في جامعة حلوان. حدث أن مرض ذلك الجار، واضطرت زوجته إلى سفر مفاجئ، وقبل أن تغادر مرت علينا وقالت: «من فضلكما اطمئنا على زوجي من حين إلى آخر».

تذكر كلاوس ذلك وقرر الصعود إلى شقة جارنا في الطابق الثالث، ثم لحقته بعدها بعشر دقائق. حدث أن نسينا مفتاح شقتنا، وبمجرد رؤيتي له سألته:

- معاك المفتاح؟

قال:

- لا.

ثم توجه إلى البلكونة يبحث عن طريقة ينزل بها إلى شرفتنا، حاولت منعه لكنه عاند ورفض. في ثوانٍ معدودة اختل توازنه وسقط في الشارع، ففاضت على الفور روحه إلى بارئها. كان ذلك قبل عيد ميلاده الثاني والأربعين بيوم واحد. هرولت إلى الشارع وأنا غير مصدقة ما يجري، أخذوه إلى المستشفى، ولما تأكدت من وقوع الوفاة أخذني بعض الأصدقاء إلى بيت أختي منيرة بالجيزة. كانت أصعب لحظات حياتي قاطبة تلك التي فقدت فيها كلاوس، لا يمكن تصور ذلك الحلم الذي تبخر في غمضة عين ومن دون مقدمات.

كان لا بد من نقل جثمانه إلى ألمانيا، وإخطار والدته. كان لدينا في الجامعة الأمريكية أستاذ يجيد الألمانية، تولى مع إدارة الجامعة مسألة نقل الجثمان، وسافرت معه أنا وأخي أحمد الذي حضر على الفور من السعودية كما حضرت أختي خديجة من روما.

وصلنا إلى ألمانيا مع الجثمان، كنت في حالة انهيار كامل، تضاعف عندما قابلت أمه المكلومة عليه، وهي التي ربته بعد أن ذهب والده للقتال مع الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية. كان اللقاء بوالدته في هذا الظرف صعبًا وقاسيًا.

قال لها أحمد: «اعتبريني ابنًا لك، وكل ما تحتاجين إليه نحن نلبيه لك».

كانت السيدة في حالة صدمة مروعة لفقدان ولدها، كان لها ابن آخر يكبر كلاوس، ويعمل في جنوب أفريقيا، ولذلك قاطعه زوجي لتعاونه مع نظام الأبارتيد العنصري. كما حضرت مراسم الجنازة زوجة كلاوس الأولى وأصدقاؤه وأفراد من عائلته.

أيُّ تيه شعرت به بعد فقدانك يا كلاوس؟ أيُّ وداع سريع ودعتني به من دون مقدمات؟ ما زلت حتى اللحظة أعتب عليك، أيعقل أن يفارق الحبيب حبيبه هكذا فجأة؟ في غمضة عين يخلع قلبه ويمضي؟ ألم أقل لك مرارًا إنني لا أطيق لحظات الوداع؟

* * *

أخذني أحمد إلى لندن، مكثت هناك فترة حتى غادر هو إلى السعودية، وتوجهت أنا إلى خديجة في روما، ثم عدت بعدها إلى القاهرة. حكى لي زملاؤنا كيف كان حزن الطلاب والأساتذة كبيرًا على رحيل كلاوس الفاجع والمفاجئ، إلى درجة أن طلابه ارتدوا الأسود حدادًا عليه. وهو ما يدحض بعض الشائعات العارية من الصحة، التي كانت تقول إنه ربما كان يعمل لجهاز مخابرات معادٍ لمصر، وهو كذب وافتراء. وكانت هناك شائعة أنه كان مخدرًا بالشراب ولذلك فقد توازنه، كم يفرز النجاح من أعداء!

مكثت نحو ٤٥ يومًا وأنا غير قادرة على الذهاب إلى الجامعة من هول الصدمة والحزن والفجيعة. الحق أن زملائي وزميلاتي قدموا لي دعمًا كبيرًا، وزعوا المواد التي كنت أدرِّسها عليهم، كما استضافتني في بيتها لمدة ثلاثة أسابيع زميلتي الأستاذة ناهد عسيران التي كانت تدرس علم النفس معنا في الجامعة، وحاولت بشتى الوسائل التخفيف عني.

كان الحزن عميقًا، والجرح غائرًا، والسقوط في ظلمات الفقد لانهائيًّا، اكتشفت أن ذلك الذي تحديت أهلي لأجله يسكنني. كنت في مرات أقول إنه يحبني أكثر مما أحبه، لكنني اكتشفت أن ذلك هراء بعد أن فقدته، كان ابن موت كما يقولون.

راجعت شريط حياتي معه، فوجدت كم كان داعمًا لي، على الرغم من الاختلاف الكبير بيننا، هو منظم وأنا فوضوية، أترك الأوراق مبعثرة بعد انتهاء عملي، وأصحو من نومي أجدها مرتبة بطريقة أفضل مما لو كنت قد رتبتها بنفسي، هو يقبل على العمل بنهم وأنا أعمل بتكاسل في بعض الأحيان، كان يشد من أزري، يأخذ بيدي، يشجعني، كان قويًّا جسورًا، لا أذكر أنني شاهدته في موقف ضعف على الإطلاق. كان ذكاؤه حادًّا، وعلمه وحنانه بحرًا بلا شطآن.

هكذا كان زوجي الراحل، عندما كنت أُصاب بالملل من التحضير للدكتوراه يحمسني ويشجعني، ويقول لي إنك على بُعد خطوة وحيدة من مجد كبير، فيشحذ ذلك عزيمتي ويجعلني أنخرط في العمل والتحضير لنيل هذه الدرجة العلمية المهمة.

بجانب الدعم الكبير لي في دراستي وعملي دللني كلاوس كما لم يدللني أحد قبله، إذا طلبت لبن العصفور يحضره لي. كان كريمًا في مشاعره، وإن بدا في بعض الأحيان غير قادر على التعبير عنها. لم أكن معتادة ذلك الكرم الحاتمي في المشاعر، لقد علمني بتصرفاته معي التعبير الراقي عن المحبة والاحترام. أذكر أننا في مرة كنا في جولة آسيوية، وأنا بطبعي أحب المجوهرات، وفي أثناء تجولنا في تايلاند تحديدًا ظهر أمامي خاتم وحلق، لم يكن معي من مال يكفي إلا لشراء قطعة واحدة منهما. قال: «اشتري الحلق». وهو ما فعلته.

انتقلنا من تايلاند إلى الهند، وهناك أقمنا في فندق تاريخي فخم، ما زال يحتفي بالتقاليد الإنجليزية العتيدة، ففي الخامسة فجرًا يمر العاملون على الغرف لتوزيع الشاي الإنجليزي الشهير. كان سبب زيارتنا إلى الهند أن لديه طالبًا في دولة نيبال المجاورة والممنوع على الأجانب دخولها إلا بعد جهود مضنية، لكن ذلك الطالب نجح في أن يحصل لكلاوس على تأشيرة. كانت زيارة بلد مغلق بالنسبة إليه باعتباره أنثروبولوجيًّا محترفًا ورحالة متيمًا بالسفر فرصة لا يمكن أن يرفضها، كانت الأعاصير تهب على الهند في ذلك الوقت. كان عليَّ أن أنتظره بمفردي عدة أيام حتى يعود.

كنت حزينة لأنه سيتركني خمسة أيام بمفردي، وأنا بطبعي شديدة الخوف، وسأبقى محبوسة في الفندق إلى أن يعود بسبب تقلبات الطقس. صحا من نومه مبكرًا، وحرص على عدم إيقاظي وسافر إلى نيبال. بعد استيقاظي حاولت ترتيب السرير، وإذ بي أجد صرة فتحتها وأفاجأ بالخاتم الذي تعلقت عيناي به في تايلاند ملفوفًا فيها، ومعه رسالة تقطر حبًّا ومشاعر راقية جياشة.

تعلمت من كلاوس التمسك بأعلى درجات الأمانة العلمية، وهو ما ساهم في ارتفاع جودة نتاجي العلمي، كما كانت له طرقه المفيدة في حثي على الإنجاز. كان يجبرني على أن أدخل حجرة، وأقفل على نفسي فيها طيلة أربع أو خمس ساعات لأكتب أو لأراجع ما كتبت، وكان ذلك يساعدني إلى أبعد مدى على الإنجاز، حتى صارت هذه العادات جزءًا من تكويني حتى الآن.

كان كلاوس يكره اللون البني، لأنه كان اللون الموحد للحزب النازي في ألمانيا، وكانت المنظمة شبه العسكرية النازية ترتدي الزي البني، وتُعرف باسم «البنطلونات البنية». كما استُخدم اللون البني لتمثيل التصويت النازي على خرائط الدوائر الانتخابية في ألمانيا، إذا صوَّت شخص ما للنازيين، قيل إنهم يصوتون بنيًّا. وكان المقر الوطني للحزب النازي، في ميونيخ يُسمَّى «البيت البني». واستيلاء الحزب النازي على السلطة في سنة ١٩٣٣ كان يُسمَّى «الثورة البنية».

لكل ما سبق لم يكن كلاوس يرتدي الزي البني، ولا يضع أي قطعة أثاث في البيت من اللون البني، يدين الديكتاتورية، ودائمًا كان يقول لي:

- أنتِ تبالغين في عروبتك.

كانت لديه مشكلة مع الشعور القومي الزائد، ويعتبر ذلك نوعًا من الشوفينية التي نادى بها هتلر.

كنت أرد عليه بسؤال:

- ماذا سيكون شعورك لو حكم الفرنسيون بلدك؟

كان يرد عليَّ بقوله:

- لو أنهم سيحكمون بشكل أفضل من الألمان سأكون مؤيدًا لهم!

فُجعت من هذا الرد. ولم أوافق عليه ولم أتقبله.

لم أستطع أن أتفهم وجهة نظر كلاوس فيما يخص الشعور القومي، لكنه في العموم كان يكره الاستبداد والديكتاتورية، فكما ذكرت سابقًا قاطع أخاه لأنه عاش في جنوب أفريقيا في ظل نظام الأبارتيد العنصري.

كان شديد الحب للأطفال. كانت صديقتي ناهد عسيران تزوجت في كندا، وأدخلت ابنتها مدرسة ألمانية عندما عادت للعيش في مصر، فتبنى كلاوس البنت، وكل يوم يقابلها ويعزز ثقافتها ولغتها الألمانية. وفي يوم كان والد البنت على سفر، وأُصيبت الطفلة بارتفاع في درجة الحرارة، رأينا ناهد مجهدة للغاية، قال لها: «اذهبي للمبيت مع ثريا وسأجلس أنا بجوارها»، وبات معها ومرَّضها وعمل لها كمادات حتى انخفضت الحرارة.

قررنا قبل فترة قصيرة من وفاته أن ننجب أطفالًا، وبعد وفاته بعدة أشهر ذهبت إلى شقتنا التي لم أكن أطيق دخولها بعد رحيله. فتحت الدولاب فوجدت أنه قد اشترى ملابس لطفلنا الذي كنا نتوق إليه، ولم يُكتب له المجيء.

٨

الانطلاق من رحم الأحزان

عامان مضيا على وفاة كلاوس عشت فيهما كل معاني وجع البعاد، مضى عامان وما زالت روحي مسكونة به، وصورته تلاحقني في صحوي وفي منامي، لكن من قلب المحن تولد المنح. كانت المنحة الكبرى بالنسبة إليَّ متمثلة في الدعم اللامحدود الذي قدمته عائلتي لي، لم أشعر بأنني كنت قريبة منهم يومًا بقدر شعوري في تلك اللحظة المشحونة بالألم. فلم يحُل رفضهم زواجي منه دون تقديم الدعم لي بعد رحيله المفاجئ والصادم في آنٍ معًا.

كذلك كان هناك حب واحتضان واحتواء لي من جانب الكثير من الأصدقاء والزملاء في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. لن أنسى ما حييت كل يد حانية امتدت إليَّ في هذا الظرف العصيب، من دون مجموع كل تلك الأيدي لا أظن أنه كان بمقدوري عبور تلك المحنة. كنت أحاول الهروب من تلك الليالي الطويلة والحالكة بالكتابة، نعم الكتابة التي كان يحضني كلاوس عليها، ويغلق عليَّ الأبواب لأتفرغ لها وأمارسها بانتظام، حاولت بقدر ما أوتيت من جهد الانتهاء من دراسة كنت أجريها في ذلك الوقت، لكن المهمة كانت عسيرة، فما زلت أجمع شتات نفسي.

وافقتني أسرتي على ضرورة بقائي في القاهرة لاستكمال مسيرتي الأكاديمية، لكنهم أرادوا أن يبعدوني عن الشقة التي عشت فيها مع كلاوس بحي المهندسين والتي تحاصرني فيها الذكريات، فذهبت للسكنى مع أختي في الدقي. وشيئًا

فشيئًا وجدتني أعود إلى الحياة مرة أخرى بعد جهود كبيرة بذلها الأهل والأصحاب.

حدث بعد ذلك أن جاءت أمي من جدة لتعيش إلى جواري في القاهرة. اشترت شقة في نفس البناية التي تسكن فيها أختي، فعشت مع أمي، وهنا شعرت بأجواء عائلية افتقدتها منذ زمن، فأمي معي في نفس الشقة وبجوارنا أختي، وأخي يمر علينا من حين إلى حين. صارت شقتنا مقصدًا للصديقات اللاتي أحببن أمي كثيرًا وأحبتهن. مع مضي الأيام وشعوري بدفء أمي وعطفها اشتد عودي.

احتضنتني صديقتي ناهد بعد هذه الكارثة، أخذتني إلى بيتها حيث سكنت معها قرابة شهر وكانت تواسيني وترعاني، وحتى بعد عودتي إلى منزلي كانت تزورني باستمرار، وفي الصيف بعد الوفاة سافرت معي إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتكون بجانبي وتشد أزري. وكذلك صديقتاي الدكتورة نادية طاهر والأستاذة وفاء عبد الحميد.

كانت نادية تلميذة عندنا في القسم وتميزت بشخصيتها القوية وذكائها الشديد. وكانت صديقة لناهد وأصبحت مع الوقت صديقة لي. وكانت طالبة عند كلاوس. وكان الدرس الأخير لكلاوس قبل وفاته يضمها مع قليل من الطلبة. كان كلاوس يقرأ بحثًا لها عندما دخلت عليه وطلبت منه أن يصاحبني لزيارة جارنا. أُعجب كلاوس ببحثها وكتب لها على البحث أنها لو أرادت السفر إلى أمريكا لمتابعة الدراسات العليا سيساعدها، وبعدها فارق الحياة. تعاطفت نادية معي من دون حدود، وكثيرًا ما كانت تمر عليَّ بالسيارة لنذهب في نزهة على ضفاف النيل، مما خفف عني ما كنت فيه من حزن. وانطلقت نادية إلى العالم الأوسع فحصلت على الدكتوراه من جامعة لندن ثم درَّست فيها. سافرت إلى بلاد كثيرة ولكنها عاشت في لندن، ولم تتخلَّ قَطُّ عن صداقاتها ومن ضمنها أنا.

ولا أنسى هنا صديقتي الحبيبة وفاء عبد الحميد. كانت تعمل معنا في القسم، وتولت متابعة معاملات كلاوس العلمية، وكان معجبًا بدقتها واهتمامها الشديد

بعملها. وهي الأخرى أُعجبت بتنظيم عمله ودقة متابعته. وهكذا نشأت الألفة بيننا. بعد وفاته التحمت صداقتنا، وكنت أئتمنها على ساعات الحزن التي تمر بي عند عودتي إلى العمل، وتسهل لي متابعتي مع الجامعة. لم نتقابل خارج الجامعة كثيرًا، ولكن عندما أحتاج إلى أن أفضفض عن أحزاني ومشكلاتي فكانت تلتقي بي خارج الجامعة لقضاء الوقت معًا. كم أنا شاكرة لدعمها ولصداقتها. يحزنني أننا لم نعد نتقابل. تركت الجامعة وعاشت بعيدًا عني، وزادت مسؤولياتها الأسرية فقلَّت لقاءاتنا. ولكن آمل أن نتخطى هذه العقبات ونحيي صداقة أعتز بها وشخصية نادرة قلما يلتقي الإنسان بمثلها.

* * *

ذات يوم من سنة ١٩٨٠ كنت في مكتبي بالجامعة الأمريكية بميدان التحرير، وإذ برجل وسيم لا أعرفه يدخل عليَّ وفي يده طفل صغير في حدود السادسة أو السابعة من عمره. سألني:

- أأنتِ الدكتورة ثريا التركي؟

قلت:

- نعم.

قال:

- أنا الدكتور شاهرخ أستاذ أمريكي من أصل إيراني، وصديق لصديقك الدكتور مايكل فيشر، الذي عملتِ معه في هارفارد. لقد قابلته وهو يجري دراسة في إيران سنة ١٩٧٥. قال لي: «بمجرد وصولك إلى القاهرة اذهب إلى الدكتورة ثريا وستقدم لك كل الدعم المطلوب لإنجاز دراستك التي تعتزم إجراءها في مصر عن عمَّال مصنع الرشيدي الميزان».

بالتدريج توطدت علاقتي بشاهرخ، تعارفنا وحكى لي عن زوجته التي تُوفيت بعد سنتين من ولادتها الطفل الذي كان بيده عندما زارني، فصارت تربية ذلك الابن واحدة من المهام التي يقدسها شاهرخ، حيث ألحقه بإحدى المدارس في الزمالك، وفي نفس الوقت يجري دراسته بمصنع الرشيدي في حي السيدة زينب.

تقاربنا لأنه لم يكن لكلينا غير الذكريات، كنت أحكي له أوقاتًا طويلة عن ذكرياتي في حياتي الماضية. كنت محظوظة أنه كان - ولا يزال - مستمعًا جيدًا، ولا يقاطعك ويتفهمك ويمنحك دعمًا نفسيًّا كبيرًا، هكذا هو إلى اليوم. استمر شاهرخ في القاهرة طيلة عام كامل غادر بعدها إلى الولايات المتحدة، لكن صداقتنا لم تنقطع.

* * *

في خريف سنة ١٩٨١ عاشت مصر حدثًا جللًا، وهو اغتيال الرئيس أنور السادات يوم ٦ أكتوبر خلال عرض عسكري احتفالًا بنصر حرب ١٩٧٣. في اليوم التالي لاغتيال السادات كانت عندي لمة أصدقاء على العشاء، كانت عزومة مخططًا لها قبل حادثة الاغتيال. الحق أنني لم أشعر بحزن لرحيل السادات، لم أشعر قَطُّ بتعاطف معه. كنت أشعر تجاهه بالمزيد من المشاعر السلبية منذ أن وقف في مجلس الشعب يلقي خطابًا في ٩ نوفمبر ١٩٧٧ وقرب نهاية الخطاب قال: «أنا أقول فعلًا مستعد أن أذهب إلى آخر هذا العالم، وستُدهش إسرائيل حينما تسمعني الآن أقول لا نرفض. إنني مستعد أن أذهب إلى بيتهم إلى الكنيست ذاته ومناقشتهم».

لم نأخذ الأمر وقتها على محمل الجد، لكن على إثر ذلك الخطاب بعث رئيس الوزراء الإسرائيلي، مناحيم بيجن، دعوة رسمية يوم ١٥ نوفمبر إلى السادات لزيارة القدس، وقبِل السادات الدعوة، وتحددت الزيارة مساء السبت ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ الموافق لوقفة عرفات.

كان العالم كله مشدوهًا، والناس في كل أنحاء المعمورة يشاهدون الرحلة المثيرة لرئيس أكبر دولة عربية وهو يزور إسرائيل، وعلى وقع الأعصاب المتوترة من فعل الصدمة، أعلن وزيران للخارجية المصرية استقالتيهما قبل بدء الرحلة. استقال الوزير إسماعيل فهمي في أثناء وجود السادات في دمشق يوم ١٧ نوفمبر ١٩٧٧، واتصل النائب حسني مبارك بالرئيس في دمشق وأبلغه الخبر، فطلب منه الرئيس أن يقبل الاستقالة على الفور، وأن يتولى السفير محمد رياض، وزارة

الخارجية، ولكنه أعلن استقالته هو الآخر. ولم يجد السادات إلا أن يختار بطرس غالي، وزير الدولة للشؤون الخارجية، لكي يكون ضمن الوفد المرافق له إلى القدس.

يوم وصول السادات إلى القدس واستقبال جولدا مائير وموشيه ديان وكل أعداء العرب له، أُصبت بهذيان من أثر ما يحدث، لم أستوعب الحكاية من الأساس، كان رد فعلي أن هناك ثورة ستندلع في مصر نتيجة لهذه الزيارة المشؤومة. يوم حطت الطائرة التي تقل الرئيس المصري في القدس كنت عند صديقة لي تجمع عندها الكثير من الأصدقاء لمتابعة هذا الحدث الجلل. كاد الجنون يمس كل واحد فينا، من فرط الإحباط. نعم، تصورنا جميعًا أن تلك اللحظة ستتسبب في قيام الشعب المصري بثورة ضد السادات، لكن الأمور تطورت إلى ما هو أكبر من الثورة، تطورت إلى اغتيال الرئيس نفسه.

كنا مجموعة من المثقفين الذين تجمعهم شلة واحدة، وينتمي أغلبنا إلى الفكر اليساري، وهو ما جعلنا نعيش حالة إحباط لانهائية بفعل ما أقدم عليه السادات. مرة نقول إن الحكام العرب على علم سابق بجريمة السادات، وإنه بالتأكيد جرى تنسيق بينهم، ومرة نقول إنهم لا يعلمون شيئًا.

كانت المشاعر مرتبكة ومختلطة لدينا. وكان لدينا اقتناع بأن الشعب المصري أيضًا غير راضٍ عن الخطوة التي أقدم عليها رئيسه بإخراجه خارج الصراع العربي-الإسرائيلي، وهو أكبر شعوب وطننا العربي الكبير. في تلك الفترة دخلت في خصومة مع الكثير من الناس. كانت مشاعري مضطربة بسبب ما يحدث في الوطن العربي، فزيارة السادات إلى القدس وإقدامه على الصلح مع إسرائيل مثَّلا صدمة لي. مع مضي بعض الوقت صرت أشك في أن الجميع وافق على خطوة السادات بالسفر إلى إسرائيل. كانت المشاعر جد مشحونة ومضطربة. اجتمعنا على فكرة الرفض وعدم قبول فكرة الصلح من الأساس. كان رأي أخي أحمد من رأيي. كان يقول لي دومًا في محاولة لتهدئتي: «إن القضية باقية ولن تموت ولن تنتهي مسيرة التحرر العربي من الإمبريالية».

أظن بعد كل تلك السنين والمياه الكثيرة التي جرت في نهر التطبيع المجاني مع إسرائيل، أشعر بأنه كم كنا بائسين في تلك الفترة أو حالمين طوباويين، وهنا أنا أتحدث عن المثقفين العرب في كل مكان.

في تلك الأثناء وقبلها كنت أقرأ للكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل. كنت أصدقه فيما يقول ويكتب ويحكي، شعرت بأنه شريان ممتد من جمال عبد الناصر، وحين تقدم الوقت ونضجنا أكثر فأكثر أدركت أنه ليس هناك شك أن لعبد الناصر تأثيرًا كبيرًا على مجمل ما حققه هيكل من شعبية، والعكس صحيح. كنت أقرأ له على الرغم من أن كل عائلتي يكرهونه من كراهيتهم لناصر وكل التقدميين باعتبار أن أفراد العائلة موالون لآل سعود والتيار المحافظ بعمومه عدا أخي أحمد. تعجب ابن أختي المقيم في نيويورك من أنني أقرأ لهيكل. سألني ذات مرة:

- كيف تقرئين لهذا الرجل؟

قلت له:

- أحب فكرة أنه امتداد لجمال عبد الناصر.

الكثير من أصدقائي الذين ينتمون إلى جنسيات أجنبية متنوعة، فمنهم، بخلاف العرب، أمريكان وإنجليز وفرنسيون، يحلو لهم أن يصفوني بأنني ناصرية. يعود هذا الوصف في جزء منه إلى فترة نشاطي في منظمة الطلبة العرب بالولايات المتحدة، على الرغم من عدم إيماني بالكثير من الأفكار التي كانت تُطرح فيها، لكن الأهم من ذلك هو حياتي في مصر، حيث جرى تشكيل وعيي ووجداني على ضفاف النيل.

* * *

في سنة ١٩٨٥ حصلت على زمالة بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية. في هذه الأثناء كانت تشغلني فكرة الكتابة والتفرغ التام لها، لأنها عمل شاق يحتاج إلى طاقة هائلة، لذلك أدركت المؤسسات البحثية في الغرب أهمية تفرغ المبدع أو الباحث، وصارت منح التفرغ التي تنتشر اليوم في كثير من الدول

الأوروبية ورشًا حيوية تنتج الثقافة والأدب والمعرفة والبحوث والدراسات، ومن حسن الحظ أنني قد تفرغت للكتابة في بنسلفانيا.

كنت أهتم بالتعرُّف إلى الأساتذة الذين يهتمون بقضايا الشرق الأوسط، وكانت تدور الأحاديث والنقاشات حول قضية العرب المركزية أي القضية الفلسطينية. كانت تعرض الكثير من الآراء المتعارضة حول ذلك الموضوع، ونادرًا ما كنا نصل إلى نقطة تلاقٍ مع الأساتذة المؤيدين لإسرائيل، وإن كنا نحافظ على شيء من الود على الرغم من التباعد في وجهات النظر.

خلال فترة وجودي في بنسلفانيا تعرَّفت على سيدة أمريكية تُدعى ماري، فيما يتعلق بالدين فهي تنتمي إلى جماعة يطلقون على أنفسهم «الكويكرز» التي تقوم على فكرة أساسية هي أن الجميع من جميع الأديان (والذين ليس لديهم دين) يجب أن يتوافقوا، لأجل أن يعيش الجميع معًا في وئام، وأن جميع الناس من جميع الأديان المختلفة، إلى جانب غير المتدينين، يجب أن يدركوا أنه لا يوجد دين واحد أكثر صوابًا أو صدقًا من أي دين آخر: جميع الأديان صحيحة على قدم المساواة. كلها تشير إلى نفس الإله. جميع الأديان والمعتقدات صالحة. حتى أولئك الذين لا دين لهم يُدمجون في هذه العقلية.

قضيت وقتي كله وأنا أعمل ليل نهار في بنسلفانيا. لم يكن هناك ما يشجعني على الانخراط في الحياة الاجتماعية أو حتى السهر والتنزه، اقتصر خروجي على نزهات محدودة مع بعض المعارف، فضلًا عن أن شاهرخ زارني مرة خلال الفصل الدراسي الوحيد الذي عشته في بنسلفانيا.

انكببت على إنهاء دراستي التي تحمل عنوان «المرأة في المملكة العربية السعودية: الأيديولوجيا والسلوك بين النخبة» التي كنت أجريها. لم يكن معي مال كافٍ، فساعدني ذلك على توفير الوقت للكتابة، حيث لا داعي لكثرة الخروج التي تحتاج إلى مصروفات إضافية.

وفي هذا البحث الأنثروبولوجي لثلاث عشرة عائلة من النخبة في جدة

أدرس العلاقات الاجتماعية وآراء هذه الأسر عبر ثلاثة أجيال - الأكبر والأوسط والأصغر سنًّا - من خلال التركيز على الاستمرارية والتغيير في هذه العلاقات والآراء في سياق الاتجاهات الكبرى التي تحدث في المجتمع. وتشدد الدراسة على التأثيرات المتبادلة لأيديولوجيات وسلوكيات هؤلاء النساء. وبهذه الطريقة، تجنبت أي علاقة سببية اتجاهية تبسيطية، من شأنها أن تجبرني على القول إن أيديولوجياتهن هي التي شكَّلت سلوكياتهن، أو على العكس من ذلك، فإن سلوكياتهن هي التي صاغت أيديولوجياتهن.

لا أستطيع أن أصف مشاعري عندما انتهيت من هذه الدراسة التي أردت نشرها في كتاب بعد سلسلة مراجعات إمعانًا في التجويد. كدت أطير من الفرح بعد أن فرغت منها، فليس على الدنيا ما يضاهي فرحة الإنجاز في مثل الظرف النفسي الذي كنت أعيشه في تلك المرحلة من عمري. وهنا يجب أن أشير بالمزيد من العرفان إلى الدور الذي لعبته العزيزة شمس عيتاني حتى انتهيت من الكتاب، سأظل مدينة لها ولدعمها لي ما حييت. الدكتورة شمس عيتاني كانت تدرس في جامعة فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وفقدت بصرها في حادثة بلبنان، ونشأت بيننا صداقة خصوصًا أن بيتها كان قريبًا من مسكني، وكنت أذهب معها للتنزه من آنٍ إلى آنٍ، وأقرأ لها كتاباتي، مثل كتاب «المرأة في المملكة العربية السعودية: الأيديولوجيا والسلوك بين النخبة»، وكانت تسمع لي وتصحح وتعدل، وعندما انتهيت من عملي احتفلَت بإقامة حفلة على شرفي دعت إليها الجالية العربية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان الكثيرون من خارج فيلادلفيا.

بعد الانتهاء من الكتاب بدأ البحث عن دار لنشره. ثم غادرت الولايات المتحدة إلى لندن التي سافرت أمي إليها للعلاج، وأقامت في شقة أخي أحمد في عاصمة الضباب، وأحضرت معها ممرضة مصرية وثلاث فلبينيات، وكذلك محمد طباخ الأسرة في جدة.

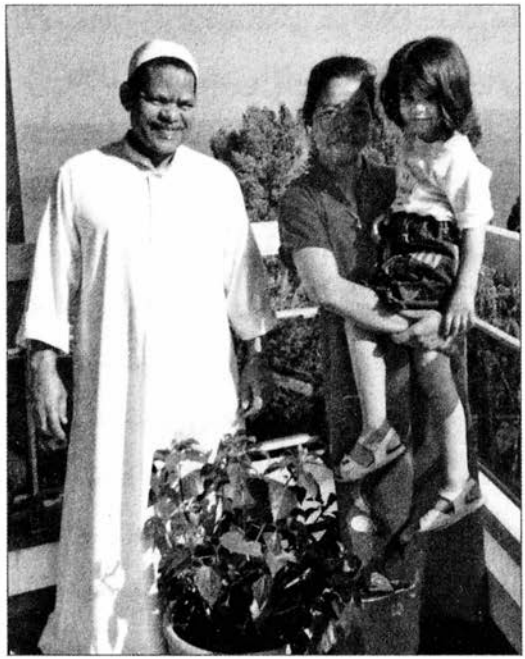

طباخنا المصري محمد، وخادمة المنزل تحمل بادية ابنة أخي في منزله الصيفي في إيفيان بفرنسا

وفي يوم مشرق جاءني خطاب من جامعة هارفارد، يفيد بأنهم قبلوا نشر كتابي. كانت فرحتي لا توصف في تلك اللحظة، يا إلهي! هارفارد تقبل نشر كتابي؟ هكذا كنت أردد ما بيني وبين نفسي من فرط الفرحة وضخامة الإنجاز.

حينها لم أجد أحدًا بجانبي ليشاركني تلك الفرحة، حتى أمي وبعض الأهل لم يستوعبوا حجم الإنجاز الذي كنت على وشك تحقيقه. جلست مع محمد الطباخ وهو كذلك لم يستوعب حجم ما أوشك على تحقيقه، لكنه شاركني الشعور بالفرحة لكونه وجدني سعيدة. شعرت بغصة عندما لم أجد أحدًا من أهلي مستوعبًا لهذا الإنجاز الذي أقف على أعتابه. تمنيت لو أن أخي أحمد كان موجودًا في لندن في تلك الأثناء.

كان من حقي أن أحصل على ترقية إلى درجة أستاذ مساعد في الجامعة

الأمريكية بالقاهرة، كانت تلك الترقية معلقة على نجاحي في نشر دراسة أو كتاب لدى ناشر أكاديمي مرموق، وها هو ذا الشرط في طريقه إلى التحقق، على الفور أخبرت الجامعة بموافقة هارفارد على نشر الكتاب. فقال لي رئيس القسم: «لا بد أن نطلع على رسالة خطية توجه إلينا من قِبل قسم النشر في هارفارد يفيد بموافقته على النشر».

الصف الأمامي آخر ثلاث شخصيات على اليمين: أنا، وحسين فهيم، وإليزابيث كولسون، في المؤتمر الأكاديمي وينر جرين «أنثروبولوجيا السكان الأصليين في البلدان غير الغربية» في بورغ فارتنشتاين النمسا يوليو ١٩٧٨

قدمت على الترقية وبدأت في الإجراءات، ولا أنسى كيف أن صديقتي الغالية الدكتورة جيهان رجائي ساندتني بكل الطرق الممكنة في هذه المهمة، وحتى من دون أن أعرف. ماذا أقول في جوهرة ما لها مثيل؟

أنا في الصف الخلفي، الثانية من اليسار، في مؤتمر أكاديمي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

أنا وزملائي في استراحة خلال وقائع مؤتمر أكاديمي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة تقريبًا عام ٢٠١٠

من اليسار إلى اليمين: أنا وآن كير وجيهان رجائي في استراحة خلال مؤتمر أكاديمي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

انغمست في مكاتبات لا تنقطع مع هارفارد عبر البريد، ردودهم كانت بطيئة جدًّا، وأنا مطاردة من قِبل رئيس القسم الذي يطالبني كل صباح بالتأكيد الكتابي من هارفارد الذي يبرهن على عزمهم نشر الكتاب. في تلك الأثناء كان القلق عنوان حياتي، فقسم النشر لا يرد على مكاتباتي، وكان عليَّ أن أظل متمسكة بخيوط النور وألا أفقد الأمل.

من حسن الحظ أن الدكتور جلال أمين كان في تلك الفترة يعمل أستاذًا في قسم الاقتصاد بالجامعة الأمريكية. ذهبت إليه في المكتب. قلت له وأنا في حالة نفسية سيئة:

- ما رأيك فيما يحدث لي يا دكتور جلال؟

عندما نظر إليَّ وجد الدموع تنهمر من عينَي. عاتبني على البكاء، وشد من أزري، وقال بحكمته المعهودة:

- ثريا، بدلًا من البكاء انظري إلى أبناء جيلك، كم واحدًا منهم نشرت له

جامعة هارفارد؟! لا تجزعي مما يحدث ولا تجعلي مثل هذه الأمور تهز ثقتك بنفسك.

مرت الأيام وأنا أعيش على أمل أن يأتي الرد من الناشر قريبًا، كي أحصل على حقي في الترقية. وفي يوم غابت عنه الشمس لساعات ذهبت إلى الجامعة فإذا بخطاب مرسل من الناشر، فشعرت بفرحة عارمة، لكنها فرحة ما تمت! فتحت الخطاب وبدأت أقرأ فذُهلت، لأن الرد جاء بخيبة أمل نزلت عليَّ كالصاعقة، فها هي ذي هارفارد ترجع في كلامها وتغير خطتها، ويقول لي الخطاب: «لن نستطيع نشر الكتاب، تستطيعين نشره في جامعة أخرى».

كدت أجن من أثر الصدمة، أبهذه السهولة تتبخر الأحلام؟ لقد كنت على وشك الحصول على الترقية والنشر، كيف سأواجه زملائي ورئيس القسم؟ حتمًا سيقولون إنني كنت أخدعهم من البداية، وإن هارفارد لم تعدني بنشر الكتاب من الأساس، يا إلهي، أيعقل أن أبدو أمام الناس في مظهر مَن كذب عليهم؟! كاد عقلي يطير من هول الصدمة.

كان الله - سبحانه وتعالى - رحيمًا بي، فبعد أيام قلائل من خطاب هارفارد، وكنت لا أعرف كيف سأواجه رئيس القسم بتراجع هارفارد عن نشر الكتاب، إذ بي في أحد الصباحات أجد على مكتبي خطابًا من جامعة كولومبيا المرموقة في الولايات المتحدة يفيد بقبول نشر كتابي. تنفست الصعداء، وشعرت بأن جبلًا انزاح عن كاهلي، فقد كان هذا الخطاب نجدة من السماء، لأنني كنت حزينة وخائفة من اتهامي بالكذب، لكن الله نجاني وجعلني أثبت للجميع أنني على حق.

حمدت الله أنني منذ البداية لم أضع البيض كله في سلة هارفارد، فأرسلت الكتاب في الوقت نفسه إلى قسم النشر في جامعة كولومبيا. تقدمت بخطاب الأخيرة إلى رئيس القسم وأنا رأسي مرفوع تطاول هامتي السماء، وبدلًا من نظرات الشك والريبة عشت لحظات رائعة من حفاوة الزملاء بإنجازي، وعُقد اجتماع لمجلس الكلية، للبت في قرار ترقيتي، كنت واثقة بأنهم سيمنحونني إياها.

كنت أرى الوجود كله جميلًا في ذلك اليوم. مع عودتي إلى البيت منتصف النهار شعرت بأن حاسة الشم لديَّ صارت قوية جدًّا، كان محمد يطهو ملوخية رائحتها زكية وقد عمت أرجاء البيت، وشعرت بحاجة ماسة إلى النوم كأنني لم أنَم منذ عام.

بعد أن نمت بعمق فعلًا رن جرس التلفون، رد محمد، كان مسؤول من الجامعة الأمريكية على الخط يريد مهاتفتي. قال له محمد: «إنها نائمة». ألح عليه لإيقاظي، واستيقظت على خبر من أجمل الأخبار، فقد زف إليَّ خبر ترقيتي، وكنت في غاية السعادة.

البيت استغرب من فرط تلك الفرحة التي كانت تغمرني، فسألتني أمي عن سر سعادتي قلت لها:

- حصلت على الترقية، وأخيرًا كتابي سيُنشر في جامعة كولومبيا.

كان ردها صادمًا لي، كان مثل دش بارد نزل على رأسي. صعقتني بسؤالها الاستنكاري:

- لست أدري إلى متى ستستمرين في الفرحة بالكتب يا ثريا؟

لم تكن مستوعبة ما قد حققته وكم يُعَد هذا نجاحًا كبيرًا بالنسبة إليَّ. أحب أمي إلى أبعد الحدود، لكن بمرضها أنا في عالم وهي في عالم آخر، وكان ذلك يؤرقني على نحو خاص.

* * *

بعد رحلة علاج في لندن عادت أمي إلى القاهرة، وأُصيبت - يرحمها الله - بجلطة في المخ. قرر أخي أحمد بعد التشاور معي أن أشرف على علاجها ورعايتها، لأن أختيَّ خديجة ومنيرة متزوجتان ولديهما أبناء، وأن خير مَن يرعى الأم هو أنا لأنني غير متزوجة. اتفق معي على إحضار ممرضات، وما عليَّ إلا الإشراف والمتابعة، وكان هذا شغلي الأساسي.

أحضرنا فريقًا طبيًّا ممتازًا، كان معنا في لندن كما ذكرت سابقًا، مكونًا من أربع ممرضات، ثلاث منهن فلبينيات وواحدة مصرية، كن يتناوبن على رعايتها، وكان

محمد الطباخ، الذي كانت أمي ترتاح له، يتابع الممرضات عند خروجي من البيت. وكان كل يوم جمعة يمر لمتابعتها الدكتور عبد العزيز شريف، والصديق الدكتور علي مختار، وطبيب المخ والأعصاب الشهير صلاح شهبندر.

استمر هذا الوضع طيلة عامين، لم أستطع الاهتمام بالدراسة فيهما، أحيانًا كانت صديقتي ناهد عسيران تدعوني لزيارتها، أقول لأمي: «ماما أنا رايحة عند ناهد». كانت تومئ برأسها بالموافقة. ثم تطور الأمر إلى أن صارت قليلة الكلام، وعرفت من الأطباء أنها بجانب مرضها أُصيبت باكتئاب.

كانت لحظات قاسية على أمي وعلى نفسي وأنا أراها في تلك الحالة، كان قلبي يتقطع عليها كل يوم، كنت مرعوبة من تلك اللحظة التي سأودعها فيها، والتي كنت أعرف أنها مع مرور كل دقيقة تدنو مني. كنت كلما دخلت عليها حجرتها وتكون في مزاج معتدل، تقول:

- تعالي أبوسك.

فأقول لها:

- وأنا كمان عايزة أبوسك يا نوارة.

في آخر مرة قالت: «تعالي أبوسك»، بُستها وحضنتها، وبعد خروجي بدقائق سمعت بكاء ونحيب الممرضات، فقد فاضت روحها إلى بارئها.

يا لها من لحظة صعبة وقاسية شعرت فيها بمرارة الدنيا كلها، أُصبت بصدمة أعجزتني عن الحركة، لم أستطع أن أدخل عليها حجرتها. حاولت طويلًا الدخول على أمي وهي مسجاة بين يدَي ربها إلا أنني حتى اللحظة لا أعرف سبب عدم مقدرتي، هل أردت الاحتفاظ بحضنها وقُبلتها الأخيرة إلى آخر العمر؟ لماذا لم أدخل عليها وأقبِّلها وأودعها؟ لا أدري، حقًّا لا أدري.

حضرت الصديقات على الفور ثم بقية عائلتي، ودُفنت أمي في جدة البلد الذي أحبت، والذي كانت تسجد لله شكرًا عند الوصول إليه بعد الكثير من السفريات سواء إلى مصر أو أوروبا. وأخذتُ علاجًا نفسيًّا بعد رحيلها من هول صدمة فراقها. في كل يوم كانت صورتها تمر أمامي، أتذكر كم كانت حنونًا، أتذكر سفري معها

إلى أوروبا وذكرياتنا في مصر وفي جدة، ويتقطع قلبي من ألم الفراق، فيا طول حزن مَن فقد أمه ولو كان عمره مائة عام!

عدت إلى جدة لفترة، وجدتني وحيدة في بيتنا الكبير، مات أبي ولحقت به أمي، يا لعذاب المرء عندما يفارقه الأحباب! لم تتبقَّ إلا الجدران والذكريات. ضربتان موجعتان تعرضت لهما بوفاة كلاوس وأمي، لم يكن أمامي إلا العودة سريعًا إلى مصر، فأنا أجد نفسي فيها بين صديقاتي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٩
سلطة بلدي
جورج تاون وعنيزة وكاليفورنيا

في سنة ١٩٨٦ سافرت للعمل في جامعة جورج تاون، وهي جامعة كاثوليكية بحثية خاصة ومقرها واشنطن. وتدير هذه الجامعة مركز القانون في الكابيتول هيل، ويدرس فيها نحو اثنين وعشرين ألف طالب. وينتمي الطلاب إلى العديد من الخلفيات الدينية والعرقية والجغرافية، بما في ذلك ١٦٦ دولة أجنبية. ومع أن الجامعة مسيحية، فإنها تحترم حرية الأديان، وفيها الكثير من الطلاب اليهود والمسلمين. كما أنها أول جامعة في أمريكا تُعين إمامًا للطلبة المسلمين، وهي أيضًا تشجع على التفاهم بين المسلمين والمسيحيين واليهود من خلال العديد من البرامج، مثل مركز الدراسات العربية المعاصرة، وهو المركز الذي سافرت لأعمل فيه.

في هذا المركز تعرَّفت إلى الدكتور حليم بركات، وهو سوري الجنسية وعالم اجتماع وروائي، والتقيت دونالد كول، الأستاذ في الجامعة الأمريكية في القاهرة، وهو زميل قديم من أيام التحاقي بالدراسة في جامعة كاليفورنيا-بركلي في سنة ١٩٦٧، وتوطدت صداقتنا في ١٩٦٨، حيث كان دونالد ينوي القيام ببحثه الميداني كجزء من دراسته للدكتوراه في مدينة عنيزة التي ينحدر منها والدي وتقيم فيها عائلة التركي. أمضينا ساعات طوالًا نتحدث عن شبه الجزيرة العربية بوجه عام وعن عنيزة بوجه خاص، التي على الرغم من أنها مسقط رأس والدي والبلد الأثير إلى قلبه، فإنني لم أكن قد زرتها حتى ذلك الحين.

د. حليم بركات وأنا في المؤتمر الأكاديمي، بجامعة جورج تاون بواشنطن العاصمة، في منتصف التسعينيات

واجهت دونالد عقبة الحصول على تأشيرة لدخول المملكة، وهنا قال لي أساتذتي في بركلي: «هل تستطيعين أن تساعديه بحكم أنك سعودية يا ثريا؟»، وبالفعل تحدثت إلى عبد العزيز التركي، ابن عمي، الذي كان يعمل في وزارة البترول مع الوزير التاريخي زكي يماني، ونجح بالفعل في الحصول على تأشيرة له. ودخل دونالد السعودية بالفعل، وهناك قدم له أخي أحمد وكذلك أولاد عمي وعمتي دعمًا كبيرًا حتى أجرى بحثه، الذي لم يجرِه على مدينة عنيزة، بل على البدو من قبيلة المُرة، وأتم بذلك أول دراسة أنثروبولوجية أكاديمية عن قبيلة من قبائل السعودية. فيما قمت أنا بعد ذلك بفترة وجيزة بأول بحث ميداني حول عائلات الصفوة الحضرية في مدينة جدة.

عقب وصولي إلى جامعة جورج تاون، كان لنا - حليم بركات وأنا - طقس نمارسه لثلاثة أيام في الأسبوع، وهو المشي لمسافات طويلة، وفي أثناء السير نحكي عن السياسة والولايات المتحدة كدولة عظمى والحرب الباردة والأدب والشعر.

ما زاد من سعادتي وعظَّم استفادتي في مركز الدراسات العربية في جامعة جورج تاون أنني التقيت هناك الدكتورة جوديث تكر الحاصلة على دكتوراه التاريخ ودراسات الشرق الأوسط من جامعة هارفارد. كان النقاش دومًا معها عميقًا وممتعًا، فقد كانت محبة للعالم العربي بحكم أنها متزوجة من رجل فلسطيني.

التقيت كذلك البروفيسور مايكل كريج هدسون وهو مؤسس مركز الدراسات العربية المعاصرة ومديره خلال وجودي فيه (١٩٨٦-١٩٨٧). وهدسون في الأصل أستاذ للعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون، لكنه عاشق للعالم العربي، منذ بداية اتصاله به عندما شاهد بنفسه في بيروت التدخل العسكري الأمريكي في الأزمة اللبنانية سنة ١٩٥٨. ومضى في تركيز دراسته للسياسة والعلاقات الدولية على العالم العربي والشرق الأوسط. كان الكتاب الأول لهدسون وعنوانه «الجمهورية غير المستقرة: التحديث السياسي في لبنان»، يُعتبر الدراسة الرائدة باللغة الإنجليزية حول الهشاشة السياسية في ذلك البلد العربي. وبالمثل، فإن كتابه الثاني وعمله الرئيسي «السياسة العربية: البحث عن الشرعية» والذي جال فيه العالم العربي بأسره، يُعد مساهمة كبيرة في استكشاف الهوية والتاريخ والقوة كمساهِمة في عدم الاستقرار الإقليمي.

التقيت كذلك في جامعة جورج تاون المؤرخ الفلسطيني هشام شرابي المولود في يافا سنة ١٩٢٧، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل أستاذًا لتاريخ الفكر الأوروبي الحديث في جامعة جورج تاون، وانتقل إثر حرب ١٩٦٧ إلى بيروت، وعمل في مركز التخطيط الفلسطيني وفي الجامعة الأمريكية ببيروت. وساهم شرابي في إنشاء عدد من المؤسسات التي تُعنى بشؤون الوطن العربي والقضية الفلسطينية، منها مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون، ومركز التحليلات السياسية حول فلسطين في واشنطن، وصندوق القدس الذي هو منظمة فلسطينية تقدِّم منحًا دراسية للطلاب الفلسطينيين.

لدى وصولي إلى واشنطن للالتحاق بمركز الدراسات العربية المعاصرة أقمت عند صديقتي إلهام زريق، وهي ابنة المؤرخ السوري وأحد المنظرين الكبار

للقومية العربية الدكتور قسطنطين زريق. كان البيت بعيدًا عن الجامعة، وكنت كل صباح أنتظر الباص، لأقطع رحلة طويلة إلى الجامعة وكذلك رحلة العودة.

ما ضاعف بهجتي في واشنطن أن صديقتي المصرية دينا خياط كانت مقيمة فيها، وكانت تمر عليَّ وننطلق في نزهات بسيارتها. عندما كنت شبه مقيمة في بيت خياط بالقاهرة خلال الستينيات كانت دينا طفلة صغيرة، ويا لفرحتي عندما جاءت أمها طنط نادية لزيارتها وأنا موجودة معها في واشنطن! شعرت كأن أهلي جميعًا قد حضروا إلى واشنطن.

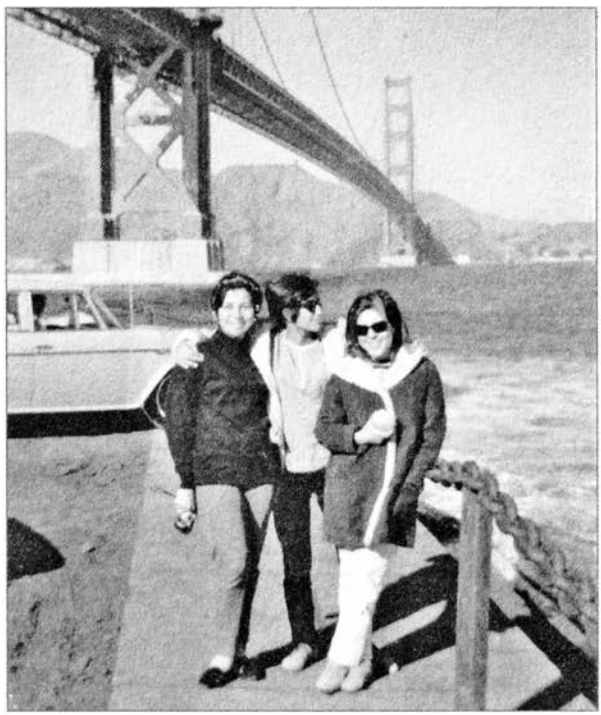

من اليسار إلى اليمين: نادية عاطف، وأنا، ومديحة خياط، عند جسر البوابة الذهبية في سان فرانسيسكو

* * *

أتذكر حادثة مفزعة حدثت لي في نيويورك لا يمكن أن أنساها، في يوم قررت الذهاب لزيارة ناصر ابن أختي خديجة المقيم في نفس المدينة، وحين وصلت إلى البناية التي يسكن فيها نزلت من التاكسي مسرعة من دون التفكير في أي شيء. بعدها تذكرت أنني قد نسيت حقيبة يدي، وبداخلها مبلغ من المال ودفتر شيكات وأوراقي الثبوتية والمفاتيح وكثير من النقود داخل التاكسي، والأهم عندي مفكرة التلفونات الكاملة التي تضم أرقام الأصدقاء والزملاء التي أحتفظ بها منذ سنين، شعرت في هذه اللحظة بأن علاقتي بالناس تقريبًا انقطعت بعد ضياع أرقام تلفوناتهم.

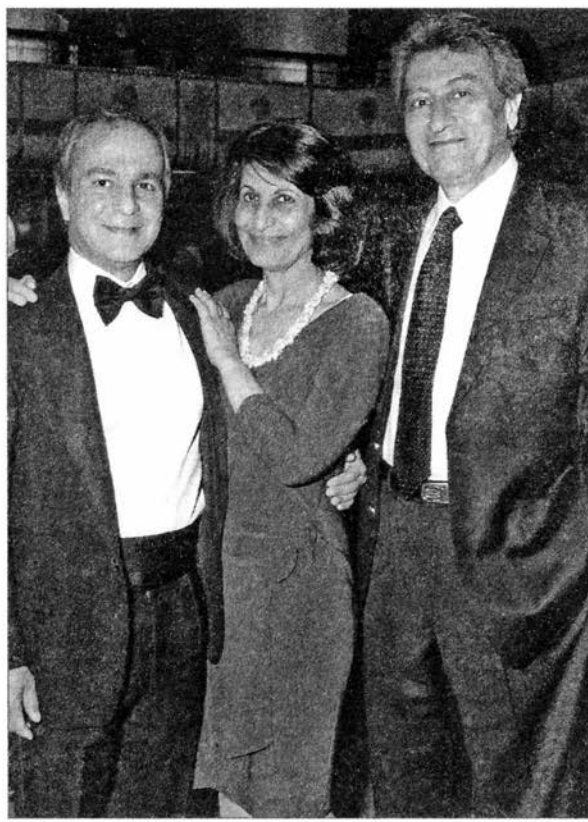

من اليسار إلى اليمين: ناصر ابن أختي، وأنا، وشاهرخ، في حفل استقبال على شرف ناصر

أخذت بعض المال من ناصر وعدت إلى واشنطن بالقطار. عشت إثر ذلك الحادث أيامًا صعبة، بعدها استجمعت قواي وذهبت إلى المركز، الذي لكلٍّ منا فيه دولاب خاص به. كانت المفاجأة حين فتحت الدولاب لأخذ بعض الأغراض فإذ بحقيبة يدي قد وصلت، صرت أفتش وأنا أدعو الله أن أجد مفكرة التلفونات. وضعت يدي في جيب الحقيبة وإذ بالمفكرة لم تتحرك من مكانها. وبعد مراجعة كل المتعلقات وجدت أنه لم ينقص منها شيء.

كنت أشعر بأنني في حلم أو في عالم خيالي مثالي، وحين تأكدت أن كل شيء في مكانه قلت يا ربي هذا أكثر من دعاء الوالدين. في ذلك الوقت خلال بحثي عن الحقيبة وجدت ورقة مدونًا عليها اسمًا عربيًّا، وكلامًا آخر لم أفهمه. سألت عن كيفية الوصول إلى الاسم من خلال الشرطة. قال لي بعض الزملاء العرب إنني قد أتسبب في ضرر لصاحب الاسم، لأنه قد يكون مهاجرًا غير شرعي.

كان حليم بركات وقتها لديه برنامج بإحدى الإذاعات. طلبت منه أن يحكي القصة بطريقته حتى يتسنى لنا الوصول إلى الرجل، ولكن للأسف لم أعثر على هذا الإنسان النبيل الأمين قَطُّ. تأملت الموقف وقلت إن المجتمع الأمريكي يرى العرب بصورة سلبية، وحتى عندما يقوم أيٌّ منا بعمل إنساني لا يمكننا العثور عليه!

في تلك الأثناء كان يجب عليَّ إجراء جراحة في يدي، كانت دينا خياط بجانبي، على الرغم من أنها وجدت عملًا في الأمم المتحدة بنيويورك. بعدها بدأت الحياة تسير بصحبة بنات الدكتور قسطنطين زريق.

في فترة ما بعد العملية الجراحية لم أكن أستطيع أن ألبس ثيابي بمفردي، كانت معي شغالة مصرية من الإسكندرية، لم تتكيف مع الحياة في الولايات المتحدة، صحوت ذات يوم فوجدتها قد تركت البيت. الحقيقة أنني قلقت عليها، إلى أن اتصلت بأناس يعرفونها فقالوا لي إنها وصلت إلى مصر، فهدأت على الرغم من غضبي الشديد من فعلتها المفاجئة التي جاءت في وقت كنت في أمس الحاجة إلى وجودها بجانبي.

* * *

أشهر دونالد كول إسلامه، وأطلق على نفسه اسم «عبد الله»، وكان يجيد العربية. وفي أثناء وجودنا في جامعة جورج تاون قررنا إجراء دراسة أنثروبولوجية معًا في السعودية. لقد وضعنا خطة الدراسة على أساس أنها تمثل دراسة حالة للتغيرات التي طرأت على مجتمع حضري صغير يقع في الجزء الأوسط من المملكة، وهو مدينة عنيزة، التي اخترناها لأنها لا تنتسب إلى نموذج البداوة المتطرفة من ناحية، ولا إلى نموذج الصفوة وثيق الصلة بالعالم الخارجي من ناحية أخرى، هذا عن السبب الموضوعي.

أما السبب الشخصي بالنسبة إليَّ فهو مرتبط بوالدي، إذ حدث أن عرضت على أخي أحمد عزمنا – دونالد وأنا – إجراء دراسة في المملكة. على الفور قال لي: «إذا أردتِ أن تسعدي والدك في قبره، فلتجري دراسة عن عنيزة مسقط رأسه والبلد الذي لم يحب بلدًا آخر مثله».

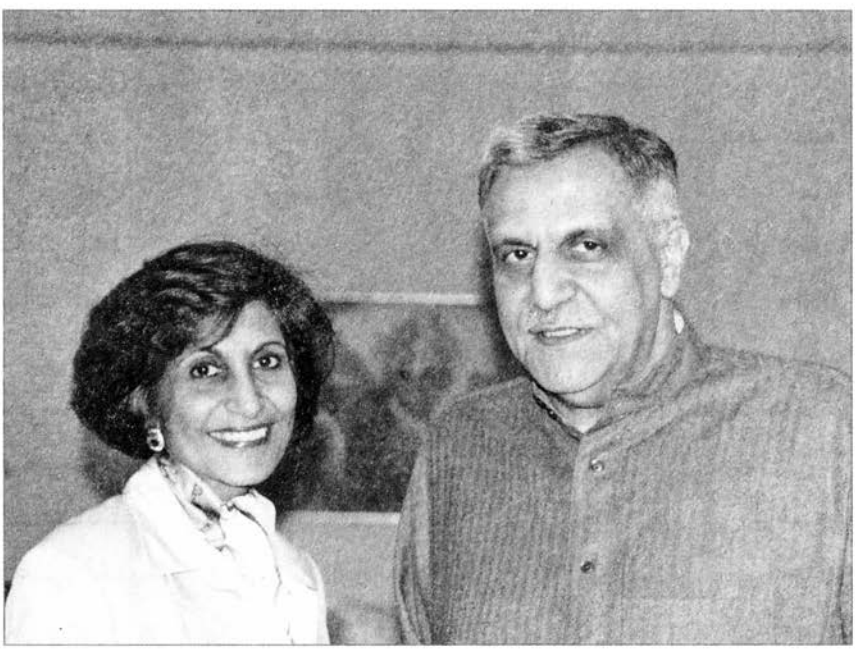

أخي أحمد وأنا

عرضت الفكرة على دونالد فطار بها لأسباب عديدة منها أن عنيزة كانت خياره الأول لرسالة الدكتوراه سنة ١٩٦٨، لكنه غيَّر المسار إلى دراسة قبيلة المُرة، بالإضافة إلى قدرتي على تقديم التسهيلات اللوجستية من إقامة وأريحية نسبية في إجراء البحث وما يقتضيه من مقابلات في مجتمع محافظ، نظرًا إلى وجود أقاربي فيها.

وفي أثناء قيامنا بالبحث الميداني أقام كلانا في عنيزة بين أكتوبر ١٩٨٦ ويناير ١٩٨٧، وأقام كلٌّ منا مستقلًّا عن الآخر، حيث أقام دونالد في أحد الفنادق في الجزء الحديث من المدينة، وأقمت أنا في منزل أحد أقاربي في الجزء القديم منها. وعلى الرغم من أن كلينا يعمل مستقلًّا عن الآخر، فقد كنا دائمًا على اتصال تلفوني منتظم للمناقشة والاتفاق على الجوانب المتعلقة بتخطيط البحث كافة. كان من الصعب أن يكون هناك لقاء يجمعني بدونالد لحكم العادات والتقاليد التي تمنع اختلاط المرأة برجل غريب، ناهيك بكونه غير عربي. وعلى الرغم من ذلك، فإننا كنا كل مدة نتقابل في منزل ابن عمي لنتناقش في البحث.

بصدق، لقد وجدت هناك في عنيزة أشياء كثيرة أسعدتني، وشعرت بود عجيب من الناس تجاهي، احتضنوني كأنني أعيش بينهم سنوات، وهذا يرجع إلى الترابط بينهم وبين أهلي. غير أنني لا أخفي أنني واجهت بعضًا من النقد كذلك من باب القيل والقال، مثل: «انظروا إنها تعمل مع أمريكي»، على الرغم من أننا لا نلتقي علنًا، وإن كنا نمضي ساعات طويلة في العمل معًا من دون أن يدخل علينا أحد.

وقد أجرينا مقابلات مع فئات مختلفة اختلافًا كبيرًا من الموظفين والتجار والمزارعين والحرفيين والمدرسين في عنيزة، وعلى الرغم من أن كثيرًا من المقابلات كانت تُجرى مع أفراد، فإننا أجرينا مقابلات جماعية مع جماعات تنتمي إلى أجيال مختلفة، وذلك للتحقق من أثر الفوارق بين الأجيال في بعض الموضوعات.

بينما كانت مقابلات دونالد مع الرجال، لصعوبة إمكانية قيامه بمقابلة نساء في هذا المجتمع المحافظ، انصب جهدي في الأساس على النساء، وإن كنت قد أجريت مقابلات مع بعض الرجال من خلال عائلتي في عنيزة، واستلزم ذلك ارتدائي الحجاب التقليدي.

جمعت العديد من الملاحظات من سوق النساء، وأجريت مناقشات مع البائعات هناك، كما أجريت مقابلات مع نساء كن يشتغلن في الماضي بأعمال زراعية، وغيرهن من النساء المشتغلات في مختلف أنواع النشاط.

عندما رجعت إلى جدة من عنيزة استقبلني أخي قائلًا: «لم أرَكِ سعيدة قَطُّ في أثناء وجودك في المملكة قدر هذه اللحظة وأنت عائدة من عنيزة». وكان محقًّا، ربما لأنني شعرت بأنني أقوم بعمل كان سيسعد والدي لو كان حيًّا، ولأنني شعرت بأننا أجرينا دراسة رائدة، وجمعنا مادتها كما أردنا في ظروف كانت ستكون مستحيلة لو أنني لم أتكئ على عائلتي الموجودة في عنيزة.

ولا بد من الاعتراف بأن مدة الدراسة في عنيزة كانت صعبة نسبيًّا. كنت أقيم عند ابن عمي وزوجته اللذين بقيا في عنيزة القديمة من دون غيرهما من أهل عنيزة. واكتظت تلك المنطقة بالوافدين من خارج القصيم، وخارج المملكة، مما زاد شعوري بالوحدة. كان البيت محاطًا بعدة مساجد، أفيق على نداء صلاة الفجر من كل مسجد على حدة، وبعد الأذان تأتي زوجة ابن عمي لتطرق على الباب كي توقظني للصلاة. وكان ابن عمي محافظًا للغاية، فلا أحد يرد على التلفون سواه! وهكذا ترقبت اتصال أخي كل صباح - من دون انقطاع - ليسمع مني أخبار اليوم السابق، ويخفف عني وحدتي، وينقل إليَّ ما يتداول في مجتمع عنيزة عن وجودي معهم. كم أنا مدينة لك يا أخي الحبيب، لولاك لما تمت تلك الدراسة الميدانية مهما أكِن لوالدي من حب!

بعد ذلك كتبنا - دونالد وأنا - الدراسة في جامعة جورج تاون، لأن الوقت كان يداهمنا وجرى نشرها باللغة الإنجليزية بدعم من مركز دراسات الشرق الأوسط وقسم الأنثروبولوجي في جامعة تكساس بمدينة أوستن الأمريكية، في سنة ١٩٨٩، وترجمها الدكتور جلال أمين بمشاركة الأستاذ أسعد حليم إلى العربية في سنة ١٩٩١ بعنوان «عنيزة: التنمية والتغيير في مدينة نجدية عربية».

يُعَد هذا الكتاب دراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والاقتصادية لمدينة واحدة في منطقة نجد، ومن بين القضايا التي تناولناها النشاط الزراعي القائم

على الأسرة، وتجارة القوافل، والتغيرات الحضرية وتأثيراتها على حياة المجتمع وأنماط التوظيف، ونمو الرأسمالية، وتنمية الاقتصاد الكلي والتحولات الاجتماعية المصاحبة، مثل تأثير العمل المأجور، والتغيرات الجديدة، والأساليب الزراعية، والتحولات في أنماط السكن الأسري.

من المحزن أن الكتاب منعته السلطات من التداول في السعودية، لأنه يتحدث في جزء منه عن الطبقات والشيوخ وكذلك عن عوام الناس، فقال بعض الأوصياء لا يجوز السماح بتداول الكتاب في المملكة. فكرت في أن أحذف هذا الجزء من الترجمة العربية، لكن أخي أحمد دعمني وقال: «لا توافقي على تلك الأمور ولا ترضخي لهم»، وقد كان.

أما المجتمعات العلمية الأمريكية فاستقبلت الكتاب بحفاوة كبيرة، وقد وجهت إليَّ الرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية التي تقام بها اجتماعات عدة الدعوة للحديث عنه في أحد ملتقياتها العلمية. وكان الكتاب أول دراسة من نوعها أعدتها امرأة ورجل، خاصة امرأة سعودية.

* * *

في سنة ١٩٩٠ كانت وجهتي إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. لم أذهب بغرض التدريس ولكن للانتهاء من بعض الدراسات. التقيت هناك الدكتورة عفاف لطفي السيد، أستاذة التاريخ في جامعة كاليفورنيا، وهي مؤرخة أمريكية من أصل مصري، من أشهر مؤلفاتها كتاب «مصر وكرومر: دراسة في العلاقات الإنجليزية-المصرية» الذي صدر في سنة ١٩٦٨.

وخلال وجودي في جامعة كاليفورنيا تعرَّفت على تيار الحركات النسوية في الولايات المتحدة، وتعرَّفت على أنثروبولوجيين عملوا في السودان مثل ساندرا هيل، وهي أستاذة أنثروبولوجيا ودراسات النوع الاجتماعي في جامعة كاليفورنيا، ومحررة مشاركة سابقة لمجلة دراسات المرأة في الشرق الأوسط والرئيسة المشاركة السابقة للدراسات الإسلامية. تتركز اهتماماتها الإقليمية في أفريقيا والشرق الأوسط، وتركز بشكل أساسي على السودان وإريتريا، حيث

أجرت بحثًا عن النساء اللائي كن مقاتلات سابقات في جبهة التحرير الشعبية الإريترية، ولها كذلك كتاب بعنوان «سياسة النوع الاجتماعي في السودان: الإسلاموية والاشتراكية والدولة».

شجعني على الذهاب إلى جامعة كاليفورنيا الدكتور جلال أمين، الذي أخبرني بأنني سأكون سعيدة هناك، وبالفعل رحبوا بي، وقضيت عامًا دراسيًّا ممتعًا في هذه الجامعة العريقة، التي كانت تعقد اجتماعًا كل أسبوعين، يتناول بعض القضايا مثل قضايا النوع الاجتماعي (الجندر)، الذي يُطلق على العلاقات والأدوار الاجتماعية والقيم التي يحددها المجتمع لكلٍّ من المرأة والرجل، وتتغير هذه الأدوار والعلاقات والقيم وفقًا لتغير المكان والزمان، وذلك لتداخلها وتشابكها مع العلاقات الاجتماعية الأخرى مثل: الدين والطبقة الاجتماعية والعرقية. وكنا ندخل في سجالات طويلة حول هذا المفهوم.

كنت أستمتع بتلك النقاشات والحوارات في هذه الموضوعات الجديدة، ومن وقتها بدأ اهتمامي بقضايا الجندر، وإن كنت قد سمعت عنها منذ بواكير ظهورها أوائل السبعينيات منذ كنت في هارفارد.

* * *

من حسن حظي أن نُشر العديد من الدراسات التي أجريتها، وغالبيتها كتب أكاديمية وليست تجارية، وكانت لي تجارب عديدة تعلمت منها الكثير، فمثلًا أول كتاب لي بعنوان «المرأة في المملكة العربية السعودية» كتبته باللغة الإنجليزية وكنت سعيدة به جدًّا، وتعاقدت حينها مع دار نشر جامعية أمريكية، ولم تكن لديَّ دراية بحقوق المؤلف، وعندما أبلغوني برغبتهم في ترجمته إلى اللغة العربية وافقت فورًا من دون تدقيق في العقد، لكن عندما نُشر بالعربية وجدت الترجمة سيئة جدًّا، مما جعل الدراسة مشوهة، فحاولت أن أوقف نشره، ولكنني فشلت لأنني أعطيت لهم حق الترجمة ولا أملك وقف نشره. ومن يومها تعلمت الدرس.

ومن الكتب التي سعدت بتحريرها بالمشاركة مع كاميليا فوزي الصلح «في وطني أبحث: المرأة العربية في ميدان البحوث الاجتماعية» الذي صدر

بالإنجليزية عن دار نشر جامعة سيراكيوز عام ١٩٨٨، وبالعربية عن مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٩٣. ويحتوي الكتاب على مجموعة قيمة من الدراسات التي أجرتها ست باحثات عربيات على المجتمعات العربية، يركزن فيها على مسألة منهجية أساسية في علم الاجتماع، تتعلق ببناء وإنتاج المعرفة، ويدور حولها دائمًا نقاش حاد، وهي: مدى تأثر البحث الميداني بخاصيات الباحث، تبعًا لحقيقة أن الباحث الاجتماعي هو نفسه كائن ثقافي، لخلفياته أثر كبير فيما يتجمع له من معلومات وبيانات.

ونشرت مع دونالد كول دراسة جديدة بعنوان «أهل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات»، أصدرتها بالإنجليزية دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٩٨، وبالعربية عن المركز القومي للترجمة عام ٢٠٠٥. درسنا في هذا الكتاب اتجاهات التحول الاجتماعي والاقتصادي في جزء من مصر لم يحظَ باهتمام كبير من قِبل علماء الأنثروبولوجيا، أي الساحل الشمالي الغربي. فروى البدو والمستوطنون من وادي النيل ومنطقة دلتا نهر النيل قصصهم، بما في ذلك أصولهم، وكيف كانت المنطقة عند وصولهم، وما أنواع التحولات التي شهدوها خلال فترة وجودهم، وذلك في سياق التطورات الكلية في البلاد وهذه المنطقة من مصر. وبالطبع حظي نمو الرأسمالية وتأثيرها على الزراعة والسياحة باهتمام كبير، مع التركيز على أنماط ملكية الأراضي والزراعة التعاونية ونمو مجتمعات المنتجعات وتأثيرات بناء هذه المنتجعات وتشغيلها على أسواق العمل المحلية.

وفي عام ٢٠١٥ حررت كتاب «دليل إلى أنثروبولوجيا الشرق الأوسط» عن دار جون وايلي وأولاده. وهذا المجلد عبارة عن دراسة واسعة النطاق للشرق الأوسط من خلال عدسة الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية. وينقسم إلى ٢٥ فصلًا تتناول القضايا النظرية والمفاهيمية، والثقافة والحياة اليومية، والعلاقات الاجتماعية والحركات الاجتماعية، والقانون والسياسة والدولة، والثقافة الشعبية والإعلام الجديد. وطلبت من المساهمين التركيز على الأمور التالية: أولًا، ما أهم الأسئلة النظرية والمنهجية التي طرحها علماء الأنثروبولوجيا في الشرق الأوسط

حول الموضوعات التي نوقشت في فصول الكتاب؟ ثانيًا، ما الفجوات التي يراها مؤلفو هذه الفصول في الدراسات الأنثروبولوجية الحالية للشرق الأوسط مقارنة بالموضوعات التي يناقشونها في تلك الفصول؟ ثالثًا، إلى أين ينبغي أن تتجه البحوث الأنثروبولوجية المستقبلية حول هذه الموضوعات؟ وقد وُصف هذا المجلد بأنه «عمل تاريخي»، وحاز جائزة الكتاب المتميز من جمعية المكتبات الأمريكية.

ومن التجارب اللطيفة التي مررت بها أن اتصل بي التلفزيون الهولندي عام ١٩٩٥، لرغبتهم في عمل برنامج يوضح عدم صحة الصورة النمطية الموجودة في الغرب للمرأة العربية المقهورة خلف الحجاب، وبالفعل سجلوا معي ومع سيدتين من الأردن والمغرب، وعُرض البرنامج عام ١٩٩٦.

من اليمين إلى اليسار: أنا، وأخي أحمد، ومديرة البرنامج التلفزيوني الهولندي حول ثلاث نساء مؤثرات في الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٩٥

١٠

كان يوم حبك أجمل صدفة!

أتفق مع أن الصدفة أحيانًا تكون خيرًا من ألف ميعاد، وأشاطر فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير عندما أطلق عليها لقب «صاحبة الجلالة» لعظم دورها في حياة الإنسان، وأتفق مع ابن الرومي بصوفيته عندما قال إن «لها جذورًا كامنة في العالم غير المرئي». الصدفة هي الحل السحري للروائيين والشعراء والعشاق، فعندما يتعقد العالم وتصبح كل الطرق مسدودة، وتصير الحياة مستحيلة، لا بد من صدفة تقلب الأمور رأسًا على عقب، تتبدل على وقعها المصائر وتتغير الأحوال. «كان يوم حبك أجمل صدفة»، كما يشدو عبد الحليم.

من تلك الصدف الجميلة في حياتي والتي أتت في موعدها شاهرخ، فعندما دخل عليَّ مكتبي بالجامعة الأمريكية في ميدان التحرير وفي يده ابنه الذي كان يقارب السابعة من عمره في سبتمبر ١٩٨٠، لم يخطر ببالي على الإطلاق أن علاقتنا ستمتد منذ هاتيك اللحظة إلى نهاية العمر. يأسرك شاهرخ لأول وهلة، يخطفك بإتقانه فنون الصمت والاستماع، ليس مفتونًا أو مسكونًا بمحاولة إثبات أنه شخص جيد أو عالِم ناجح أو ذو قلب يسع الدنيا كلها، هو يمارس كل ذلك ببساطة، بأريحية، من دون تكلف، يدعك أنت تكتشف فيه كل تلك المميزات من دون أن يكون مهتمًّا حتى بوصولك إليها.

بهرني شاهرخ بقدرته على المشاركة الوجدانية لمحدثه من دون أن ينطق بالكثير من الكلام، يفرح بكل نجاح لشركائه وأحبائه كأنه هو صاحب النجاح أو صاحب الفرح،

تشعر بأن عطف وحنان الدنيا كلها يشعان من عينيه الصامتتين أيضًا. كامرأة عربية بهرني لأنني وجدته مختلفًا عن أولئك الرجال الذين يصادرون الجلسة لحسابهم في محاولة لتأكيد رجولتهم، خصوصًا في حضرة امرأة، كما هو السائد في ثقافتنا العربية.

كانت حياة كلٍّ منا صعبة عندما جمعتنا الصدفة، كلانا فقد شريكه ويعيش على الذكريات، أو في الماضي بالأحرى. كان بإمكان شاهرخ أن ينسى تلك الجملة العابرة التي قالها له زميلنا المشترك مايكل فيشر، في سنة ١٩٧٥: «عندما تصل إلى القاهرة اذهب إلى ثريا التركي ستدعمك في بحثك». لكنها الصدفة. قبِل شاهرخ أن يعمل في الجامعة الأمريكية ليحق له أن يستأجر شقة في الجامعة، وأن يدخل ابنه المدرسة الإنجليزية في الزمالك.

توطدت علاقتنا كصديقين منذ ذلك اللقاء الأول، دعوته وابنه لنزهات في نادي الجزيرة بالزمالك، وعلى العشاء في منزلي مع أصدقاء من المثقفين المصريين. قصدت من ذلك محاولة توسيع نطاق علاقاته في المجتمع المصري، الذي يُجري فيه دراسة عن عمَّال مصنع الرشيدي. كان ذلك عكس طبيعته التي تميل إلى حياة الهدوء، مقارنة بصخب اللقاءات والزيارات الاجتماعية.

كان يراقبني من بعيد، يعرف سيارتي، وعندما أكون في الزمالك أخرج إلى سيارتي وأجده قد ترك على زجاجها الأمامي رسالة: «ما رأيك في أن نتناول الغداء معًا اليوم؟». كان يفضِّل مطعمًا قريبًا من بيته في الزمالك اسمه دون كيشوت.

إذا كانت الصدفة قد جمعتنا - شاهرخ وأنا - فإن التوافق، وهو فعل ينطوي على إرادة حرة مع تشابه الظروف، هو الذي جعل صداقتنا تمتد إلى ٢٠ عامًا، قبل أن نقرر بعدها أننا نصلح زوجين.

تعددت مقابلاتنا في القاهرة إلى أن قرب ميعاد سفره. حزنت جدًّا لاحتمال سفره وطلبت منه أن يؤجل السفر، لكنه رفض، فهو بطبعه لا يحب التغييرات المفاجئة، غادر القاهرة في يونيو ١٩٨١ إلى فرنسا.

في العام التالي حدث أن سافرت إلى فرنسا، التقيته مجددًا في نيس، وهناك أصر على أن ألتقي والده الدكتور علي أكبر أخوي، وزير الاقتصاد الإيراني في

حكومة محمد مصدق الثانية، والمولود بطهران في بداية القرن العشرين، والذي عزمنا في مطعم سمك متميز.

تركني شاهرخ لأتحدث مع والده وأتعرَّف أكثر عليه. بادرته بأنه يوجد شارع في مصر يحمل اسم مصدق. وفتحت هذه العبارة الأبواب أمامه ليسترسل في سلاسة ويسرد قصته، التي تحمل الكثير من معاني الإثارة، خصوصًا لو استمعت إليها منه شخصيًّا.

بعد أن أنهى والد شاهرخ دراسته في إيران وحصل على درجة البكالوريوس من كلية الحقوق بطهران، ذهب إلى باريس لاستكمال تعليمه، وحصل على الدكتوراه في القانون والاقتصاد، عاد بعدها إلى إيران، حيث عمل في وزارة العدل وتقلد مناصب مختلفة في القضاء، ثم انضم إلى حزب السياسيين الوطنيين. وفي سنة ١٩٤٤، شارك الدكتور علي أكبر أخوي في مؤتمر دولي حول التجارة والقضايا الاقتصادية عُقد في الولايات المتحدة. وهناك أغراه النمو الاقتصادي لأمريكا وأسواقها المفتوحة إلى البقاء وممارسة التجارة في نيويورك، وصار معروفًا لدى مجتمع الأعمال الأمريكي، وفي الوقت نفسه كرجل أعمال، قدم المشورة الاقتصادية والقضائية لبعض الشركات الأمريكية العاملة في إيران. وفي عام ١٩٥١ زار مصدق نيويورك، والتقى بالجالية الإيرانية ومن ضمنها والد شاهرخ، الذي كان من داعمي توجهات مصدق الاقتصادية، وقد دعا الدكتور أخوي رئيس الوزراء الإيراني إلى حفل غداء في منزله الذي يقع خارج نيويورك في منطقة لارشمونت، وخلال الحفل استمع مصدق مليًّا إلى والد شاهرخ وهو يستعرض خبرته ورؤيته الاقتصادية. عاد مصدق إلى طهران، وفي ٢١ يوليو ١٩٥٢ أجرى تعديلًا وزاريًّا، عيَّن فيه الدكتور علي أكبر أخوي وزيرًا للاقتصاد الوطني. كانت إيران محاصرة بالعقوبات الاقتصادية، وخصوصًا العقوبات النفطية من قِبل القوى العظمى، وعلى وجه الخصوص بريطانيا. لم يكن حل هذه العقوبات مهمة صعبة لشخص مثل الدكتور أخوي، الذي نجح في بيع النفط لإيطاليا.

ولكن في أغسطس ١٩٥٣، وقع الانقلاب على مصدق بدعم أمريكي، حيث

احتدم الصراع بين الشاه محمد رضا بهلوي المدعوم من واشنطن ومصدق، فتدهور الوضع السياسي تدهورًا شديدًا، وفي ١٩ من الشهر نفسه وقَّع الشاه قرارين: الأول بعزل مصدق، والثاني بتعيين الجنرال فضل الله زاهدي محله. وصدر قرار بسجن وزارة مصدق، ومن ضمنهم والد شاهرخ الذي قضى ستة أشهر في السجن، حصل بعدها على عفو من عقوبة الإعدام قد وقع عليه مع غيره من الوزراء، على أن يوقِّع على تعهد مكتوب يفيد بأنه لن يعمل مجددًا بالسياسة، وظل من دون عمل لفترة، ثم عمل بالتجارة ونجح إلى درجة أن الشاه كان يريد أن يشاركه في بعض المشروعات.

خلال القبض على والد شاهرخ في أغسطس ١٩٥٣ كانت والدته في إيران، ولم تستطع العودة إلى نيويورك، حيث يوجد أبناؤها ومن بينهم شاهرخ، الذي حكى لي عن هذه اللحظة العصيبة: «فور تعيين أبي وزيرًا عادت معه أمي إلى طهران، وبعنا منزلنا في نيويورك، وكنت وإخوتي نعيش في بيت للطلاب. عندما أُلقي القبض على والدي بعد الانقلاب كنت وإخوتي في معسكر صيفي، وعلمنا بما جرى لوالدنا، لكن لم نكن نعرف مصيره، وانقطعت المراسلات مع أمي، استدعانا مدير المعسكر، وقال إننا نستطيع الإقامة مع أسرة صاحب المعسكر».

في سنة ١٩٥٤، عادت الوالدة إلى أبنائها في نيويورك. بعدها التحق شاهرخ بجامعة هارفارد، ثم جامعة كولومبيا، وهناك التقى وتزوَّج زوجته الأولى، فيما أسس والده وأخواه مصنعًا كبيرًا ناجحًا في طهران، لكن سرعان ما قامت الثورة الإسلامية في إيران، التي أمَّمت بدورها المصانع، ومن ضمنها مصنع العائلة، على إثر ذلك هاجر والده إلى فرنسا واستقر في نيس، وسُجن الأخوان بعد وشاية من بعض عمَّال المصنع تقول إن الشابين ضد الثورة.

في سنة ١٩٧٨ تُوفيت زوجة شاهرخ، وتركت له ابنهما الوحيد ساشا، وهو اسم الدلع كما نقول في العالم العربي، وهو اسم مستمد من الثقافة الروسية، التي يعشق شاهرخ آدابها. أما الاسم الرسمي للابن فهو شاهبور وهو نفس اسم ابن شاه إيران محمد رضا بهلوي، الذي حظر على الشعب إطلاق هذا الاسم على أبنائه.

كان تحديًا كبيرًا من شاهرخ بتسمية ابنه بهذا الاسم في سنة ١٩٧٢. لم يبالِ فقد انقطعت علاقته بإيران منذ سنة ١٩٧٥ في وقت لقائه بصديقنا المشترك مايكل فيشر.

* * *

تزوَّجت والدة شاهرخ أباه وهي في التاسعة عشرة من عمرها، وهي تنحدر من عائلة دينية معروفة، تعتبر من نسل الأشراف كما هو معروف لدينا في العالم العربي، وعلى الرغم من ذلك فكان والدها - الذي يعمل مستشارًا للشاه الأب رضا بهلوي - ضد علماء الدين، الذين يتمتعون بسلطة على العامة في المذهب الشيعي السائد في إيران.

منح الوالد ابنته حق الاختيار عندما تقدم إليها الدكتور علي أكبر أخوي، المنحدر من أسرة متدينة، وهو غير متدين، لكنه يحترم المتدينين ولا يشعر بمشاعر سلبية تجاههم. اختارت الابنة الزواج من أخوي. كانت والدة شاهرخ متعلمة، فقد التحقت بمدارس جان دارك الأجنبية التي كانت موجودة في طهران خلال تلك الفترة، ويدرس فيها أبناء علية القوم، لذلك كانت تتقن عدة لغات، وتكتب مقالات خاصة بشؤون المرأة لبعض الصحف، وكان لها خط جميل للغاية باللغة الفارسية والحروف الإفرنجية.

كان هناك تفاهم كبير بين والدة شاهرخ وأبيها. كان يلعب معها على العود ويعزفان الموسيقى كفريق، وأُعجب الدكتور أخوي بهذا التناغم والانسجام بين زوجته وأبيها. الحق أنها كانت ماهرة في العزف على البيانو كذلك. وخلال إقامتها في الولايات المتحدة أقيم لها حفل في متحف المتروبوليتان للفنون، وسط حضور كبير للجمهور الذي أُعجب بأدائها. كنت أرى الفارق بيني وبين زوجي متمثلًا بشدة في أمي الأمية وأمه التي تعزف البيانو!

من المفارقات أنها عندما كانت تعزف في بداية زواجها في بيت أسرة زوجها كان عم شاهرخ يغلق الباب، لأنه لا يريد سماع الموسيقى، لذلك شعرت بأن المناخ في بيت زوجها مختلف تمامًا عن بيت والدها.

حين قابلتها لأول مرة في ثمانينيات القرن الماضي كانت أنيقة جدًّا، شعرها مصفف بعناية، كانت تخطو كغزال، راقية للغاية في معاملاتها، لا يمكن أن تخرج

والد شاهرخ في ثلاثينياته

والدة شاهرخ في عشرينياتها

من غرفة نومها إلا وهي في كامل أناقتها، كانت تجيد فن تقديم نفسها للآخرين، بهرتني شخصيتها ولطفها. في حياتها المعزولة بالمجتمع الأمريكي تعلمت كيف تصنع زهورًا من قماش الحرير، ساعدها على ذلك أنها كانت تجيد الرسم الذي تعلمته في إيران، بالإضافة إلى إجادتها الكثير من الفنون التي تتميز بها نساء الطبقات الأرستقراطية في بلدها.

كانت والدة شاهرخ تريده أن يتزوج من إيرانية، بعد تجربة زواجه الأولى من سيدة أمريكية، وكذلك أخوه، لكن حين التقينا انبهرت بي، وقارنتني بزوجة أخيه الأمريكية. أحبتني حتى قبل أن أتزوج ابنها، كانت تقول لي إنها فخور بي، وتعتقد أن كون سيدة عربية مسلمة من السعودية تحوز هذه المكانة العلمية، ويُتاح لها التدريس في كبريات الجامعات الأمريكية، لهو شيء كبير يدعو إلى الفخر ويثير الإعجاب.

* * *

بعد لقائي الأول بشاهرخ في القاهرة سنة ١٩٨٠ كانت لقاءاتنا متقطعة بعض الشيء، كنا نرى بعضنا كصديقين وزميلين، وكثيرًا ما كان يدور بيننا كلام عبر التلفون عندما تزيد الفترة التي لا نتمكن فيها من التلاقي. في بعض المرات التي كان يأتي إلى القاهرة ليقابلني كان يفكر في أنه لا بد من أن نتزوج. خلال تلك الزيارات لمصر لم أكن ألتقيه كثيرًا مراعاة للعادات والتقاليد في أسرتي.

في سنة ١٩٩٨ صار كلانا مقتنعًا بأنه حانت اللحظة لكي نتزوج، عقدنا العزم على ذلك، وفي أغسطس من نفس العام كانت عندي إجازة صغيرة قررنا أن ننهي فيها مراسم الزواج. قلنا: «هيَّا بنا نتزوج». كان قرار الزواج عقليًّا بامتياز، اعتبرنا أن صمود علاقتنا الممتدة على مدى كل تلك السنين تستحق أن تُكلل بالزواج.

كان شاهرخ في واشنطن، رتبنا موعد الزواج المدني، ورتب كذلك موعدًا بالمركز الإسلامي في العاصمة الأمريكية لإتمام الزواج الشرعي. المراسم لها حكاية مفرطة في الدراما على الرغم من أنها في لحظة يُفترض أن تكون مشحونة بالسعادة والتيسير، ففي اليوم الذي اتفقنا فيه على الزواج الشرعي الإسلامي كان لديَّ موعد مع طبيب الأسنان.

ذهبنا إلى المركز الإسلامي، وهناك التقينا سيدة أفريقية مسلمة تُدعى الأخت فاطيمة، أخذتنا بدورها إلى المأذون، وكان مصريًّا. قال: «أعطوني جوازات السفر». وفور أن نظر إليها قال وقد تغيرت ملامحه وتبدلت:

- سعودية تتزوج أمريكي؟! الكلام ده ما ينفعش.

ثم بادرني قائلًا:

- أين ولي أمرك؟

أخبرته بحدة بأنني سيدة بالغة عاقلة وأرملة وأستاذة في الجامعة، ولا أحتاج إلى موافقة الولي.

قال لا بد من ورقة مكتوبة من ولي أمري تقول إنه موافق على الزيجة.

قلت له:

- ماذا يعني ذلك؟ هل ما تقوله حقيقي؟ هل الشريعة الإسلامية لا تمنحني الحق في تزويج نفسي؟ أنت تطلب شيئًا ضد الشرع.

حاول شاهرخ احتواء الموقف. قال للمأذون:

- إن الولي ليس هنا، بل في السعودية.

قال المأذون:

- مش شغلي، لا بد من ورقة تفيد بموافقة ولي الأمر.

كان ذلك في يوم خميس. اتصلت بأحمد أخي، وكان هناك فرق توقيت بين جدة وواشنطن. على الفور نهرني أحمد وقال:

- هو إنتِ مش عارفة دينك؟ هل تعجزين عن الرد على ذلك المعتوه بأن موقفه مخالف لشريعة الإسلام؟ قولي له: أنا ولية نفسي وعلى مذهب كذا، إلخ.

قلت له:

- أحمد، هو مُصر على ورقة موقَّعة منك بحضور شاهدين يوقعان أيضًا على الورقة.

أرسل أحمد بالفاكس ورقة موقَّعة منه، والشاهدان هما البستاني والسائق، وذهبت إلى المأذون أقول له:

- إن الورقة أُرسلت بالفاكس.

قال:

- إن الفاكس في غرفة المدير، والغرفة مغلقة والمفتاح معه.

كدت أُجن. قلت له والشرر يتطاير من عينَي:

- سأكسر الباب.

من حسن الحظ دخل المدير، وكان شابًّا صغيرًا. استقبلنا في مكتبه، الذي وجد فيه الفاكس الذي أرسله أحمد، لكنه اعتبر أن ذلك ليس دليلًا قطعيًّا على

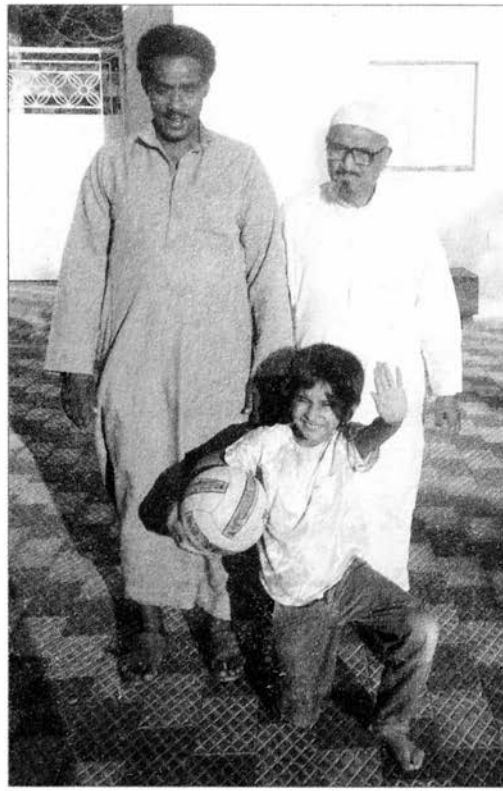

سائق أخي عم أمين، وبستانيه عم حسن مع ابنه محمد.
عم أمين وعم حسن كانا شاهدين من بعيد على زواجي
بزوجي الثاني

موافقة الأهل. وراح يقول إن الموضوع ليس بإرادتهم، وإن تلك الأوراق تفرضها عليهم السفارة السعودية، وإذا خالفوا الأمر فستخرب السفارة بيوتهم.

سألته:

- هل أنت سعودي؟

قال:

- نعم سعودي من جدة.

أخبرته وأنا في قمة الضيق بأنني قد أكون درَّست له في الجامعة، وباغته بسؤال:

- أنا جئت لأتزوج على الشريعة الإسلامية، وهذا مَن سأتزوجه رجل مسلم، أنتم تعقدون الموقف، أنا أتممت الزواج حسب قواعد هذا البلد، هل تختار أن أعيش في الزنى بعدم إتمام المراسم وفق الشريعة الإسلامية؟

سمع السؤال وصمت قليلًا. ثم قال:

- هل أنتِ متأكدة أن أهلك موافقون على هذه الزيجة؟

قلت:

- نعم، وهذه ورقة موقَّعة من شخصيات مهمة بالسعودية.

أعني البستاني والسائق، في سخرية من الموقف كله! فوافق أخيرًا على إتمام العقد وإتمام الزيجة. وخرجنا بعدها للفسحة وتوجهنا إلى بيت الدكتور قسطنطين زريق، وأقامت بنتاه إلهام وعفاف حفلًا جميلًا لنا.

يوضح الموقف أعلاه أن المركز الإسلامي مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسفارة السعودية في واشنطن، وبتعليماتها، وواضح أيضًا أنني لو كنت امرأة مسلمة غير سعودية، أو لو كنت رجلًا سعوديًّا، لما كنت واجهت أيًّا من هذه المصاعب، وكان هذا أيضًا مثلًا بينًا على التفرقة بين المرأة والرجل في ذلك الوقت في المملكة العربية السعودية، فمهما علت مكانة المرأة سواء من خلال دخولها سوق العمل أو حصولها على درجات علمية مرموقة، فإنها تظل قاصرًا غير قادرة على اتخاذ قرارات تخصها مثل قرار الزواج.

أنا وشاهرخ في حفل زفافنا بواشنطن في بيت بنات الدكتور قسطنطين زريق

أنا وشاهرخ في حفل زفافنا بالقاهرة عام ٢٠٠٠

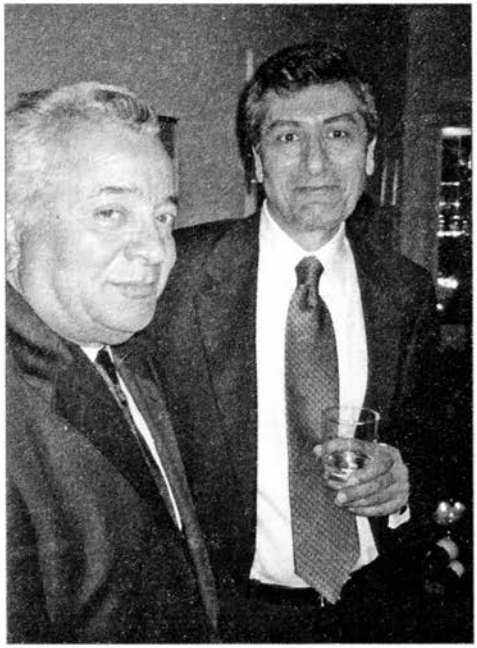

ابن عمي عبد العزيز التركي على اليسار، وشاهرخ، في حفل زفافنا بالقاهرة

من اليسار إلى اليمين: فاديا بدراوي، وشاهرخ، وبيترا التركي، في حفل زفافنا بالقاهرة

* * *

ذهبنا - شاهرخ وأنا - إلى السعودية في سنة ٢٠٠٤، وتعرَّف هناك على عائلتي، التي تقبلته وأحبته بسرعة، لأنه ينحدر من عائلة مسلمة، شرق أوسطية أي قريبة منا في الثقافة والعادات والتقاليد، وعلى الرغم من أنه نشأ في الولايات المتحدة، فإن ذلك لا يهم، المهم أن أبويه مسلمان.

أُعجب شاهرخ بأخي أحمد، ورأى أن له حضورًا لافتًا وشخصية رائعة. اعتبر أن أحمد يشبه الإيرانيين الذين يتكلمون في السياسة، وكان أحمد على اطلاع واسع بالثقافة الإيرانية.

يتميز شاهرخ بمدخل إنساني لكل شيء، وله رؤية واعية وناضجة، ويستطيع أن يدخل من الباب المفتوح إلى عقل الآخر. كما أنه محب للعلم، لذلك حدث تواصل سريع بينه وبين أحمد، ودار بينهما الكثير من النقاشات حول التاريخ والسياسة والفلسفة، وتواعدا على استمرار اللقاءات في لندن.

اكتشف شاهرخ في زيارته إلى السعودية مستوى آخر من الالتزام بالشعائر الدينية، فاللغة العربية كانت حاضرة بقوة في الأحاديث الكثيرة بيننا، وهناك الكثير من الحديث حول الدين، والكلام في الدين موجود كذلك لدى عموم الشعب الإيراني، لكن شاهرخ ليس متدينًا تأثرًا بوالدته الأرستقراطية التي كان والدها يرى في رجال الدين مجموعة من البهلوانات، إلى درجة أن شاهرخ وإخوته عندما عادوا في زيارة لأبيهم سنة ١٩٥٥ سألته المربية: «ما دينك؟».

كانت أول مرة يسمع فيها كلمة دين، فلم يرُد. اعتقدت المربية بأنه وإخوته مسيحيون، لأنهم جاءوا من أمريكا. في المرة الثانية حين سألته المربية قال لها: «أنا مسلم»، بعد أن علمته أمه أنه مسلم.

لم يكن شاهرخ يشعر بشعائر ولا طقوس إسلامية مثل شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى، وهذا غريب بالنسبة إليَّ، فأنا نشأت في بيت إسلامي. لكن يجب أن أذكر أن والدته في سنواتها الأخيرة قد تدينت، وداومت على الشعائر الدينية من صلاة وصوم، وكانت روحها تهفو لأداء مناسك الحج.

خلال زيارتنا تلك إلى السعودية أدينا مناسك العمرة. شعر شاهرخ بشيء من الرهبة. لكن أحمد شجعه كي يتجاوزها، وقد أثرت فيه مناسك العمرة بشكل إيجابي، فقد فهم حياتنا وأهلنا وثقافتنا، وزاد فهمه لي عندما شاهد البيئة التي نشأت فيها.

خرج شاهرخ من الحرم المكي بعد تجربة روحية تأثر بها كثيرًا، ولكنه فزع عند خروجه من الحرم فقابلته محلات كنتاكي ومظاهر السوق المتعددة. كل أهلي كبارًا وصغارًا يحبونه، وتقول لي أختي خديجة: «هذا الرجل نعمة من الله حباكِ بها».

مع عائلة شاهرخ في كونيتيكت تقريبًا في عيد الشكر عام ٢٠١٣. من اليمين إلى اليسار: أنا، ووالدة شاهرخ، وشقيقه همايون، وزوجته ماري، وشاهرخ

١١
على الرغم من المسافات والتغيرات
أصدقاء العمر

أنا من المؤمنين بأن الحياة ستصبح بلا معنى من دون أصدقاء جيدين، وأعترف بأنني كنت محظوظة في أصدقائي، ذلك أن الأصدقاء الجيدين يعرفونك على نفسك، ويدفعونك دومًا إلى الأمام، إنهم يشجعونك على الاستمرار في الأوقات العصيبة، فأيديهم الحانية تربت على كتفيك في أوقات الضعف الإنساني وما أكثرها.

الحقيقة أن الأصدقاء يفعلون في حياتنا ما هو أكثر بكثير من مجرد إعطائنا كتفًا للبكاء وقت الحاجة، لذلك فإنني أشاطر الأطباء الرأي في قولهم إن الصداقة الحقة لها تأثير إيجابي على الصحة الجسدية والنفسية، لا تقل أهمية عن تناول الطعام الصحي وممارسة الرياضة والاستماع إلى الموسيقى.

يمكن للأصدقاء الداعمين مساعدة المرء على الشعور بمزيد من الثقة من خلال تقديم الثناء والطمأنينة عندما نشعر بعدم اليقين. سوف يسلطون الضوء على مدى روعتك ومقدار ما يمكنك تقديمه للآخرين في أوقات الأزمات، ولذلك فإن وجود الأصدقاء في حياتنا يساعدنا في التغلب على التوتر من دون أدنى شك.

اخترت أن أتحدث في هذا الفصل عن بعض الصديقات والأصدقاء، وهو

حديث شائق يحيلني إلى ذكريات كثيرة جميلة ومغامرات وزيارات ورحلات عشتها معهم. لقد مر بحياتي أصدقاء كثر تعرضت لبعضهم بالكثير من التفاصيل في ثنايا هذا الكتاب، وأتعرض للبعض الآخر في هذه المساحة لما لهم من تأثير إيجابي في مجرى حياتي.

* * *

عندما أتحدث عن الأصدقاء الذين لعبوا دورًا في حياتي، وتركوا بصماتهم على ركن أثير في قلبي، تأتي في المقدمة من دون تفكير أو منازع حسناء رضا مكداشي، ففيها تجد نبل الإنسان في أروع تجلياته، وصدق الصديق في أبهى معانيه، يتعانق كل ذلك مع قدرة فذة على العطاء للأصدقاء من دون حدود أو حساب.

في جنوب لبنان العزيز وُلدت حسناء، وهي بالمعنى المذهبي شيعية، لكنها من أولئك الذين يبهروننا بتجاوزهم حدود الطوائف والمذاهب الضيقة، فيسكن جوفها قلب رحب نابض بالعروبة، مقدس لفلسطين، هي مَن أخذتني من يدي وعرفتني على المجتمع الفلسطيني، بحكم أنه العالم الذي تحب، والقضية التي ترى نفسها مستعدة لأن تضحي بحياتها من أجلها.

كم كان لها من أثر طيب في نفسي تلك الحسناء، التي لها من اسمها نصيب كبير، فهي رقيقة الطبع، حنون، لديها استعداد على الدوام للقتال من أجلك ما دمت صديقها، تعطيك عينيها إذا أحبتك، لا تبخل عليك بأي شيء، تغمرك بفيض من المحبة والعطف يكفيك عمن سواها.

لا أنسى ما حييت وقفتها بجانبي عندما أجريت عملية جراحية في يدي، وقطعت أميالًا لتظل إلى جواري حتى يكتمل شفائي. كذلك دعمها النفسي اللامحدود لي عندما تُوفيت أمي، التي رثتها بكلمات ما زلت أحتفظ بنسخة منها بخط يدها الباهر تقول فيها:

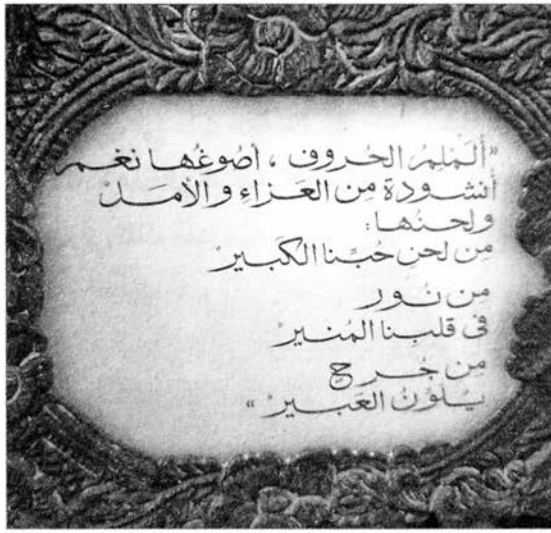

فتشت عن السر وراء قلب حسناء الكبير، فوجدت أنها في طفولتها قد سافرت إلى نيجيريا مع العائلة، لأن والديها اضطرا إلى الهجرة إليها، لإيجاد فرصة للعمل عند أقاربهما، حيث لم تتوفر لأهل الجنوب - بعد النكبة في فلسطين - فرص متساوية بلبنان. مكثت حسناء وأختها وأخواها في مدرسة داخلية تسع سنوات. وكان خالهم يزورهم من آنٍ إلى آنٍ. لم تزرع فيها تلك النشأة في بلاد بعيدة أي قسوة أو حقد على الآخرين، كما هو شائع نسبيًّا في الكثير من أوساطنا العربية، بل جعلت استعدادها للعطاء جزءًا أصيلًا من تكوينها.

درست حسناء في كلية بيروت للبنات، وجامعة لندن، ثم عملت في السياسة. وعملت بمركز التخطيط الفلسطيني، فتعرفت هناك على الدكتور محمد مكداشي، الحاصل على الدكتوراه في الرياضيات، والأستاذ في الجامعة اللبنانية، وكان متطوعًا في اللجنة العلمية في المركز، وتزوجا.

حسناء مناضلة عربية لبنانية، وكادر في حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) منذ أيام التنظيم الطلابي في بيروت، وقد لعبت دورًا مهمًّا في توفير القاعدة

السياسية للحركة، لما لها من قدرة كبيرة على التواصل والتنسيق بين المكاتب المختلفة للحركة والمنتشرة في دول عدة. كما كتب عنها الدكتور نبيل شعث، القيادي الفتحاوي البارز، في مذكراته.

مع اندلاع الحرب الأهلية في لبنان سنة ١٩٧٥ نزح الكثير من الأسر والعوائل من لبنان إلى مصر، وفي تلك الفترة تعرَّفت على حسناء، التي جاءت للعيش في القاهرة مع زوجها. وعملت مديرة لدار الفتى العربي، التي اشترك في تأسيسها الدكتور نبيل شعث، مع قرابة عشرين من المثقفين ورجال الأعمال الفلسطينيين واللبنانيين والمصريين، وكان مديرها العام، وقد أدارت هذه الدار بتفانٍ واقتدار طيلة وجودها. كان هذا العمل يستحوذ على جل وقتها وجهدها، لكنني أشهد أنها كانت تجيد فن إدارة الوقت، فلم تكن على الرغم من مشاغلها الكثيرة تشعر بمشكلة في أن تجد الوقت لعمل أي شيء تريده، وساعدنا وجودها الدائم بمكتبها على أن نلتقيها بسهولة ويوميًّا إذا أردنا.

لم تبخل حسناء عليَّ قَطُّ لا بحبها ولا بخدماتها. كانت حنونًا معي إلى أبعد مدى، ويسرت لي الكثير من الأمور في أثناء وحدتي وانكساري بعد رحيل كلاوس، وكثيرًا ما كانت تزور أمي يوميًّا. حسناء كانت بمثابة الجسر الحيوي الذي ربطني بعالم آخر كنت بعيدة عنه، ومن دون وجودها في حياتي ما أظن أنني كنت سأتعرَّف عليه، هذا العالم هو عالم القضية الفلسطينية والمجتمع الفلسطيني بكل زخمه في تلك الفترة، والذي كان يضم الكثير من الشخصيات العروبية من المحيط إلى الخليج، فمن خلالها تعرَّفت على أنطوان زحلان، وهو شخص عروبي، مدافع عن القضية الفلسطينية، وفي الأصل أستاذ فيزياء، وهو فلسطيني عاش بالولايات المتحدة.

حسناء هي رحلة العمر، في تلك الرحلة لنا الكثير من الأشياء والذكريات التي جمعتنا معًا، كانت سنوات محدودة، لكنها غنية وثرية مع إنسانة شاعرة وشاعرية ومحبة للفنون والآداب. كنت محظوظة أن جمعني عمل واحد بحسناء والدكتورة هدى زريق، أستاذة علم الأوبئة والإحصاء الحيوي بكلية العلوم الصحية في

الجامعة الأمريكية ببيروت، وابنة الدكتور قسطنطين زريق، الذي تربطني بعائلته صداقة كبيرة. خلال الفترة من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٨ كانت هدى زميلة أولى في المكتب الإقليمي لمجلس السكان في القاهرة. التقيت بها في مؤتمر وأُعجبت إحدانا بالأخرى، فجمعت ثلاثتنا الصداقة.

أنا واقفة إلى اليسار، مع وديع سعيد (ابن إدوارد سعيد)، وبجانبه الصديقة المقربة حسناء مكداشي، والجالس الدكتور قسطنطين زريق وزوجته نجلاء زريق، والدا صديقتي المقربة هدى زريق

وبحكم عمل حسناء في دار الفتى العربي كان لها صيت واسع وروابط قوية بالحياة الثقافية وكبار المفكرين والكُتَّاب، بذلك اجتهدنا وأسسنا معًا «نور – جمعية المرأة العربية» في عام ١٩٩٣ وغايتها كما جاء في طلبنا الرسمي:

«أولًا: المساهمة في تعزيز دور المرأة العربية في الحياة العامة الثقافية والفكرية والعلمية والإنمائية والاجتماعية والاقتصادية. ثانيًا: تنشيط وتطوير وإبراز إبداعات المرأة العربية في مختلف المجالات بشتى الوسائل والطرق المتاحة. ثالثًا: تأهيل وإعداد وتدريب المرأة العربية

وتنمية قدراتها الإنسانية، ومهاراتها المهنية والإنتاجية المختلفة.
رابعًا: إعداد شتى الأبحاث والدراسات والوثائق عن المرأة العربية، وأوضاعها وظروفها ونشاطاتها ومساهماتها وإبداعاتها المختلفة بكل الوسائل والمواد والتقنيات المتاحة، وبشكل خاص إعداد الدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والصحية، التي من شأنها العناية بالصحة الأسرية والنهوض بها اجتماعيًّا واقتصاديًّا وصحيًّا وغيرها، وكل ما يتفرع عن ذلك. خامسًا: تنظيم المعارض والندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسية والمنابر الثقافية عن المرأة العربية وشؤونها وقضاياها وإبداعاتها كافة».

وجمع مجلس المؤسسات: هدى زريق (رئيسة المجلس وأستاذة الإحصاء الصحي بالجامعة الأمريكية ببيروت، وخبيرة مشاركة في مجلس السكان الدولي بالقاهرة)، وثريا التركي (أستاذة في علم الأنثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة)، وحسناء مكداشي (المديرة التنفيذية لنور - دار المرأة العربية بالقاهرة)، وليلى شهيد (سفيرة منظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا)، ونادية حجاب (مسؤولة التنمية البشرية في برنامج الأمم المتحدة للتنمية بنيويورك)، وملك رشدي (محاضرة في علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة)، وشهيدة الباز (مستشارة في الاقتصاد والسياسة والتنمية بالقاهرة).

ونظمنا أول مؤتمر للكاتبات العربيات، وفازت بالجائزة التي يمنحها المؤتمر الروائية رضوى عاشور، التي جمعتها بحسناء صداقة قوية فيما بعد.

وأصدرت الجمعية مجلة «نور» الفصلية المتخصصة في مراجعة وتعريف ما يُنشر من الإنتاج الفكري للمرأة العربية، أو ما يُنشر عنها من دور النشر المختلفة في الوطن العربي وفي الخارج، لتفتح عوالم على كتابة المرأة العربية بتقديم منظم لاختيارات مميزة من كتب في الإبداع الأدبي والأبحاث والترجمات، وتُعرِّف بالدوريات التي تصدر عن المرأة العربية، وتعرض الندوات المتخصصة عنها. كما تقدِّم سيرًا مختصرة عن الباحثات والكاتبات والعالمات والفنانات التشكيليات العربيات. رأست تحريرها

الدكتورة أمينة رشيد، ومديرة التحرير حسناء مكداشي، وصدر منها ٢٢ عددًا، وبلغ مجموع الكتب التي تمت مراجعتها أو التعريف بها نحو ٦٥٠ كتابًا. هذا وشارك في مراجعات الكتب ١٦٤ كاتبة وكاتبًا من مصر ولبنان وسوريا والبحرين والعراق والمغرب وتونس وفلسطين وإنجلترا وهولندا والولايات المتحدة.

كما أصدرت الجمعية «موسوعة الكاتبة العربية»، وكتبًا في الأدب والنقد، وعلوم الصحة، والعلوم الاجتماعية، وكان من ضمنها كتاب صدر عام ٢٠٠٦ بعنوان «هكذا تكلمت النساء»، شاركت فيه مع الدكتورة ملك رشدي والدكتورة آمال طنطاوي، وهو نتاج دراسة ميدانية ركزنا فيها على نساء الطبقتين المتوسطة والدنيا في القاهرة من سنة ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٢ في خصوصيتها وتفاصيلها الحياتية، وهدفنا إلى إعطاء المرأة مساحة حرة للتعبير عن نفسها وواقعها ومجتمعها. المادة الأساسية في الكتاب كانت حوارات حية مع النساء بلغتهن. ومن خلالها رصدنا جوانب من تغيرات الأسرة المصرية، ووقفنا على الكيفية التي تفاعلت بها الأسرة المصرية مع المتغيرات والملابسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مرت بها في التسعينيات.

وفي عام ٢٠٠٦ أصدرت الجمعية، من خلال دار الشروق بالقاهرة، دراسة بعنوان «جدة أم الرخا والشدة: تحولات الحياة الأسرية بين فترتين»، اشتركت في كتابتها مع الدكتور أبو بكر باقادر والدكتورة آمال طنطاوي. فجدة تعيش منذ أكثر من أربعة عقود تحولات وتغيرات سريعة ومتلاحقة، فقد توسعت المدينة أكثر من ٤٥ مرة عن حجمها الأصلي، ولا تزال حركة النمو والتوسع فيها في عنفوانها. ومرت جدة - كما مرت جميع مناطق المملكة العربية السعودية - بمرحلة طفرة اقتصادية منذ عام ١٩٧٤، وحتى منتصف ثمانينيات القرن العشرين. وقد أعادت هذه الطفرة كتابة التاريخ الاجتماعي للمدينة. ونظرًا إلى أن الأسرة هي إحدى أهم مؤسسات أي مجتمع من المجتمعات، وأحد المؤشرات التي يُقرأ عبرها تاريخ أي مجتمع، فقد سعينا في هذه الدراسة إلى تحليل تاريخ جدة الاجتماعي، من خلال تحليل تاريخ الأسرة فيها. ومن ثَمَّ انصب اهتمام الدراسة على تمعن التحولات التي طرأت على حياة الأسرة عمومًا، والمرأة بصفة خاصة، كأحد أهم

أضلاع الأسرة، آخذين في الاعتبار السياقات الاجتماعية والاقتصادية العامة، والسياسات الموجهة للحياة الاجتماعية لأهل جدة، وحاولنا أن ترسم هذه الدراسة الاجتماعية التحليلية غير المسبوقة صورة إجمالية ممتعة وعميقة في آنٍ واحد لما خبرته مدينة جدة من مؤثرات طالت المملكة العربية السعودية ككل.

باعدت الأيام بين حسناء وبيني، فمعطيات الحياة تتغير وتتبدل أحيانًا، عادت هي إلى لبنان وبقيتُ في القاهرة، لكن محبتها في قلبي لا تدانيها محبة، متعها الله بموفور الصحة والعافية.

* * *

هدى زريق من أعز الأصدقاء وأجمل الناس الذين أسعدني الحظ بالتعرُّف عليهم. تقابلنا في حفلة عشاء في القاهرة سنة ١٩٨٨ عندما جاءت لتعمل مع مجلس السكان الدولي، وتواعدنا أن نذهب معًا إلى نادي الجزيرة في اليوم التالي، وكانت بداية صداقة أصبحت محورية في حياتي، هي تحب الرياضة والموسيقى والثقافة على وجه العموم، وشجعتني على أن أستمتع بها. وهي أول مَن شجعتني على الاستمتاع بالبحر، إلى درجة أنني ولفترة طويلة لم أقدر على دخول البحر من دونها.

صداقتي بهدى في فترة كثرت فيها الأمواج والاضطرابات، شكَّلت مرسى الأمان في حياتي، تُوفي أخي ولازمتني هدى إلى أن استطعت أن أجمع شتات نفسي، نقترب في السن، ولكن هي أكثر هدوءًا مني وبعدًا في النظر. هدى إنسانة حساسة وراقية في تعاملها، عرفتني على عالمها وأهلها الذين تبنوني. قلبها كبير يمتلئ حنانًا وإخلاصًا لبلدها وأهلها.

سافرنا كثيرًا إلى بلدان مختلفة، وكل سفرية قربتني منها أكثر فأكثر، كانت معي في أكثر مراحل حياتي: مثل الذهاب إلى واشنطن، حيث استضافتني أختاها المرحومتان إلهام وعفاف، وساعدتاني في أن أجد شقة وأن أتعود على البلد. حمتني هدى حتى من نفسي، وراعت مصالحي بقلبها الحنون ورشدها، فتشابكت خيوط حياتنا. حاسمة في قراراتها، وصادقة التعبير. شجعتني على الزواج من شاهرخ وكانت بجانبي دائمًا.

كثيرًا ما أعتقد أن الله راضٍ عني بتيسير هذه الصداقة. تحضر لزيارتي من لبنان فتحضر البهجة معها، تستمع إلى مشكلاتي؛ بداية من مشكلات الخدم إلى مشكلات العمل، وتتوحد معي ثم تسافر فتترك فراغًا كبيرًا.

حققت تفوقًا في دراستها في جامعة فيلادلفيا، وأثبتت نجاحًا متميزًا في وظيفتها، بل منحتها جامعة بنسلفانيا في ٢٠٢٣ جائزة الخريجة الأكثر تميزًا.

صديقاتي من اليمين إلى اليسار حول المائدة: د. هدى زريق، وأنا، ود. جيهان رجائي، ود. مايسة الجمل، ود. ملك رشدي، وجيليان بوتر، والمرحومة د. إلهام زريق، ود. مديحة دوس

* * *

يحار المرء عندما يحاول التحدث عن صديقة حبيبة هي الدكتورة ناهد عسيران، التي تنتمي إلى أسرة تقطن جنوب لبنان. كان عمها عادل عسيران، رئيسًا سابقًا لمجلس النواب اللبناني، وعُين وزيرًا أكثر من مرة.

تزوجت ناهد رجلًا كندي الجنسية، وحدث أن حصلت وزوجها على عمل بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. كنت وقتها صديقة لأختها الصغيرة رندا، التي تعيش

في لندن، وهي صديقة عزيزة، وهي التي احتفلت بزفافي على كلاوس، وقت أن تخلى عني جميع أهلي.

أخبرتني رندا أن ناهد تعيش في مصر وتعمل بالجامعة الأمريكية. كانت إنسانة تتمتع بقدر فائق من فن إدارة العلاقات الاجتماعية والانفتاح على الناس، أكثر بكثير مما يُعرف عن غيرها من الأكاديميين، بمن فيهم أنا.

كانت لناهد شبكة علاقات واسعة في القاهرة، فهي مَن عرفتني على رفيف أبو ريشة زوجة الدبلوماسي والمفكر المصري جميل مطر، وابنة الشاعر السوري عمر أبو ريشة، وصارت من أعز صديقاتي. تعرَّفت عن طريق ناهد أيضًا على الدكتور علي مختار، والسفير شكري فؤاد. كل هؤلاء مروا بحياتي، وكل واحد منهم بمثابة الكنز الذي أضاف لي ولشخصيتي.

كانت ناهد داعمة لي على الدوام، خصوصًا في الفترة التي أعقبت وفاة كلاوس، حيث عشت في بيتها لمدة شهر، كما سافرت معي إلى الولايات المتحدة صيفًا في محاولة لتخفف عني وطأة ما كنت أعانيه من حزن.

أنا على اليسار، واثنتان من صديقاتي المقربات: ناهد ورندا عسيران

* * *

بدأت علاقتي بالدكتور جلال أمين من خلال زمالة وصداقة ربطتني بزوجته جان التي كانت طالبة تدرس معي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فبعد أن انتهيت من الليسانس بدأت معي فصلًا دراسيًّا جديدًا في الدراسات العليا. تتميز جان بثقافة عالية وأفق واسع وتميز متفرد مقارنة بنا. كانت تصحح بعض المعلومات لأستاذ جاء ليدرس لنا إحدى المواد من جامعة حلوان، وكانت لغته الإنجليزية متواضعة، وهي بريطانية. قابلها الدكتور جلال في بلدها وأحبا بعضهما وتزوجا، وجاءت للعيش معه في مصر.

لذلك الارتباط وتلك التجربة النادرة في الإخلاص والحب المتبادل، قصة كنت دومًا أحب أسمعها على لسان جان، التي تقول فيها:

«الصدفة هي التي جمعتني بجلال وربطتنا ببعضنا في إنجلترا، حيث تعارفنا عن طريق فتاة عراقية، وبعد سنتين كاملتين طُرحت فكرة زواجنا، ولم أقابل أي أزمة من مسألة ارتباطي برجل عربي، لأن والدَي كانا منفتحين تمامًا على الآخر، وتربيت على ذلك حتى في فترة إقامتي بألمانيا.

اعترضت على الزواج جدتي لوالدتي، لذا قررت أن تتعرف أسرتي على جلال، وكنت على ثقة بأنهم سيحبونه، وحدث ذلك، وحتى جدتي تلك أصبحت أكثرهم حبًّا وانبهارًا به، وكان يحب الجلوس معها والاستماع إلى قصصها لساعات، ثم تكللت علاقتنا بالزواج عام ١٩٦٤.

قررنا الحياة في مصر، ووصلنا إليها في مايو حيث كان الجو حارًّا، واستقبلنا شقيق جلال في بيته، إلى حين تجهيز البيت الذي سنقيم به في المعادي، ثم انتقلنا إليه بعد تجهيزه، وكان عبارة عن طابق واحد، ولم يكن به سوى بوتاجاز صغير، وثلاجة اشتريناها بالتقسيط، واستعرنا سريرًا من شقيقه لم يكن في حاجة إليه.

بعد فترة، بدأنا في زيارة عائلته، وواجهتني مشكلة اللغة، لكني

تعلمتها عن طريقه بعد ذلك، وتأقلمت مع الحياة في مصر، واستمر وضعنا صعبًا لمدة ٧ سنوات، حتى استطعنا فرش المنزل ليصبح مقبولًا، وكان اعتمادنا الأساسي في التنقلات على ترام القاهرة، ولم تكن هناك مواصلات من المعادي إلى وسط البلد، وكنا نواجه صعوبة في ركوب التاكسي آنذاك، فراتب جلال حينها من جامعة عين شمس كان ٣٥ جنيهًا فقط.

ظل جلال قلقًا بسبب عدم أدائه فترة التجنيد في الجيش، وكان قد تبقى له نحو عامين ويتجاوز السن القانونية للالتحاق، وكثيرًا ما قال لي: «إذا حدث شيء وأخذوني، روحي لإخواتي وهما هياخدوا بالهم منك».

تأخرت في الإنجاب بسبب رغبتي في إتمام تعليمي للغة العربية، وظللت ٤ سنوات أفكر في القرار، ثم أنجبنا ابنتنا الأولى دانية، التي اختار جلال اسمها بنفسه، ورفض الاسم الذي اخترته أنا، وهو لارا. حين وُلدت دانية كان جلال في العراق، وذلك لأنها وُلدت قبل ميعادها المحدد بـ١٢ يومًا، فتواصل مع إخوته وأصدقائه حينها وأوصاهم عليَّ، وظلت البنت من دون اسم لعدة أيام، حتى جاء واختاره.

وحين كبرت دانية رويت لها كل هذه التفاصيل، فقررت هي تسمية ابنتها لارا، التي حازت اهتمامًا وحبًّا كبيرين من جدها جلال، وظهر ذلك جليًّا على غلاف كتابه «رحيق العمر» الذي اعتبره الجزء الثاني من كتاب «ماذا علمتني الحياة؟»، واستكمالًا له، وبمثابة سيرة ذاتية».

ربطتنا - مديحة خياط وأنا - صداقة قوية بجان خلال دراستي في الجامعة الأمريكية قبل سفري مباشرة إلى كاليفورنيا. وأذكر أن أحد الأساتذة طلب منا بحثًا ميدانيًّا، فتعاملت أنا ومديحة بخفة مع الموضوع، فجُن جنون جان، ويبدو

أنها حكت للدكتور جلال عن صنيعنا الشنيع، لذلك حين عرفتنا عليه في بيتهم بادرنا بقوله: «أهلًا بالنصابين»، وضحكنا.

سافر الدكتور جلال وأسرته بعد ذلك للعمل في جامعة الكويت. كانت ناهد عسيران تسأله:

- إنت مبسوط في الكويت يا دكتور؟

كان رده معبرًا عن خفة دمه الفطرية، إذ كان يشير بيده تجاه جيبه، كناية عن أن الحال ماشية ويقول وهو يضحك:

- كلما وضعت يدي على جيبي فرحت.

عادوا بعد فترة إلى مصر وشيدوا فيلَّتهم الأنيقة في المعادي، فيما كنت أنا قد عدت للتدريس في الجامعة الأمريكية منذ سنة ١٩٧٧. ومن خلال علاقتي بالدكتور جلال وجان وناهد عسيران دخلت في شلتهم التي كانت تضم الدكتور علي مختار وزوجته المرحومة نبيهة لطفي، وكان ثلاثتهم أصدقاء منذ أن كانوا زملاء دراسة في مدارس مصر الجديدة. وكان ضمن الشلة كذلك الأستاذ جميل مطر وزوجته المرحومة رفيف أبو ريشة، كما سبق وأشرت. وعلى تخومها كانت هناك شخصيات مرموقة مثل المفكر ونائب رئيس مجلس الدولة الراحل المستشار طارق البشري وزوجته. بدخولي هذه الشلة بدأت حياتي تأخذ منعطفًا مختلفًا، وأشكر ناهد وجان من كل قلبي أن ساعدتاني على التعرُّف على كل هؤلاء العظماء.

كانت وفاة ناهد فاجعة في حياتي، نزل الخبر عليَّ كالصاعقة، تألمت كما لم أتألم من قبل، كم هو موحش ذلك الموت الذي يخطف منا أحبابنا ويحيل حياتنا إلى جحيم، انتظارًا لضحيته التالية من أحبتنا! من فرط خوفي ومن فرط الفراغ الذي تركته ناهد في حياتي شعرت بأنه لم تتبقَّ لي إلا أسرة الدكتور جلال، صرت أتصل بهم كثيرًا عبر التلفون ونتبادل الزيارات، شعرت بأن الدكتور جلال أخ بالنسبة إليَّ، كنت أستشيره في بعض الأمور، وكنت أعمل بنصحه في غالب الأحيان.

حين كان يسافر إلى إنجلترا وأكون هناك كان يقابلني ويتقابل مع أهلي، وأحبه

أخي أحمد كثيرًا، فالدكتور جلال صاحب حضور لافت وحس فكاهي ذكي، كلما صادفتني مشكلة أرجع إليه. في مرة كنت أستعد لإلقاء محاضرة في جامعة القاهرة، وكانت جان والأولاد قد سبقوه إلى إنجلترا فأخبرته بأن عندي محاضرة وأشعر برهبة، فأصر على أن يحضر معي المحاضرة، وعرَّفني على الأساتذة مما أزال الرهبة من نفسي، وقتها شعرت بأنه امتداد لأسرتي، بل إنه شخص من العائلة.

ارتبطت كثيرًا بجان، فهي إنسانة رائعة، فبجانب ذكائها الحاد، ودقتها المتناهية في أي عمل تقوم به، تجمع في امتزاج عجيب بين التفكيرين العقلاني والعاطفي، فلا يطغى أحدهما على الآخر. أكثر ما يعجبني فيها أنها ممتلئة بالثقة في نفسها، فعلى الرغم من هالات الضوء التي كانت تحيط بالدكتور جلال في الحياة العامة المصرية والعربية فإن ذلك لم يزعجها، بل كانت تعتبر نجاحه هو نجاحها، في تجسيد حي من لحم ودم لمعنى الحب.

تتمتع جان بحس إنساني يعز وجوده، «صاحبة صاحبتها» كما يقولون في مصر، من الممكن أن أرفع سماعة التلفون لأطلبها في منتصف الليل لأخبرها بمنام رأيته، فتستمع إليَّ باهتمام بالغ ومن دون ضجر، فقدرتها على الاستماع مذهلة، تنصت لي مثلما كانت تنصت لي أمي، على الرغم من أن جان في مثل عمري، وكم أذهلني إتقانها السريع للغة العربية، ومطالعتها للأدب العربي، رغبة منها في أن تشارك زوجها وأهله الاهتمامات، وبذكائها أدركت أن اللغة المشتركة تخلق تصورات وقواسم مشتركة بين البشر.

كانت لديَّ مشكلة مع بعض أفراد أسرتي ترتبط ببعض الأمور المالية، فاستشرت جان، وبعد نقاش طويل رأت أن أتنازل عن المال لأجل علاقتي بأسرتي. وهنا طغى حسها العاطفي على عقلانيتها ربما لأول مرة، بعدها تحدثت مع الدكتور جلال في نفس المشكلة، نصحني بألا أعمل بنصيحة جان، وأنني يجب أن أحتفظ بالمال الذي تعبت في الحصول عليه، وأن الحرص على روابط الدم والقرابة يجب أن يكون رغبة مشتركة من كل الأطراف، لا من طرف واحد، وإلا سُمِّي ذلك «ابتزازًا».

من اليسار إلى اليمين: أنا، والدكتور جلال أمين، وشاهرخ، وجان أمين، وجوان كليفورد، صديقة جان المقربة، في جيلدفورد ساري بإنجلترا عام ٢٠٠٤

كان الدكتور جلال - رحمة الله عليه - على انفتاحه على الثقافة الغربية، يحترم التقاليد العربية، فذات مرة كنا في إجازة صيفية، وكنت أرتدي لباس البحر، وأخذت أروح وأجيء على الشاطئ بجواره، إذ كان يعشق القراءة والكتابة على الشط، وإذ به يلمح بعض الشباب ينظر إليَّ نظرة لم تعجبه، فنهض من جلسته ونادى عليَّ بصوت مرتفع وآمر وعصبي ومستنكر: «تعالي هنا».

الحقيقة أنني شعرت بالحرج. لم يعلُ صوت أحد عليَّ من خارج أهلي قَطُّ، لكنني أدركت أنه على حق، وفي المساء ذهبت إليه وسلمت عليه وقبَّلت رأسه، وزاد تقديري له، لأنني شعرت بأن غضبه إنما يعود إلى أنه اعتبرني جزءًا من أهله وعِرضه الذي يغار عليه.

قضيت سنوات مع الدكتور جلال في مقر الجامعة الأمريكية بميدان التحرير، كان مكتبي بالطابق الأرضي، ومكتبه بالطابق الثاني، كنت أذهب إليه على الدوام،

فيطلب لي القهوة، وأحكي له مشكلاتي. كانت لديه قدرة عجيبة على الاستماع إليَّ ودعمي، فلم يخبرني ولو بالإشارة في أي مرة بأنه مشغول، وهو حتمًا كان مشغولًا في كثير من المرات، لقد كان لطيفًا وإنسانًا راقيًا إلى أبعد حد. هذا الدعم المعنوي والإنساني لن أنساه أبدًا للدكتور جلال وأسرته.

لم يقتصر دعم الدكتور جلال لي على الشق الإنساني فقط، بل دعمني كذلك على الصعيد العملي، فبعد أن انتهيت أنا وزميلي دونالد كول من تأليف ونشر كتاب «عنيزة: التنمية والتغيير في مدينة نجدية عربية» باللغة الإنجليزية احتجت إلى ترجمته إلى العربية، فطلبت مشورة الدكتور جلال ودعمه في أن يدلني على مترجم متمكن، فقال لي: «أرسلي الكتاب إلى أخي الدكتور حسين أمين»، وقد أرسلته إليه وبعدها تحدثنا وأخبرني حسين بأن الكتاب كبير الحجم، وأنه يعتذر عن عدم ترجمته. وأخبرت الدكتور جلال فقال لي: «يبدو أن حسين كسلان»، وفاجأني بأنه سيترجمه هو بنفسه. قال: «لعلها فرصة للتعاون العلمي بيننا، وفرصة لكي أتعرَّف على عوالم عنيزة». كان ذلك لطفًا منه، وبدأ بالفعل في الترجمة، وبعد أن تخطى نصف الكتاب انشغل، فاستعان بالأستاذ أسعد حليم لمساعدته.

كم أفتقد الدكتور جلال أمين في كل وقت وكل حين! على روحه السلام إلى أن نلتقي.

* * *

عزيزة وجيهان رجائي أختان تشعان ذكاءً ومحبة وحنانًا، امتدت صداقتنا من سنة أولى جامعة. أحببتهما من دون تمييز، وإلى اليوم لا أعرف مَن أحب أكثر. عزيزة هي الأكبر، وجيهان في نظري هي الأقوى، أغدقتا عليَّ بالمحبة والعطاء. عندما تُوفيت والدتي ذهبت بها إلى جدة، وفي العودة وجدت جيهان تنتظرني في المطار. لا أذكر لماذا كانت الإجراءات بطيئة جدًّا في المطار وبالنسبة إليَّ أكثر من الآخرين. امتد الانتظار إلى أكثر من ساعة، وعندما خرجت وجدتها كما الملاك أمامي، حضنتها ولدقائق نسيت مصابي.

صديقتي المقربة جيهان رجائي على اليسار، وأنا

أتذكر مساندتها لي دائمًا ودورها في السعي إلى تثبيتي في الجامعة، كما ذكرت سابقًا. كانت معروفة بين أصدقائها - هي عالمة الكيمياء المتفوقة - بأنها تؤمن بالنذر فتمتنع مثلًا عن طعام تحبه أو نشاط يسعدها لتحصل على ما تريد، أو ما يريده أصدقاؤها. دائمًا متفائلة. التفاؤل يشع من وجهها الجميل. متواضعة إلى درجة الحرج، وصلبة مع الحق بلا هوادة، مبتسمة أكثر الوقت، لبقة دائمًا تقول النقد من دون تردد، لكنها لا تجرح أو تنافق.

جيهان هي بطلة مصر في السباحة، وحازت لقب الطالبة المثالية من الجامعة، وأستاذة يشهد لها الجميع. ربطت بيننا الاتصالات الهاتفية اليومية. كنت أحكي لها كل ما يمر برأسي من دون تردد وآخذ بنصيحتها. سافرت إلى أمريكا وأصبح لقاؤنا في موسم الصيف وبعض الإجازات فقط إلى أن عدت إلى الجامعة أستاذة، وكانت هي أيضًا أستاذة في قسم الكيمياء. لجيهان صداقات كثيرة غيري، ولكن كلما صادفتها تجعلني أشعر بأنني صديقتها الوحيدة، وتعلمت منها أن أتفاءل وأن أضحك بصدق.

أما عزيزة فامتدت صداقتي بها من الجامعة الأمريكية إلى سنوات عملي في

أمريكا. تمثل لي عزيزة العقل المتزن والحكمة القاطعة. كنت أزورها في بيتها في نيويورك وأبقى لأيام نقضيها معًا مع زوجها حامد.

كانت عزيزة تدرِّس في جامعة فوردهام وكنت أنا في مانهاتن لإجراء بعض الفحوصات، كانت تقوم برحلة طويلة لتشد من أزري وترفع من معنوياتي. كنت في زيارة لها عندما وصل إليَّ خبر وفاة زوج أختي في جدة، وكان عليَّ العودة حالًا، أسرعت عزيزة تدبر كل إجراءات السفر من حجز وتذاكر وخلافه.

أنا، وصديقتي المقربة عزيزة رجائي

* * *

هذه الباقة من الأصدقاء شكَّلت الدعم الأكبر لي في مسيرتي، غمروني بمحبتهم الصافية، وعطفهم اللامتناهي، أشعر بأن لكلٍّ منهم جميلًا يطوق عنقي، في زمن صار فيه من الصعب أن تجد مَن يسمعك أو يفتح لك أحضانه أو بيته متى احتجت إلى الدعم النفسي في محطات الحياة التي لا تنقطع، لكننا لا نعبرها إلا بأمثال هؤلاء الأصدقاء الذين مهما كتبت عنهم لن أوفيهم بعضًا من جميلهم، أحبكم كلكم.

١٢
البحث عن الهوية
مَن أنا؟

حتى عمر الخامسة تقريبًا، تشكَّلت هويتي على خلفية ولادتي بوصفي الابنة الصغرى لشيخ نجدي وربة منزل حجازية. بصرف النظر عن الأبناء الذين ماتوا عند الولادة أو بعد ذلك بوقت قصير، كان عددنا نحن الأطفال خمسة، وكنت أصغرهم سنًّا. كنا عائلة حضرية ترجع جذورها إلى مدينة جدة. كان والدي تاجرًا خدم في منصب رفيع المستوى في الإدارة المالية في الدولة السعودية المبكرة، وكانت والدتي ربة منزل من عائلة تجارية في تلك المدينة. لقد كانت حياة مريحة، وشعرت بالحب والأمان.

كان والداي مهندسَي تكوين قِيم طفولتي و«المشرفين الرئيسيين» على حياتي في هذه المرحلة. بالإضافة إلى ذلك، بعد فترة طويلة أدركت أن والدَي قد أوكلا أجزاءً مهمة من هذا الدور إلى أختي الكبرى، منيرة. وكما هي الحال مع جميع الأطفال، فإن الأرض تتغير من تحت أقدامنا مع مرور الزمن والظروف التاريخية. شعرت أحيانًا بأنني أُعامل بشكل غير عادل، بلا شك، في تلك المناسبات التي كنت أتعرض فيها للتوبيخ. لكن بشكل عام، بدا لي أنني أثق بأن تعليمات والدي وأختي كانت مشروعة وقائمة على الآمال والتمنيات لرفاهيتي.

يبدو أن الصور الفوتوغرافية التي التُقطت لي عندما كنت طفلة صغيرة تعكس جوًّا معينًا من التحدي، كما لو كنت أقول للمراقب: سأناضل من أجل استقلالي عن القواعد العبثية التي تهدف إلى إبقاء الإناث «في مكانهن». على الرغم من أنني شعرت بأن والدَي كانا حريصين على نشر معايير الأنوثة المحتشمة بين أخواتي، فإنني كنت أعرف أنهما سيكونان أكثر تسامحًا معي. لا أقصد المبالغة في هذا. لقد تمسك والداي بالقيم المحافظة. لكنني أدركت أن الأمور لن تسوء إلى حدٍّ كبير إذا اختبرت الحدود بين المسموح والمرفوض. قدمت شقيقتاي منيرة وخديجة شخصيتين أقرب مني إلى شخصية «الابنة المطيعة».

هل كنت شخصًا واثقًا أم أنني لم أثق بوالدَي وإخوتي وبيئتي؟ هل حددت عالمي بطريقة تجعلني أشعر بالراحة فيه لأتصرف كشخص بشكل مستقل إلى حدٍّ ما؟ من الواضح أن الطفل الذي يتعلم المشي والتحرك بمفرده لا يمكنه التصرف باستقلالية كاملة. ولكن، اسمحوا لي أن أطرح السؤال بالعكس: هل كانت حركاتي الجسدية وتعبيراتي عن رغباتي مقيدة بمشاعر الذنب والعار؟ على سبيل المثال، هل كانت تصرفاتي الشقية - مثل الاختباء في خزان المياه نصف الفارغ هربًا من غضب والدي - هل كانت هذه التصرفات كما شرحت سابقًا مثيرة للشك في آثارها الإجمالية؟

لا أنكر شعوري بالخوف من احتمال الاضطرار إلى مواجهة غضب والدي، ولا أستطيع أن أقول إنني تعاملت برباطة الجأش ومن دون خجل في مجرد التفكير في مواجهته في تلك المناسبات. لكن هل أصابني شعور بالذنب أو العار؟ جوابي هو «لا» مدوية! إن الصورة التي أحتفظ بها عن والدي طوال حياتي هي صورة الوالد المحب والمتفهم والعطوف، بعيدًا عن فكرة «المارتينيت»(*)، الذي يرى

(*) يشير مصطلح «المارتينيت» (The Martinet) في اللغة الإنجليزية، إلى أولئك الذين يستخدمون السوط؛ أولئك الذين يطالبون بالالتزام الصارم بوضع القواعد ويعاقبون مَن لا يتبعها. واشتُقَّت الكلمة من اسم جان مارتينيه، المفتش العام لجيش لويس الرابع عشر.

أن دوره هو الحفاظ على أولاده، وإن كان مختلفًا وأكثر تسلطًا مع والدتي! أما بالنسبة إلى والدتي فقد كانت كما أوضحت مربية، وهذا يعني أنه كان بإمكاني من خلالها الوصول إلى منطقة الأمان التي بدا لي أنها توفرها لأطفالها، ومع ذلك، باعتباري ابنتها الصغرى، لا أذكر أنني سعيت إليها لأخبرها ببعض أفكاري الخاصة حول رغباتي وآمالي.

لقد أخبرني الآخرون بأنني كنت أميل في كثير من الأحيان نحو السلوك الشقي. في الواقع، لديَّ ذكريات مستقلة عن مثل هذا السلوك. كان هذا النمط في طفولتي يُقابَل أحيانًا بسخط الوالدين وانضباطهما، وبشكل أكثر تحديدًا لجوء والدتي إلى قرصي، أو توبيخ والدَي اللفظي الغاضب عندما بدا لهما أنني أسيء التصرف. ومع ذلك، لم أشعر قَطُّ بأنهما يريدان تكميم فمي أو تقييدي.

ولعل هذا الانفتاح الأكبر من جانبهما كان بسبب شعورهما بأن ابنتهما الصغرى يمكن أن تُمنح بعض الفسحة. باختصار، أعتقد أنني استمتعت ببعض الحرية، ولم أكن بحاجة إلى نفس الدرجة من الحذر التي كانت مطلوبة مع أخواتي الأكبر سنًّا. كان شعوري هو أن والدَي أحيانًا يغضان النظر من وقت إلى آخر في مواجهة أفعالي الجريئة للغاية.

في المنزل، هناك صورة لي وأنا في السابعة أو الثامنة من عمري، على ما أعتقد، مع والدي. إنه يبتسم بتحفظ، وبينما لا أفعل ذلك بطريقته الأكثر وضوحًا، فإنني أنظر مباشرة إلى الكاميرا، ويكتشف المرء آثار تعبير مرتبك إلى حدٍّ ما على وجهي يوحي بفتاة صغيرة فخور وواثقة... مَن هي؟ في صورة أخرى في نفس العمر تقريبًا ولكن هذه المرة بمفردي، كنت أنظر مرة أخرى مباشرة إلى الكاميرا بنظرة مركزة، لكن تعبيري هذه المرة أكثر جدية، ويمكن القول إنه يعكس قدرًا من التحدي.

والدي وأنا في بحمدون بلبنان

أنا بنظرة متحدية في سن السابعة أو الثامنة

* * *

وكما أوضحت أنني في سن ما بين المراهقة والشباب كنت ملتزمة تمامًا بهدف تحقيق النجاح كامرأة. كنت دائمًا فخورًا جدًّا بكوني نسلًا لعائلتي، وكنت أتصرف بطريقة تحترم هذا الهدف بأقصى ما أستطيع. لكنني لم أرَ نفسي قَطُّ أكافح من أجل السعادة والنجاح في الحياة من حيث كوني عضوًا في عائلتنا ذات المكانة العالية، كما لو أن هذه المكانة تمنحني السعادة والنجاح. إن النجاح في الحياة هو حق تجب المطالبة به. إن حبي لعائلتي وأي استحقاقات قد أطالب بها كأحد أفرادها لم يكن مبنيًّا على مكانة تلك الأسرة في المجتمع، بل إن حبي ومطالباتي كانت دائمًا مبنية على تصوري بأن القيم والأعراف التي يلتزم بها أعضاؤها مثيرة للإعجاب، وكان الأعضاء أنفسهم بشرًا شرفاء، ويستحقون تمامًا حبي لهم.

ومن ناحية أخرى، بدأت تدريجيًّا في تحديد أهدافي في الحياة بناءً على الأشياء التي يمكنني تحقيقها بشكل مستقل عن جذور عائلتي، وبشكل مستقل وبمفردي كامرأة. ولم يكن هناك تناقض بين الاثنين.

ومع ذلك، من المؤسف، كما ذكرت، أنني أصبحت أحمل في نهاية المطاف مشاعر متناقضة، ويبدو أن الضغوط التي تعرضت لها في تلك الأوقات كانت من الصعب جدًّا مقاومتها. لقد ظهر هذا التناقض في ذهني بعد أن أرسلني والداي إلى الخارج لتعليمي. عندما نظرت إليهما في ضوء تعرضي للبيئة الأكثر عالمية في بيروت والإسكندرية والقاهرة، كما سبق أن شرحت، فإنني أصبحت أرى والدي وأمي «غير عصريين»، وهذا ما أزعجني. لم أكن أرغب في أن يرى أصدقائي الأجانب والمدرسون والإداريون في هذه المدارس والدتي وأخواتي يرتدين الحجاب، في حين أن الكثير من الأمهات والآباء الآخرين يرتدون ملابس «حديثة» (غربية). لم أكن أرغب في أن يُنظر إليَّ على أنني ابنة عائلة عربية «تقليدية»، لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى زيادة إغاظة أصدقائي لرؤيتي معهم. لقد كانت هذه المضايقات الموجهة إليَّ وحدي سيئة بما فيه الكفاية، والآن ستتفاقم عندما يروننني مع نساء عائلتنا اللاتي - كما رأيت - بدا كأنهن ملتزمات بطرق «متخلفة».

كان من الصعب عليَّ أن أختبر مثل هذه المشاعر، حيث بدا أن الاستسلام لها كان بمثابة الرغبة في التخلي عن جذوري العائلية لصالح الأعراف والقيم «الحديثة». كيف يمكنني أن أستسلم لفكرة الرغبة في إبقاء والدي «خارج الصورة»، إذا جاز التعبير، حتى أشعر بالارتياح لكوني عضوًا في جماعة طلابية «حديثة»؟ لقد شعرت بالأسى بسبب هذا التحول في الأحداث، وانزعجت من مدى استعدادي للاستسلام لمشاعر الخجل بسبب جذور عائلتي. سأذهب إلى أبعد من ذلك لأقول إن هذا الشعور بأنني أردت أن يُنظر إليَّ كامرأة من عصري (وأعني بذلك «المرأة العصرية») ولكن في الوقت نفسه امرأة عربية، كان ينطوي على صراع مستمر في شخصيتي... لقد شعرت بالقلق من أن يغريني العالم الحديث، لأنه قد يمثل مكانًا زائفًا قد لا أنجح فيه. لكنني كنت قلقة أيضًا من أنه إذا تراجع انجذابي إلى المحيط العالمي بطريقة أو بأخرى، فإن ذلك أيضًا سيضعني في وضع غير مواتٍ بالنسبة إلى فتاة وامرأة تحاول «النجاح» في العالم.

لن أستسلم لأولئك الذين حاولوا أن يقولوا لي إنني يجب أن أتخلى عن ماضيَّ لصالح مستقبل «تقدمي». وكما كتبت، فإن أي محاولة لإهانة سمعة عائلتي من شأنها أن تبرز روحي القتالية. شاهِد، كما سبق أن وصفت، مدى السرعة التي دافعت بها عن والدتي (حتى عندما لم تكن حاضرة لسماع الإهانة الموجهة إليها) في مواجهة السب من معلمة في المدرسة، أشارت ضمنيًّا إلى أن حجابها شيء همجي. وكان هذا الدفاع، كما أشرت سابقًا، على شكل صفعة على وجه تلك المعلمة. هل هناك تعبير أقوى عن غضبي من هذه المعلمة والتزامي بقيم عائلتي من هذا التصرف العنيف الذي قمت به؟!

أستطيع أن أقول إنه منذ أيامي المبكرة في بيروت ولوزان فصاعدًا، أبقيت وعيًا حيًّا بأنني ابنة عائلة من نجد والحجاز. لم تختفِ مشاعر التناقض بداخلي، بل هي واضحة مثل الخيط الأحمر في القماش الذي نسجته أنا من تجارب وفرص حياتي التي تأثرت باللهجة النجدية والحجازية. من العوامل التي تُظهر الهوية هي اللغة واللهجة. كطفلة في جدة نشأت أتكلم باللهجة الحجازية وإن

كانت متأثرة إلى حدٍّ ما باللهجة النجدية، لكن بعد بداية تعليمي خارج البلاد أدركت أن لهجتي الحجازية تعقد اندماجي في المجتمع المصري. قالوا لي إنني أجيد العامية المصرية، وكنت أفتخر دائمًا بقدرتي على التعامل مع هذا التحدي اللغوي.

لكن من المفارقة أنني غير متأكدة من رغبتي في حل إشكال الهوية هذا لصالح اللهجة القاهرية. وكما ذكرت سابقًا، عندما قدمتني إحدى صديقاتي إلى جمع من أصدقائها على أنني مصرية، تدخلت على الفور لأقول: «أنا من جدة وعربية».

علاوة على ذلك، عندما ألتقي أقاربي (الأخوات، وأبناء العم، والبنات، والعمات، والأعمام) الذين يأتون لزيارة مصر، فإنني أغير مزاجي بسهولة وأتحدث باللهجة الحجازية، على الرغم من أنني قد أعود إلى اللهجة المصرية في أجزاء قليلة من المحادثة معهم. إذا كانت الصورة هي صورة «البندول» وهو يتحرك ذهابًا وإيابًا، فأنا لا أقصد الشكوى. على العكس تمامًا، لقد شعرت دائمًا بأن قدرتي على إجراء هذه التبديلات في اللهجات ما هي إلا مجرد جانب من جوانب الطريقة التي أتحدث بها. في الماضي، من منظور مرحلة البلوغ، أعتبر القدرة على إجراء هذه التبديلات جزءًا مهمًّا من هويتي.

هذه القضايا اللغوية رافقتني إلى الفصل الدراسي، حيث إن أحد الموضوعات التي أرى أنه من المهم مناقشتها مع طلابي هو التغيير الاجتماعي، لأنه أثَّر على العالم العربي. في بعض الأحيان يفضِّل الطلاب تجسيد المفاهيم المجردة، مثل التحديث والتقاليد. أجد أنهم منخرطون للغاية عندما أتعامل مع إشكالية مثل هذه المفاهيم بالرجوع إلى تجاربي الخاصة. أسأل طلابي عما إذا كانوا يعتقدون أن الشخص الذي يتقن اللغتين العربية والإنجليزية واللهجتين الحجازية والقاهرية لديه فرصة أفضل للفهم والعيش في عصره (وهي طريقة أخرى للتعامل مع تحديات وفرص العالم المعاصر) من الشخص الذي لا يتحدث إلا بإحدى هاتين اللغتين أو اللهجتين.

عندما أنظر إلى الوراء أرى أنني أعتبر كوني عربية مفتاحًا لشخصيتي. لذلك، على الرغم من رغبتي في رؤية نفسي كامرأة عصرية مثالية في «العالم المودرن»، مع تجارب تتراوح جغرافيًّا وثقافيًّا بعيدًا إلى أماكن مثل لندن ونيويورك وروما وسان فرانسيسكو وباريس، فإنني رفضت رفضًا تامًّا الانسلاخ عن هويتي العروبية، على غرار بعض أبناء وطني الذين يبدون الحرص على إبعاد أنفسهم عن جذورهم الثقافية الأصلية.

ترجم ذلك التمسك بالعروبة دعمي المتحمس للعروبة والوطنية الفلسطينية. وعندما تقدم لي شاهرخ للزواج، كان من أبرز النقاط التي أثرتها معه تمسكي بعروبتي وتضامني اللانهائي مع فلسطين، وإذا كان لديه أي تحفظ في هذا الخصوص فإنني سأنسحب من مشروع الزواج! ومن حسن الحظ، ثبت أنه ليست لديه مشكلة أو تحفظ مع هذا الحماس للعروبة ولفلسطين.

لقد واجهت خلال حياتي عقبات، بعضها يتطلب تعديلات تكتيكية، وبعضها يتطلب تعديلات استراتيجية. كان أهم تعديلاتي الاستراتيجية هو إصراري على التعليم باعتباره الطريق الأكثر احتمالًا لتحقيق الإنجاز في حياتي، واختياراتي الزوجية، وكانت العقبات في كلتا الحالتين هي معارضة الوالدين.

لقد تُوفي والدي قبل زواجي الأول، لكن أخي وأفراد الأسرة الآخرين عارضوا تلك الزيجة، لقد كنت وحيدة تمامًا في العائلة في قراري بقبول الزواج من كلاوس، وشعرت بحقيقة استنتاجهم بأنني اتخذت خيارًا غريبًا. ولكونه مسلمًا شرقيًّا إيرانيًّا، لم أواجه معارضة عائلية في قبول عرض زواج شاهرخ في عام ٢٠٠٠، بعد نحو عقدين ونصف العقد من زواجي من كلاوس.

بينما كنت أفكر في تعرضي للقيم الثقافية المادية والروحية الغربية، توصلت إلى نتيجة مفادها أن العالم الغربي كان فاتنًا بالنسبة إليَّ. يبدو أن قيمه قد دعتني إلى الدخول في نوع من العالم السحري. أردت أن أبحر في هذا العالم الذي ظهر في البداية مليئًا بفرص الاستمتاع والمتعة. هذه التجربة أحادية الجانب للمجتمع الغربي لن تدوم بطبيعة الحال، خصوصًا عندما أصبح أكثر حكمة

في التعامل مع طرقه وممارساته. لكن الانبهار بهذا المجتمع كان شعورًا قويًّا، جعلني أرغب في أن أكون قادرة على استيعاب ما يقدمه لي. وبناءً على ذلك، سوف تتكون هويتي بشكل أفضل مما لو اقتصرت خبرتي على المكتسب من ثقافتي العربية الأصلية. نعم، لقد ساهمت تجاربي واحتكاكي بالعالم الغربي ثم أسفاري إلى آسيا في تشكيل هويتي، فصار لتلك الهوية رافدان: الأول من الثقافة العربية وهو الأصل، والثاني من الثقافة الغربية ثم الآسيوية اللتين أعتبرهما فرعين في تكوين شخصيتي.

على وجه الخصوص، أعطتني رحلاتي إلى أوروبا والولايات المتحدة ثم آسيا الفرصة لإثراء مخزون المعايير والقيم الجديرة بالثناء، والتي أشعر بأنها يجب أن تكون الأساس لعيش حياة مُثلى للإنسان في هذا العالم. من خلال تجاربي الأوروبية في سنوات شبابي اكتسبت تقديرًا للموسيقى والفن، بالإضافة إلى تقدير المتاحف والحدائق العامة والمكتبات، وكذلك أماكن الترفيه. كما منحتني رحلاتي إلى آسيا، بمفردي في كثير من الأحيان، إلى أماكن مثل الهند وتايلاند وإندونيسيا، الفرصة لتشرُّب بعض جوانب الصفاء الثقافي الموجودة في الحضارات الآسيوية العظيمة. أحب أن أعتقد أن تعرضي لهذا الجزء من العالم أعطاني الفرصة لأصبح شخصًا أكثر اكتمالًا وأكثر إثارة للاهتمام، كما أتمنى.

ومع ذلك ظلت تربيتي وعاداتي العربية ثابتة طوال حياتي.

* * *

في الولايات المتحدة الأمريكية، التحقت بواحدة من الجامعات الرائدة في ذلك البلد «كاليفورنيا-بركلي» والتي اشتُهرت ليس فقط بفرصها التعليمية ومساهماتها العلمية، بل أيضًا بالتركيز من قِبل طلابها وأعضاء هيئة التدريس على المشاركة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. في أثناء وجودي هناك، كنت منغمسة في بيئة الحرم الجامعي الأمريكي في أثناء حرب فيتنام وحروب الشرق الأوسط في يونيو ١٩٦٧. وسرعان ما أدركت أن الانتقاد الليبرالي لتورط أمريكا

في فيتنام لم ينطبق على حرب يونيو - وهو الدرس الذي تعلمته بشكل مكثف وبقلق. إن الضيق الذي شعرت به عندما شهدت تطبيق المعايير المزدوجة في الحكم على العرب بشكل سلبي ظل متجذرًا بعمق في نفسي.

الشيء المهم جدًّا في بناء هويتي خلال الجزء الأخير من سنواتي في هذه الجامعات كان تصميمي الواضح على عدم العودة إلى جدة لانتظار عرض الزواج. لقد عقدت العزم بقوة على هذا الأمر. لن أجلس في بيت أبي انتظارًا للعريس. لكني هنا أجدني بحاجة إلى التأكيد على أن هذا العزم لم يكن بمثابة رفض لجذوري الثقافية أو إيمان بالقيم الغربية. لم يكن الأمر على هذا النحو قَطُّ. كان من الواضح بالنسبة إليَّ أن العمل كأستاذ جامعي هو الأنسب لآمالي وتوقعاتي للمستقبل. نعم، السنوات التي قضيتها في أوروبا وأمريكا كانت حاسمة في تنمية حساسيتي تجاه التطور التقليدي للفتاة العربية التي بعد أن تنتهي من دراستها تجلس في بيت أبيها انتظارًا «للعَدَل» (بفتح العين والدال)، لكن لا يمكن الاستنتاج من ذلك أنني كنت أشتاق إلى التخلي عن ماضيَّ!

من الواضح أن إحدى النقاط المهمة في هويتي هي الدور الذي تلعبه «الأنثروبولوجيا»، خصوصًا في نسختها الكلاسيكية القائمة على البحث الميداني الإثنوغرافي. صحيح أن هذا المجال أصبح في السنوات الأخيرة أقل ارتباطًا بالإثنوغرافيا - إجراء البحوث في هذا المجال من خلال الوسيلة الأساسية لملاحظة المشاركين. وهذا إلى حدٍّ ما نتيجة للنقد واسع النطاق الذي يميل البحث الإثنوغرافي الكلاسيكي إلى التقليل من تأثير عالمة الإثنوغرافيا نفسها في الأشخاص الذين كانت تدرسهم. ولكن لا أستطيع أن أنكر - بل إنني أعترف بذلك - أنني سعيت إلى الدفاع عن أهمية الإثنوغرافيا الكلاسيكية بسبب أهميتها المحددة في رحلة حياتي، لكي أصبح الشخص الذي أنا عليه وما زلت أصيره.

لكن هناك ما هو أكثر من هذه القصة. أعتقد أن أفكاري على مستوى اللاوعي كانت تدور حول الفكرة المركزية المتمثلة في أن البحث الميداني الإثنوغرافي هو أداة مهمة لإثراء حياة إخوتي وأخواتي العرب، ومن ثَمَّ تحسينها. ولا يعني

ذلك أنني أتخيل أنهم جميعًا يستطيعون أن يصبحوا علماء أنثروبولوجيا، وتكون لديهم القدرة على دراسة مجتمعاتهم، وبالتالي يكتسبون معرفة حقيقية بشأن طبيعة العوائق الهيكلية والانقسامات الغادرة في مجتمعهم. على أي حال يبدو أنني مسكونة بفكرة أن انتشار البحوث الإثنوغرافية في المنطقة العربية لديه القدرة على رفع حجاب الجهل عنها في نهاية المطاف، ذلك الذي سمح لهذه المنطقة الشاسعة بأن تكون ضحية ومضطهدة فترة طويلة من قِبل الخصوم الخارجيين الذين يسعون إلى الاستيلاء عليها والاستفادة من مواردها.

ومن ثَمَّ أطلقت جائزة في العلوم الاجتماعية للطالبة أو الطالب الذي يقدِّم أفضل دراسة قائمة على البحث الميداني. وهي جائزة أعتز بها وتطورت إلى ندوة سنوية تُقدَّم فيها أفضل الدراسات.

على مستوى آخر، فإن التزامي بالأنثروبولوجيا وتنوعها القائم على البحث الميداني الإثنوغرافي قد أدى في الواقع إلى تمكيني من اكتساب المعرفة عن ثقافتي ومجتمعي بطرق لم تكن ممكنة لولا ذلك الالتزام، لأن الأنثروبولوجيا تتمتع بسمات منهجية فريدة للاكتشاف، ولقد تمكنت من استخدام وصولي إلى تلك السمات للتعرُّف على مكانتي ودوري في مجتمعي، وهو المجتمع الذي أصبحت منفصلة عنه جزئيًّا خلال تلك السنوات التي قضيتها بعيدًا عنه، وقد برزت هذه النقطة بوضوح في دراسة نُشرت عام ١٩٨٨ بعنوان «في وطني أبحث».

على الرغم من أن وضعي كباحثة من السكان الأصليين كانت له مزايا مهمة، بما في ذلك عدم الاضطرار إلى مواجهة تحديات الاستقرار في بيئة ثقافية واجتماعية جديدة، والتمتع بمستوى معين من الثقة بمحاوري لا يستطيع باحث أجنبي أن يحظى به، فقد كان عليَّ أيضًا التغلب على قدر من المقاومة من جانب عدد كبير من هؤلاء الأشخاص أنفسهم، الذين كانوا يشعرون بالقلق من أنني قد أكشف عن حقائق معينة حول طبيعة علاقاتهم الاجتماعية - بما في ذلك الصراعات - التي كانوا حريصين على إخفائها عن الرأي العام. صغت سؤالَ بحثي، وهو: ما أنماط العلاقات الاجتماعية بين نخبة نساء جدة وطبيعة تأثيرها؟ واستخدمت

تلك الاستراتيجيات التي أشاد بها التخصص باعتبارها الأنسب. وفي النهاية ساعدني ذلك على أن أصبح إنسانًا أقوى وأكثر ثقة.

لكن لماذا يجب أن يكون ذلك مهمًّا؟

الجواب هو أنني سعيت طوال حياتي إلى أن أكون مخلصة لثقافتي، مهما كنت منغمسة لسنوات طويلة في ثقافة وممارسات المجتمعات الغربية. باختصار، أنا مثال كلاسيكي للشرق أوسطي الذي كان نتاجًا لثلاث ثقافات. وأنا بالتأكيد لا أقصد التقليل من المصاعب المرتبطة بمثل هذا الوضع. في سنواتي السابقة، أتذكر أنني تعاملت مع قدر ضئيل من الخوف من أوروبا وأمريكا، على الرغم من أن الأمر قد يبدو غريبًا، وذلك نظرًا إلى حقيقة أنهما كانتا ترمزان إلى عالم «الآخر» بالنسبة إليَّ. كانت القضية الرئيسية هي أن أتمكن من إيجاد طريقي من خلال قواعدهما وتوقعات شعبيهما تجاه امرأة غير غربية؟ على الرغم من أنني لم أعد أشعر بمشاعر الخوف أو حتى القلق، فإنني أتساءل عن الفرص الضائعة المحتملة لتحقيق المستوى الأمثل من الراحة كامرأة من كلا العالمين اللذين سكنتهما طوال حياتي.

كانت هذه عقبات كبيرة واجهتها، وتعاملت معها. بقدر ما أعلم، لم أسمح لها قَطُّ بأن تكون منهكة لي. كان الأمر كما لو أن صوتًا داخليًّا كان يحثني على قبول حقيقة العقبات، ولكن بعد ذلك أكافح ضدها. لديَّ صورة الحديد الذي يمر بعملية التلدين ليظهر كالفولاذ المقوى. لقد أدى صراعي مع العقبات التي واجهتها إلى تعزيز عزمي على أن أكون ذلك الشخص الأفضل الذي سكنت صورته في داخلي منذ اليوم الأول الذي أتذكره. أعتقد أن التأثير التراكمي لمحاولة الالتزام بالمقولة «إذا لم تنجح في البداية، حاوِل، حاوِل مرة أخرى»، هو القدرة على توجيه حياتي في اتجاه إيجابي ومُرضٍ.

هناك صورة لي التُقطت في منتصف التسعينيات، عندما كانت عائلتنا تقضي الصيف لبضعة أسابيع في سردينيا الإيطالية. كنت بصحبة ابن أختي خديجة. يقول زوجي إنني في هذه الصورة أجسد صورة «ثريا الأصلية». عندما سألته عن

سبب شعوره على هذا النحو تجاه تلك الصورة بالذات، قال إن السبب هو أن لديَّ هالة من الفخر والسعادة الواثقة في اللحظة التي وجدتني فيها الكاميرا. في وقت لاحق لازمني اعتقاد بأن هذه الصورة تبعث رسالة إلى المراقب مفادها أن هذه المرأة «تشعر بالراحة مع نفسها». وبعبارة أخرى، هذه هي المرأة التي تشعر بالرضا تجاه هويتها. لا يعني ذلك أن هذه مرحلة نهائية من نوع ما، بالطبع هوية الفرد عرضة للتغيير. لكن جذور هوية الفرد التي تتأسس عند البلوغ ربما لا تكون عرضة للتغيير، مهما تعرض الفرد لأزمة عاطفية كبيرة أو حتى عدم استقرار في طريقة تفكيره ونظرته إلى الأمور.

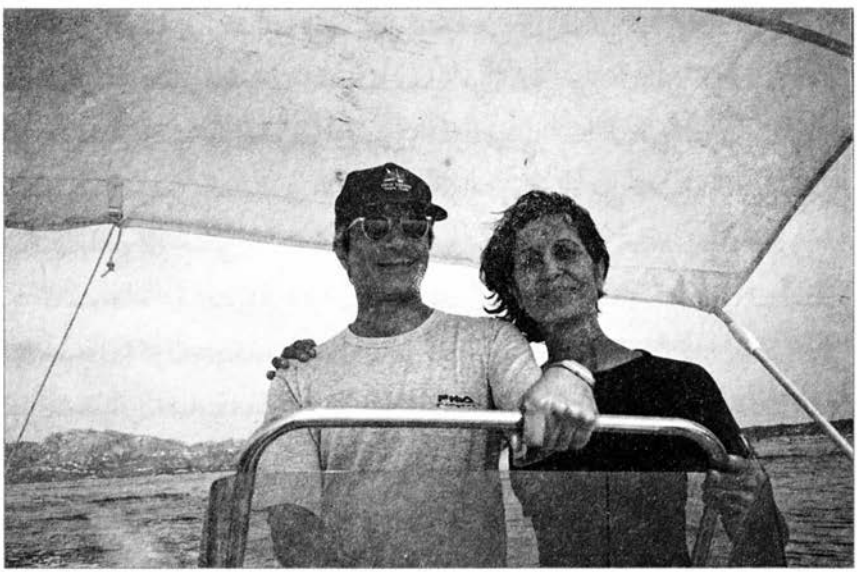

ناصر ابن أختي وأنا على متن قارب في سردينيا بإيطاليا في منتصف التسعينيات تقريبًا

ولكن من أين جاءت هذه الثقة بالنفس في البداية؟ أظن أنها نابعة من نموذج المرأة القوية الذي أثر فيَّ خلال سنوات شبابي، والذي تجسده أمي وخالتي. ففي حالة والدتي، أدى زواجها من رجل يتمتع بشخصية قوية ولكنه يحترمها

إلى ازدهار ثقتها بنفسها التي شكَّلت طبيعتها الهادئة، التي أُعجبت بها. وفي حالة خالتي، وهي امرأة كانت تحظى بالحضور الاجتماعي وتتمتع بمزاج واثق بنفسها، غير أن زواجها من عمي - وهو شخص لم يكن متسلطًا - أعطاها فرصة إضافية للتعبير عن رأيها علنًا.

كانت والدتي أمية، لكنني عرفتها كشخص ذكي للغاية، ولم يكن لديها تعليم رسمي، بل ربما كان لديها شيء أكثر رفعة - أعني الحكمة. وقد ساهمت هذه الحكمة، إلى جانب النزاهة الشخصية واحترام الآخرين، في تمتعها بمكانة مرموقة بين الجاليات - سواء في جدة أو بين العرب المغتربين في الخارج - التي شكَّلت دائرتها الاجتماعية. وبعبارة أخرى، فقد جسدت شخصًا ينطبق عليه المثل الإنجليزي: «المياه الراكدة تجري عميقًا».

حرفيًا يبدو أن هذا يعني أن الأنهار العميقة تتدفق بينما تنتج أول صوت. لا تتعلق الحكمة بإنتاج أصوات متنافرة بل بإصدار أحكام ذات مغزى عميق وتمييز حول ما هو الأفضل للناس بالنظر إلى طبيعة الحالة الإنسانية. لا بد أن هذه السمة الرائعة أثرت فيَّ تأثيرًا عميقًا.

ولا بد أن احتضان والدتي لها أثبت جاذبيته العميقة في بحثي عن الثقة بالنفس والاطمئنان في حياتي.

لقد لعبت والدتي في الواقع دورًا ربما يساوي دور والدي في دفعي لكي أصبح امرأة عربية شابة متعلمة. أتذكر تشجيعها الكبير لي. لم تكن خائفة من الأشياء الجديدة في الحياة. قبلت زواجي من كلاوس، على الرغم من عدم الارتياح في البداية. وفي وقت لاحق، اعتادت أن تمشي معه، وسمحت له بإعداد أدويتها، وتواصلت معه - إلى حدٍّ كبير من خلال لغة الإشارة، حيث لم يكن كلٌّ منهما يعرف لغة الآخر. ومع الحفاظ على إخلاصها لمعتقداتها الدينية ومبادئ هذا الإيمان، بدا أنها لم تنزعج من المخاطر المحتملة التي قد ينطوي عليها التعليم الأجنبي بالنسبة إليَّ. أتصور أنها رأت الخطر الأكبر على ابنتها في تلك الطرق التي يمكن أن تفسد إيمانها بالتعاليم الإسلامية. لا بد أنه كان من

دواعي التحرر بالنسبة إلى فتاة صغيرة، وبعد ذلك إلى المرأة، أن تلاحظ هذه السمة في والدتها، وتحاول محاكاة هذا المتطلب الأساسي، لاكتساب شعور قوي باحترام الذات والثقة.

كانت أيام دراستي في بيروت غير مريحة في مجملها، وكنت أشعر دائمًا بأنني غريبة هناك، ومن ثَمَّ لم أشعر بالراحة قَطُّ. أعتقد أنني توقعت أنه سيتم «استدعائي» في النهاية كشخص ليست لديه أفكار جيدة عن المسيحية أو العادات الغربية، ومن ثَمَّ فإن الأشخاص الذين لديهم مثل هذه الأفكار عني يفضِّلون ألا تكون لهم أي علاقة بي، ناهيك بذلك عن أنني أؤيد حقي في التفكير كما يحلو لي. وبشكل أكثر وضوحًا، اعتقدت أن أساتذتي لم يحبوني. كان هذا مؤلمًا بشكل خاص بالنسبة إليَّ.

كنت أواجه صعوبة في التحدث باللهجة اللبنانية، وكان لديَّ شعور في بعض الأحيان بأن أساتذتي يعتقدون أنني طفلة شقية لأنني فشلت في مناسبات عديدة في اتباع تعليماتهم. في إحدى المرات، ارتكبت خطأً في الدرس وعوقبت بأن طُلب مني الوقوف على قدم واحدة في ساحة المدرسة. بدأ المطر يهطل، لكن هذا لم يكن له أي تأثير على قرار المعلمات. لقد أثرت هذه الحادثة بطبيعة الحال على غضبي العميق تجاه مَن يعلموننا على النمط الغربي، الذين بدوا مصممين على جذب الاهتمام والطاعة الكاملين من طلابهم من دون أي تقدير للسياق الذي حاول هؤلاء الطلاب التعلم فيه.

في تجربتي التعليمية الأكثر إيجازًا في المدرسة السويسرية «Le Grand Verger» (التي اقتصرت على بضعة أشهر صيفية في منتصف الخمسينيات) واجهت مرة أخرى التحديات التي شرحتها فيما يتعلق بأيام بيروت. لا شك أن كيفية التعامل مع هذه التحديات كانت تؤرقني باستمرار، تمامًا كما كانت الحال في لبنان.

في كلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية - لمدة خمس أو ست سنوات من منتصف الخمسينيات إلى أواخرها - يبدأ اليوم الدراسي بالنشيد المدرسي الذي يبدأ بأول حروف اسم المدرسة «EGC» لنغني «E stands for England, our home»

(حرف الألف يرمز إلى إنجلترا، موطننا). كنت أغني لأنها كانت تحتوي على خط لحني جميل، لكن هذه الفكرة الإيجابية طغت عليها عندما قلت لنفسي إن إنجلترا ليست موطني، بل وفكرت في أن الإنجليز لن يقبلوا أن تعتبرها فتاة عربية موطنًا لها، على أي حال!

لم تكن إنجلترا موطني فحسب، بل إن تجميع الطلاب في المدرسة للمواد الأكاديمية والترفيهية في «أُسر» لم يكن له أي معنى. وذلك لأن الأُسر سُميت على أسماء العائلات الملكية البريطانية. أنا، على سبيل المثال، كنت في أسرة بلانتاجينت، بينما عُين آخرون في أُسر تيودور، وستيوارت، وويندسور.

علاوة على ذلك، فإن الأحداث الإقليمية والعالمية التي أبرزتها المصادقة الاستعمارية القوية تركت انطباعات سلبية قوية في نفسي. لقد عمقت حرب السويس سنة ١٩٥٦ التزامي بالعروبة، وتعززت من خلال التماثل مع قضية الوطنية الإقليمية الفلسطينية.

ولم تتغير أفكاري بهذا الخصوص حتى الآن، فعندما اغتيلت مراسلة قناة الجزيرة الصحفية الفلسطينية شيرين أبو عاقلة في ١١ مايو ٢٠٢٢ في أثناء تغطيتها لمداهمة نفذتها قوات الاحتلال في مدينة جنين بالضفة الغربية، تأثرت بشدة كما تأثر الكثيرون في العالم العربي فدشنت جائزة باسمها للتفوق العلمي، تُمنح سنويًّا تحت مظلة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، لطالب فلسطيني متفوق من الضفة الغربية أو قطاع غزة لإحياء ذكراها كل عام، كونها تُعَد نموذجًا للإنسان الفلسطيني المناضل والمؤمن بعدالة قضيته، ولأنها صحفية دفعت حياتها ثمنًا لإيمانها بحق المُشاهد في المعرفة. إطلاق هذه الجائزة كان ضروريًّا لإعلان التضامن مع الشعب الفلسطيني.

ويمكن للقارئ أن يتخيل ما قد يفكر فيه أي مصري أو عربي يعيش في القاهرة تجاه «الغرب»، بينما يبدو أنه مستهدف، لأنه يعيش في بلد يقوده زعيم لديه الجرأة على تحدي الإجراءات والسياسات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية في الشرق الأوسط. في الواقع، كان جزءًا من التنشئة الاجتماعية التي تلقيناها نحن الطلاب

العرب في كلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية هو كل الأشياء الجيدة التي كان البريطانيون يفعلونها لنا في مصر. كانت هذه المفاهيم تبدو محسوبة تقريبًا لتولد غضبنا من النفاق الذي تحدثت عنه.

السنوات الأخيرة التي قضيتها في بركلي، والتي تزامنت في وقت مبكر مع حرب يونيو عام ١٩٦٧، تسببت في الكثير من البحث الذاتي حول كيفية هزيمة الجيوش العربية بهذه الطريقة السريعة والنهائية. لقد قمت بالتواصل الاجتماعي بسهولة وبشغف مع الطلاب العرب. لقد كنت هنا مرة أخرى بعيدة عن المنزل وفي بيئة غريبة، ولذلك كان من الطبيعي أن أنخرط في هذه التنشئة الاجتماعية. وفي اجتماع بالمنظمة الطلابية العربية الرئيسية، رُشحت لأكون أمين سر منظمة الطلبة العرب في الحرم الجامعي. كان من الممكن أن يكون هذا الترشيح نتيجة لمشاركتي النشطة في الأنشطة الاجتماعية والسياسية لهذه الهيئة، وبينما رفضت العرض، بقيت أحد أعضائها النشطين، وتحدثت في اجتماعاتها عن الحاجة إلى التضامن والانتقاد اللاذع للسياسات الأمريكية وتحركاتها في المنطقة العربية، وكذلك معارضة التحركات الأمريكية في فيتنام.

بعبارة أخرى، فإن سمة شخصيتي المتمثلة في تحدي ما أعتبره غير عادل كانت راسخة قبل أن أتزوج - تلك المؤسسة الاجتماعية التي تمثل في معظم الثقافات مرحلة النضج والبلوغ. أشعر كأنني وصلت خلال سنوات دراستي الجامعية إلى مرحلة وصلت فيها إلى قبول نصيحة الفيلسوف «اعرف نفسك». كما أفهم وصية سقراط، فهو ينصحنا بأن نكون منفتحين واثقين قدر الإمكان من دون تعريض أنفسنا للسقوط، وأن نأخذ مبادرات ضمن حدود العقل، وأن نكون منتجين ومبدعين في عملنا وعلاقاتنا.

هذه الموضوعات هي أهداف يجب تقريبها، وفي سعيي لتحقيقها. مررت بالتأكيد بالعديد من الصعود والهبوط، لكني أحب أن أعتقد أن والدَي سيكونان سعيدين بالنتائج حتى الآن. لا أستطيع أن أقول ما إذا كان هذا هو منظورهما لحياتي في سنواتي اللاحقة، لكنها بالتأكيد أمنيتي العزيزة.

في الختام أحب أن أقول إنني راضية بما حققت في حياتي. فأنا أحب التعليم وتعلمت وعلمت وصرت من الأساتذة المنتجين في مجال تخصصي. كنت أتمنى أن أعمل في جامعات المملكة العربية السعودية وطني، فعندما يعمل الإنسان وينتج فوق تراب بلده الذي وُلد فيه يتضاعف شعوره بالإنجاز والإسهام في بناء وطن يسكن قلبه. لم يتسنَّ لي تحقيق هذه الأمنية. عوضني ربي عن الغربة عن وطني في المملكة بأن وهبني الحياة في مصر، التي أعتبرها بيتي ووطني الثاني، عشت في مصر الجزء الأكبر من حياتي؛ من المدرسة إلى الجامعة إلى عملي بالجامعة الأمريكية الذي دام نحو الأربعين سنة. خالطت وصادقت مصريين ومصريات لهم أفضال كثيرة عليَّ، حتى إنني في أوقات كثيرة أشعر بأن مصر هي مكاني وموطني المختار.

١٣

وأخيرًا...

لم أصادف في حياتي شيئًا يخصني حظيَ بإجماع أصدقائي وزملائي شبيهًا بالإلحاح عليَّ لتدوين تجربتي في الحياة، التي رأوا فيها - مشكورين - ما يستحق أن يُروى، عساه أن يكون ملهمًا لأجيال جديدة من نساء شبه الجزيرة العربية، وتبيانًا لأن ما صار في متناول أيديهن من مكتسبات وحقوق يعددنها بديهية. احتجت وبنات جيلي إلى أن نخوض لأجلها المعركة تلو المعركة، ضد ثقافة مجتمعية تتكئ على تفسيرات معينة للنصوص الدينية، وهو ما وقف سدًّا منيعًا أمام تعليم المرأة وعملها وانخراطها في الحياة العامة بمجتمعها.

في كل مرة كنت أعتزم فيها الجلوس لكتابة تجربتي كانت تفلت مني اللحظة، بفعل عمل جديد يُسند إليَّ، سفر مفاجئ، تحدٍّ مهني يواجهني، ربما خوف ومهابة من هذا النوع من الكتابة، على الرغم من أن الكتابة تقع ضمن أدوات حرفتي كأستاذة جامعية. لكن كل تلك العراقيل التي تساهم في إفلات لحظة الكتابة من يدي قد تبخرت بعد أن صرت ألحظ ردة في الإقبال على التعليم والتمتع بمنجزات المرأة في بلادنا التي ناضل جيلي لتحقيقها، تلك الردة أتت على أيدي بنات عصر ما بعد النفط، فقد هالني أن أرى بنات عائلتي ومحيطي يروجن لأنهن يرحبن بالاكتفاء بالتعليم الثانوي والتفرغ للحياة الزوجية مع مقاومة شديدة لفكرة الالتحاق بالجامعة، تقول بعضهن: «لسنا بحاجة إلى وظيفة»، كأن التعليم الجامعي قد خُلق لأجل الوظيفة. في كل مرة كنت أواجه

بنات يحملن ذلك التوجه كنت أُصاب بإحباط شديد وحسرة مريرة يصعب احتمالها.

وعلى الفور أتذكر بنات جيلي وكيف حاربنا كي نحصل على حقنا في التعليم. صدقوني عند ظهور ذلك الخطاب المقلل من شأن تعليم المرأة من جانب المرأة نفسها، لا التقاليد هذه المرة، زاد عزمي وإصراري الأكيد على تدوين تجربتي، التي وإن كانت شخصية إلا أنني أراها - بتواضع شديد - تنسحب على بنات جيل كامل خرج إلى الحياة فلم يجد مدرسة أو جامعة، وبعد أن وُجدت تعرضن لعراقيل للحيلولة دون التحاقهن بها، حتى بعد أن صار تعليم البنات إلزاميًّا وتبنته الدولة خرجت مظاهرات في الستينيات أمام مدارس البنات اعتراضًا على افتتاحها.

كل تلك المعطيات جعلتني أتأكد أن تجربتي تحمل في طياتها وبين ثناياها إجمالًا ربما من دون تفاصيل كثيرة تجربة تعليم المرأة السعودية ومراحل تطوره، والنضال من أجله. كما أن أسرتي وتعاطيها مع مسألة تعليم الفتيات وطريقة تربيتها ربما تعكس إلى حدٍّ بعيد نظرة المجتمع السعودي في سياقات زمنية مختلفة لتربية وتعليم البنات. ولا يمكن تعميم تعامل أسرتي معي، فقد كنت «الاستثناء» لا «القاعدة»، إذ حصلت على ما لم تحصل عليه أخواتي الأكبر مني سنًّا. وهذا يبين مدى التغيير الاجتماعي الذي يحدث في المملكة من جيل إلى جيل.

شجعني أيضًا على تدوين تجربتي أن هناك أشخاصًا لعبوا أدوارًا في حياتي وفي حياة مجتمعي يستحقون أن نخلد أعمالهم التي بذلوها في سبيل تقدم المجتمع ورفعته، فليس في الدنيا أعظم من الاعتراف بالجميل والفضل، خصوصًا بعد أن تقاعدت وبعد أن شارفت الرحلة على الانتهاء، فلم تَعُد هناك شبهة مجاملة لهذا الطرف أو ذاك، ممن أتى ذكرهم بين دفتَي هذا الكتاب.

كذلك من ضمن دوافعي القوية للكتابة هو أن أسجل عظيم شكري وامتناني لأسرتي، التي ضحت كي أصل إلى المكانة التي وصلت إليها، لأبي الذي - كما ذكرت - واجه معي التقاليد، ومنحني فرصًا على حساب صورته بين ذويه، ذلك أنه لم يختَر إيثار السلامة، بل اختار الطريق الصعب عوضًا عن أن يقف ضد

طموحي ورغبتي في التعلم وتحقيق ذاتي. أكتب أيضًا لأساتذتي وكل من أخذ بيدي في رحلة شاقة كادت سفينتي تغرق فيها عشرات المرات، لولا أن منَّ الله عليَّ بمَن دعم وساند ونصح ووجَّه... فلهم مني جميعًا جزيل الشكر والعرفان.

جاهدت أن يكون منسوب الصراحة في أعلى معدلاته في هذا الكتاب، عرضت ذاتي كما هي من دون تجميل أو «رتوش». لست سياسية حتى أشوِّه خصومي إن كان لي خصوم، أو أدعي أدوارًا أو بطولات وهمية لم أقم بها، فإنجازات العالِم تتحدث عنه في نتاجه العلمي، ولا داعي لأن يعيد ويزيد في الحديث عنها.

عرضت ما جرى في حياتي كما جرى، وفي مناطق أدعي أن غيري كان سيفكر عشرات المرات قبل أن يخوض فيها. ربما السر وراء تلك الصراحة النسبية أنني عالمة، وتلح عليَّ دومًا فكرة الموضوعية حتى ضد ذاتي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فعلى الرغم من أن التجربة شخصية، فإن فيها تداخلًا مع موضوعات عدة على النحو الذي أشرت إليه، والذي أجمله في موضوع التغيير الاجتماعي في المملكة من خلال شخصي وعائلتي وربما جيلي كله.

شكر وتقدير

هناك مَن أرى أنه حق عليَّ أن أوجه إليهم شكرًا خاصًّا لدورهم في دفعي إلى كتابة هذا الكتاب، على رأسهم تأتي جان صديقة عمري وزوجة الدكتور جلال أمين، التي في كل مرة نلتقي تشجعني على البدء، وتعدد لي الفوائد التي تراها جمَّة من تدوين التجربة. وقد افتقدت الدكتور جلال أمين بشدة في أثناء الكتابة، وكنت أتمنى أن يراجعها معي، ذلك الإنسان والمفكر العظيم، الذي لعب دورًا مهمًّا في حياتي.

وعندما قررت أنه لا مفر من الجلوس لتدوين التجربة وجدت الدعم والعون من الصديق العزيز السفير شكري فؤاد، الإنسان والمثقف النبيل الذي بدأ معي رحلة المراجعة بالفعل، وكم حزنت لأنه تركني في منتصف الطريق وانتقل إلى جوار ربه. خسارة شكري فادحة لكل مَن عرفه واقترب منه، فليس من السهل أن تلتقي إنسانًا يحمل كل ذلك العطاء اللامحدود لكل المحيطين به، لروحه السلام.

أشكر زوجي الدكتور شاهرخ، الذي كان خير معين لي في تسجيل هذه التجربة، والذي ضحى بالكثير من وقته في دعمي، ومَن وفر لي الوقت لتدوينها.

أشكر الدكتورة نادية طاهر، فقد راجعت نادية مسودة تلو مسودة من هذا الكتاب، وما كان للكتاب أن يرى النور من دون دعمها.

وأشكر صديقتي وتلميذتي الآنسة نهى فكري، لملاحظاتها القيِّمة بخصوص الجزء الأول من الكتاب.

وأشكر صديقتي قسمت عبد الوهاب، تلك الصديقة الوفية التي ألحت عليَّ كي أكتب، واقترحت عليَّ الاستعانة بالكاتب الصحفي الأستاذ خالد أبو بكر في تحريره.

كما أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ خالد أبو بكر، على مجهوده الذي تعدى كل توقعاتي في تحرير المسودات الأولى لهذا الكتاب، وعلى كرمه وأمانته في تحري دقة المعلومات، وعلى صبره معي.

وشكر خاص للآنسة ابتهال أحمد على مساعدتي في هذا الكتاب والصبر على ترددي وإعادة كتابة نفس الفقرات عدة مرات بطرق مختلفة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لم أصادف في حياتي شيئًا يخصني حظيَ بإجماع أصدقائي وزملائي شبيهًا بالإلحاح عليَّ لتدوين تجربتي في الحياة، التي رأوا فيها - مشكورين - ما يستحق أن يُروى، عساه أن يكون ملهمًا لأجيال جديدة من نساء شبه الجزيرة العربية. فقد خضت وبنات جيلي المعارك تلو المعارك لأجل حقوق تُعَد اليوم بديهية، ضد ثقافة مجتمعية تتكئ على تفسيرات معينة للنصوص الدينية، وهو ما وقف سدًّا منيعًا أمام تعليم المرأة وعملها وانخراطها في الحياة العامة بمجتمعها.

عرضت ما جرى في حياتي كما جرى، وفي مناطق أدعي أن غيري كان سيفكر عشرات المرات قبل أن يخوض فيها، وجاهدت أن يكون منسوب الصراحة في أعلى معدلاته في هذا الكتاب. عرضت ذاتي كما هي من دون تجميل أو «رتوش». وربما السر وراء تلك الصراحة النسبية أنني عالِمة، وتلح عليَّ دومًا فكرة الموضوعية حتى ضد ذاتي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وعلى الرغم من أن التجربة شخصية، فإن فيها تداخلًا مع التغيير الاجتماعي في المملكة من خلال شخصي وعائلتي وربما جيلي كله».

- د. ثريا التركي

تُعَد الدكتورة ثريا بنت محمد السليمان البراهيم التركي أول سعودية تتخصص في الأنثروبولوجيا، ومن أوائل السعوديات اللواتي حصلن على شهادة الدكتوراه.

وللعالِمة - المعتزة دائمًا بأنها ابنة نجد والحجاز والفخورة بعروبتها - العديد من الدراسات الرصينة المهمة، كما أنها درَّست في جامعات هارفارد وكاليفورنيا وجورج تاون وبنسلفانيا، وجامعة الملك عبد العزيز وجامعة الرياض، والجامعة الأمريكية في القاهرة.

يجمع هذا الكتاب المتع ذكريات حياة حافلة وغير تقليدية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكرمة